
كولن ولسون
الشك
رواية
دار الآداب

كولن ويلسون



رواية

نقلها إلى العربية

يوسف شرورو وعمر يمق

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

مقدمة قصيرة للرواية

بقلم يوسف شرورو

قبل أن ينشر كولن ولسون روايته هذه ، أعطاني نسخة منها طبعت على الآلة الكاتبة ، وأوصاني أن أطالعها لكي أناقشه فيها ، فأخذتها الى بيتي لألتهمها بنهم مرتعش . وقد أخافتني أفكارها وكلماتها ، ودفعتني لزيارة كولن بعد ثلاثة أيام لأجد أجوبة للأسئلة العديدة التي كانت تدوّم في رأسي . وكأنه كان ينتظر قدومي بهذه السرعة ، فقد اندفع في حديث متدفق صاخب عن تأثير الخدر في صفاء العقل البشري ، وعن اكتشافه لبعض الحبوب التي تشحن العقل الإنساني بولد كهربائي ضخم ، وعن الأمل القريب في رؤية السوبرمان الحديث ينطلق من بين صفوف الإنسانية . وجلست أستمع إليه وأتذكر الكلمات التي قرأتها منذ أيام في هذه الرواية ، وتساءلت في داخلي : « هل أصبح كولن يؤمن بأفكار أبطال رواياته ؟ »

ولكنه لم يدع لي مجالاً لالتقاط الجواب الذي أريد ، لأنـــه مضى في قوله المتدفق المزركش بالكلمات الكبيرة :

ـ لقد أعطاني هــذه الحبوب صديق يعمل في الصيدلية ، وقـــد خفت في البداية أن أستعملها ، وفكرت طويلاً ، ثم قررت أن أخوض تجربتها ، وبحذر مرتجف أخذت نصف حبة فقط ، وانتظرت ، وبعـــد دقائق قصيرة شعرت بطبقات الصدأ المتراكمة في داخلي تزول، لتنطلق طاقات خلاّقة من حياة تنظم

عقلي وتفكيري . كانت الأفكار تنبع بصفاء عذب ، جعلتني أنتشي بالرؤيا التي طالما انتظرت قدومها ، ففرحت وقفزت مرحاً أبتسم للأشياء الكثيرة التي تحوطني ؛ لقد تكوّن السوبرمان في داخلي ، وكان نيتشه يعيش بالقرب مني ؛ وأنا سأختصر تاريخ الفلسفة لأنني بمساعدة صديقي الصيدلي ، سوف أصل بالإنسانية الى عتبة الحرية المطلقة ..

قلت وأنا أعيش في دهشة كاملة :

– هل أنت بخير يا كولن ؟ هل تشعر بالحمى ؟ فكلماتك السابقة عبارة عن أفكار جوستاف نيومن .

إبتسم وهو يقول :

– هذا رائع ، فأنت ما زلت تذكر كلماته ، وقد أردت بحديثي السابق مداعبتك فقط ، فكيف يصل الإنسان إلى الحرية المطلقة وهو الذي لا يستطيع الطيران في الجو ، ولا يستطيع قهر المرض ، حتى ولو بلسانه ؟ فالعادة تحيطه وتحاصره وهو لا يستطيع الإنفلات من حصار واجباته وعاداته المتكررة ؛ وهل يستطيع الإنسان أن ينطلق إلى السوبرمان بأخذ حبة صغيرة تحتوي على مخدر ؟ إن التشويه يكمن في افتراض وقوع الحرية على مستوى مادي ، لأنها ليست كذلك ، فالإنسان يقفز حواجز الصعاب ويخفضها له عندما يلبس رداء القوة ، الإرادة الخلاّقة ، فالحالة التي نعيشها اليوم هي صنو المرض ، والحياة ذاتها تتطلب مجهوداً لكي نشعر بها ، هذا المجهود هو ما أسميه بالصفة الإنسانية والذي يفترض فيه أن يكون على صورة الحياة نفسها .

وتابع كولن يقول :

– نحن بجلوسنا حيارى يأكلنا الحزن نصور حالتنا التي توارثناها منذ آلاف السنين ، حالة المرض والكآبة في معرفتنا وإدراكنا العالم ، فالإنسان خليق بالحرية التي تبرزه بالصفة التي تريد ، ولكنه يتهاوى قبل أن يبدأ ، ويقعد حزيناً كإمرأة تنوح ، ونحن نتساءل ما الذي يقيمنا ويقعدنا بكآبة ؟ هل هي الخطيئة الأولى ؟ إن علم التشريح ، أعني علم الأحياء لا يعترف بها ؛ إن العادة ،

العادات هي وحدها التي تقيد الإنسان وتربطه بعالمه ذي الحدين ، الخوف والمرض ، العادات التي مضى عليها ملايين من السنين دون تغيير ، ومن الأشياء المعترف بها للجميع أن حضارتنا في حالة إفلاس فكري مرعب مخيف ، مع أنها تحوي كثيراً من الحقيقة ، فالحياة الآن تشبه عملاً صغيراً بدأ يغرق للأساليب القديمة البالية . علينا أن نأتي بالخبراء وبالفلاسفة ، فمن العبث والسخف أن نعرّف الحياة بالحلم ونصمت ، ثم نستمر في إجترار الحلم ، أعني اجترار الحياة التي توارثناها وما زلنا نتوارثها ، إذ أننا لا نستطيع أن نأخذ جزءاً من الحياة فقط ، ومشكلتنا هي أننا نستغرق دوماً في الأحلام ، فالناس تحلم وتحلم بالحل وبالأمل ، بالثروة والمجد ، بالشهرة والحرية ، ولكن هل تحمل لنا أحلامنا شيئاً من الحرية التي نريد ؟ علينا أن نواصل البحث لنجد طريقة توقف افلاس الفكر ، وغرق الحياة .

قلت :

– أنت تعيش هنا من أجل البحث المتواصل عن الطريقة ، فهل وجدتها ؟ كنت قد قلت لي عندما قابلتك أول مرة ، إنك تكتب كتاباً عن فلسفة جديدة تؤمن بأنها ستوقف عملية الغرق التي نعيشها ، والآن تحدثني عن الإفلاس ، وعن العقم الفكري ، وعن الخراب ، والناس المصنوعين من القش ، وتلقي بين يدي برواية جديدة تجعل بطلها البروفسور كارل تسفايغ يضلل بكلمات جوستاف نيومن عن اكتشافه للحبوب الجديدة التي ستقذف بالإنسان إلى قمة السوبرمان ، ليطالع طريق الحرية المطلقة من هناك . انني أفهمك يا كولن ، أنني أحاول بإخلاص أن أقبض على أفكارك وأهضمها .

قال وهو يبحث عن نسخة من الرواية ذاتها :

– عندما تنشر هذه الرواية سوف تنطلق مدافع النقاد اليهود عليّ ، وسوف أتهم بعدائي للسامية ، وقد تشترى الرواية من الأسواق دون أن يراها أحد ، فالبروفسور كارل تسفايغ – كما تعلم – ولد من عائلة يهودية نمساوية ، أعني في الرواية ، وعندما أصبح فيلسوفاً تخلى عن اليهودية لانغلاقها على نفسها

واعتنق المسيحية أمام الناس ، وعاش دون دين أمام نفسه . أما جوستاف نيومن الذي قال : إن الإنسان كالإله ، كلاهما عاجز تماماً ، ومن سوء الحظ أنه لم يُكتشف علم للهندسة الإنسانية حتى الآن - إن جوستاف في الرواية كان يهودياً يؤمن بالحقد الكبير ويسعى لتعلم طرق الإنتقام ، ولكي يحقق ما يريد ، إخترع الحبوب السوبرمانية وبدأ يعالج بواسطتها الرجال الطاعنين في السن ليصل الى ما يريده نفسه اليهودية التي لم يستطع أن يتناساها ، عليه ان يجد النقود بطريقة او بأخرى ولو استعمل القتل والكلمات الكبيرة عن الحرية وعن الفلاسفة حتى يجعل من الآخرين اسرى لشخصيته المؤذية والمجرمة ايضاً ، وماذا تكون النتيجة عندما يقابل أستاذه القديم ، اليهودي السابق ، والمسيحي الآن ، اعني البروفسور تسفايغ ؟؟ انني لن اقول لك عن النتيجة فسوف تجدها بنفسك .

قلت بسرعة :

- انا أعرف ان معظم الفلاسفة والعلماء ينحدرون من عائلات يهودية في الأصل ثم فجأة يعلنون اعتناقهم لدين آخر ، او يلقون بعقولهم في بحار الإلحاد البعيدة ، ويظهرون وتتألق صورهم في الصفحات الاولى ويصبحون ابطالاً سوف يخلصون الإنسانية من عذاباتها ، ولكن هل تعتقد أنهم ينسون ، ينسون عائلاتهم ودينهم وأنهم لا يعملون لأجل انفسهم ؟

فأجاب :

- هذا ما تفسره شخصية البروفسور تسفايغ في هذه الرواية ، فقد اعتنق المسيحية عن إيمان ولكنه ما زال يحن لذكرياته مع عائلة نيومن ، والذكريات كما تعرف حياة يتمنى أن يعيشها الإنسان مرة اخرى .

قلت : - لقد حللت في روايتك هذه مشكلة الإختيار والمسؤولية الخلقية وبحث الإنسان المستمر داخل نوازعه النفسية العميقة ، ولكن لمَ جعلت جوستاف نيومن يختار مهنة إجرامية ، ثم علت عمل هذا ، بعشقه لمتابعة أعمال عشيره ؟؟

قال : - لأنه لم ينس بأنه يهودي قبل ان يكون إنساناً .

فسألت : - وما الحل إذن ؟

قال وهو يقرأ كلمات الشاعر ريلكه :

- على اول قادم ان يبدأ العمل لتصحيح الأشياء المهملة ولا نملك حلاً آخر .

لندن - يوسف شرورو

ملاحظة من المؤلف

أخذ عنوان هذه الروايـــة من كتاب لاهوتي كتبه « بول تيلليش » وبطل الرواية هنا البروفسور كارل تسفايغ يشبه الى حد مـــا البروفسور « تيلليش » وجودي » لاهوتي » صاحب منصب جـامعي فلسفي . امـــا صفاته الشخصية الأخرى فلم أقصد بها أن تقترب من صفات البروفسور « تيلليش » » وأنا مـدين للبروفسور « ب. ج. ريتر » على كتابـه الرائع « العمل اللاإجتماعي والجريـــة والتنويم المغناطيسي » وقضيتي « سالا » و « هايدلبرغ » المذكورتين في روايتي هذه .

« كولن ويلسون »

كلمات مقتبسة

أصحيح أن الأشياء الحقيقية أو المهمة، لم يعرفها، أو يكتشفها ، أو يتحدث عنها أحدٌ بعد ؟

أصحيح أنه مضى على الإنسان آلاف السنين ، كان خلالها يتفرج ويتأمل ويسجل ، ثم ينسى تعاقب كل هذه السنين ، وكأنها فترة للراحـــة في مدرسة عادية ، حيث يقضم الإنسان تفاحة أو لقمة من خبز ؟

نعم . إن هذا صحيح .

أمن الممكن ، اننا ما زلنا ، بالرغم من حضاراتنا واكتشافاتنا ، نزحف على هوامش الحياة ؟

نعم . إن هذا ممكن .

أمن الممكن أن تاريخ العالم كله قد شُوّه فهمه في عقولنا ؟

نعم . إن هذا ممكن .

أمن الممكن أن يفهم الذين يعرفون الماضي السحيق بكل دقائقه وتفصيلاته ، أن ذلك الماضي لم يوجد قط ؟

أمن الممكن أن الحقيقة لا تعني عند الناس شيئاً ، وأن حيواتهم تهتز بهزات غير مترابطة ، مثل ساعة ألقيت في حجرة فارغة ؟

نعم . إن هذا ممكن .

ولكن ! إذا كان كل ذلك ممكناً ، أو حتى قريباً من الإمكان ، فعلينا إذن أن نعمل شيئاً ، أن نبادر إلى عمل ما .

إن على أول قادم ، أن يبدأ العمل لتصحيح الأشياء التي أهملت ، ونحن لا نملك حلاً آخر .

ريلكه
في « مذكرات مالتي لوريدس بريج »

- ١ -

عندما أخذت السيارة تنحرف في اتجاه حي « شبرد بوش » الواقع في منتصف الطريق الى منطقة « ناتنغ هل » ، هطلت أول دفعة من ثلوج أعياد الميلاد ، حتى تراكم الثلج على حافة النافذة الأمامية ، وتعسرت الرؤية ، وغمر الجو ضباب كثيف ، مما جعل السائق ينحني إلى الأمام ليرى بوضوح ، ثم قال :

- كنت اتوقع طوال هذا اليوم إنهمار الثلج أو المطر .

لم يقل البروفسور كارل تسفايغ شيئاً ، لأنه لم يجد شيئاً في عقله ليرد به على كلمات السائق ، الذي حدس بأن صمت البروفسور لم يكن ضرباً من التكبر ، واذا تابع حديثه قائلاً :

- قبل ان أتركك بيتي هذا الصباح ، قلت لزوجتي إن أعياد الميلاد ستكون مغطاة بالثلوج البيضاء كما حدث في عام ١٩٤٨ .

وبصعوبة نطق كارل تسفايغ بكلمة « حقاً » .

- أنا لا أهتم كثيراً ، فالثلج إزعاج متواصل لي ، ولكنه يفرح الأطفال .

وهنا عبرت السيارة منطقة « ناتنغ هل » التي بدت خاوية غريبة يمرح فيها خراب عنيف ، فنصف بناياتها قد تآكلت وتهدمت ، وظهرت كمدينة « هامبورغ » كما شاهدها البروفسور عام ١٩٤٥ ، فسرت في جسده قشعريرة ذكرى ، وتذكر ندف الثلج فوق المياه الداكنة في « أوساق ألستر » ، ورائحة الجثث العفنة التي كانت تحملها الريح من وراء البحيرة .

وعلا صوت السائق ليقتلع احساس الحنين والاشمئزاز ، قائلاً :

- أرجو أن لا أزعجك بسؤالي يا سيدي ، ولكن قل لي : ألم أرك على

شاشة التلفزيون ؟

ولما كانت سيارة الأجرة قد حلت بالقرب من استديوهات التلفزيون في « ليم جروف » فقد كان السؤال متوقعاً . فأجاب البروفسور :

– هذا ممكن ، فأنا أظهر في برنامج اسبوعي يدعى « سل الخبراء » .

– هذا صحيح ، أذكر أني رأيتك من قبـــل ، فكثيراً ما انقل شخصيات التلفزيون من هناك ، فمنذ أيام قصيرة حملت سيارتي الممثـــل الكوميدي « آرثر أسكي » .

واستمر السائق في حديثه . بينما تابعت السيارة زحفها عبر طريق « بيزوتر » بين سيارات كثيرة ، كانت ترحف أيضاً ليـلة أعياد الميلاد . وجلس البروفسور يقتـــات ذكرياته في « هامبورغ » ولم يعد يصغي لكلمات السائق اللطيف ، ثم أفاق على نفسه من جديد ، حين كانت سيـــارته تخترق شارع « أكسفورد » المزدحم بالناس وبالأطفال الذين وقفوا تحت رفوف المحلات التجارية ، يطالعون واجهاتهـا المزينة ، ويحلمون بالهدايا الكثيرة التي ستسعى اليهم بمناسبة أعيـــاد الميلاد .

كان تسفايغ يحب الأطفال ويفرح لرؤيتهم ، لذا قرر أن يقضي سهرته مع اخته وأطفالها في بيتهم الواقع في « هامستيد » . وبسرعة لمست يده كومة الهدايا الساكنة التي اشتراها للأطفال ، والتي ستدخل الفرح الى قلوبهم حين يلعبون بها .

وحين انعطفت سيارة الأجرة بإتجاه شارع أوردلي ، داهمت تسفايغ أفـكار عديدة ، حتى أنه لم يعد يرى شيئاً مما يجري حوله . « الكبار يحبون أعياد الميلاد ، لعلهم ينسون خلالها فشل الحياة الدائم ، والصغار يفرحون بأعياد الميلاد لأنهـا توحي لهم بخصب الحياة وخيرها » ، وهـــذا يتجلى في الهدايا الكثيرة الملونة » أعجبته الفكرة ، فسجلها في عقـــله ، ثم أضاف اليها كلمات جديدة ، وأخيراً فكر في كتابة مقال قصير بعنوان « دفاع عن أعياد الميلاد » .

لماذا لم تتقلص البهجة وتختفي لإقتراب الأعياد ؟ لمـاذا تزداد الفرحة بحلولها

بينما إنهار الإيمان بالمسيحية ؟

وحين أنزل النافـذة السيارة ليقذف بعقب سيجارة ، حلق بذهول ، وأطل بوجهه أمام إشارة المرور في شارع « كورزن » حيث وقفت سيارة أجرة أخرى بالقرب من فندق كبير . واقترب منها رجل عجوز احتمى بمظلة البواب ، وكان يساعده شاب يرتدي ملابس السهرة ، ويحدق بلامبالاة في وجوه الناس العابرين .

لم يدر البروفسور لماذا اثار وجه هذا الشاب إهتمامه ! إنه يذكر هذا الوجه جيداً ، وعندما استعد للنـــداء ، إنسابت سيارته وراء السيارات الأخرى ، ففكر بأن يقفز ويلوح بيديه ليوقف السيارة الأخرى ، ولكنه خاف سوء تفسير السـائق ، الذي سيظن أنه هرب من دفع الأجرة المستحقة عليه . وفي هـــذه الأثناء ، دلف الشاب إلى السيارة وصفق الباب خلفه ، ثم انطلق صوت المحرك ، وأدارت السيارة وجهها نحو سوق « شيرد » ولم يستطع تسفايغ ان يسأل السائق أن يلحق بسيارة الشاب الذي يعرفه جيداً . وهناك قال بحزن :

– أرجو أن تقف أمام باب هذا الفندق .

– ظننت أنك تريد الذهاب إلى شارع « كلارج » .

– نعم . ولكن هذا يكفي .

هرول البواب الى سيارة البروفسور ليساعده على النزول ، فتذكر الهـدايا التي اشتراها لأطفال أختـه ، والتي جعلته يقول للسائق :

– أرجو أن تنتظرني هنا ، لن أتأخر أكثر من دقائق .

والتفت إلى بواب الفندق ، وهو يبحث في جيبه عن قطعة نقود ، ثم قال :

– هل تستطيع أن تخبرني إذا كان السيد الشاب الذي أخـذ سيارة الأجرة منذ دقائق ، يقيم هنا أم لا ؟

– لا أعتقد ذلك يا سيدي .

– هل سمعت ولو على سبيل الصدفة ، العنوان الذي أعطاه للسائق ؟

وأسرع البروفسور ليقول « إنه صديق قديم » .

– آسف يا سيدي ، لم أسمع العنوان ، فقد أخبر السائق بعنوان المكان الذي

يريده وهو داخل السيارة . ولكن أنصحك أن تسأل موظف الاستعلامات في الداخل ، فقد يساعدك . شكراً يا سيدي .

دخل تسفايغ عبر باب زجاجي متحرك الى داخل الفندق ، فغمره دفء لطيف ، وتسللت الى أنفه رائحة الشموع المحترقة التي كانت تنبعث من شجرة الميلاد الكبيرة ، المثقلة بشموع مضيئة ، والتي كانت تنتصب بأبهة في إحدى الزوايا ، وبسرعة اقترب منه شاب لم تفارق الابتسامة وجهه ، وسأله بأدب جم :

– هل أستطيع مساعدتك يا سيدي ؟

ومن جديد ، بدأ تسفايغ قصة الشاب الذي استقل السيارة منذ دقائق . ولكن مساعد المدير لم يستطع مساعدته لاختلاط الأمر عليه ، فقال له وابتسامته لم تتغير :

– إنهما لا يقيمان هنا يا سيدي . وقد قدما لتناول وجبة من الطعام . لأنني لم أشاهدهما من قبل . سأتأكد من ذلك ، انتظرني لحظة واحدة يا سيدي .

وعندما غاب مساعد المدير في قاعة الطعام ليأتيه بالخبر الصحيح ، داهم تسفايغ ندم صامت ، فقد يكون مخطئاً في ظنه ، فهو لم ير وجه الشاب إلا من خلال ستائر الثلج المتساقط .. ومرت فترة وجيزة ، برز بعدها مساعد المدير على عتبة قاعة الطعام برفقة رئيس النُدل ، الذي بدا في ملامح إسبانية ، ولكن لهجته العامية أشارت الى جنسيته الإنكليزية ، وخاصة حينما تحدث الى البروفسور قائلاً :

– آسف يا سيدي فأنا لا أستطيع مساعدتك ، فهما قد حضرا الى هنا لتناول وجبة من الطعام .

فسأله البروفسور تسفايغ مضطراً :

– وهل يأتي الناس من الخارج لتناول الأطعمة هنا ؟

– نعم يا سيدي . لمعظم الزبائن لا يقيمون في فندقنا .

وألصق جوابه بابتسامة استعطاف دلت على مهارته في رسمها . أما صوته فقد صبغته سنون الخدمة بالعذوبة :

– إن مطبخنا يمتاز بشهرته الواسعة يا سيدي .

فأجاب تسفايغ بسرعة :

– طبعاً .

– كل ما أستطيع قوله يا سيدي ، هو أن الرجل العجوز اسكتلندي ، والشاب الذي يرافقه كان أجنبياً ، أعني أوروبياً ، وكان العجوز يناديه باسم « جوستاف » .

صاح تسفايغ بانفعال :

– هذا رائع . إنه صديقي جوستاف نيومن الذي لم أره منذ ثلاثين سنة .

وقاده انفعاله المفاجيء لتهنئة رئيس النُدل :

– أنت دقيق الملاحظة لدرجة أنك تصلح لأن تكون مخبراً قديراً .

علا رئيس النُدل السرور وهو يقول :

– هذا إختصاصي اليومي يا سيدي .

– إنه لمؤسف حقاً أنه لا يقيم هنا ... ولكن على كل حال ..

وهنا التفت تسفايغ الى مساعد المدير قائلاً :

– آسف لإزعاجك .

– إنه ليسرني خدمتك أيها البروفسور .

– هل تعرفني ؟

– شاهدت برنامجك الاسبوعي منذ نصف ساعة فقط .

وغمرت البروفسور راحة عميقة ، جعلته يشعر بأنه غير متطفل ، وغير دخيل ، وربت بيده على رأس صبي صغير وقف يتطلع بذهول إلى شجرة عيد الميلاد الكبيرة ، ثم شكر رئيس النُدل ومساعد المدير ، وغادر المكان ، ليفتح له البواب ، باب السيارة ، وما كاد يستقر في مقعده ، حتى سأله السائق بلهفة :

– هل وجدت ما تريد يا سيدي ؟

أجاب تسفايغ :

– لا ، لسوء الحظ .

- ٢ -

كانت شقته باردة جداً ، فقد طلب من « الفراش » أن لا يشعل النار ، وذلك لتفكيره بتمضية ليلته في النادي ، ولكن شعوره بالبرد القارس جعله يخاف دخول غرفته الباردة . كان يحب شقته هذه ، فقد ألفها منذ سنة ١٩٣٣ بالرغم من اثاثها القديم . كانت جدران الغرف مزينة بأوراق باهتة بالية ، والسجاجيد داكنة مهلهلة يعشق الغوص فيها بقدميه ، وكان يسره دوماً ان يقول . إنه في مثل هذه الغرف قد عاش شارلوك هولمز ، ودكتور واطسون ، مع ان تكاليف المعيشة فيها ، كانت تمتص رصيده في البنك ، وما زال صاحب البيت الجديد يزيد في قيمة الأجرة . ومع هذا فإن مجرد التفكير في تركها ، كان يبعث في نفسه كآبة مرعبة كالموت ، فقد تعود عليها ، وأحب السكنى فيها .

وضع تسفايغ موصل المدفأة الكهربائية – بدعة الطالما كرهها وقلل من استعمالها – ثم صب لنفسه قدحاً من « الشيري » ، ودخل غرفة المطالعة ، ليفتح آخر درج في مكتبه ، ويخرج مجموعة الصور ، ثم ليعود من جديد إلى غرفة الجلوس ، ويستلقي فوق كنبة مريحة ، ويبدأ عملية البحث عن صورة قديمة يريد ان يمعن النظر فيها . وعلق نظارته الطبية بالقرب من عينيه ، ثم رشف قليلاً من قدح « الشيري » ، وهو يطوي صفحات مجموعة الصور القديمة ، بينما امتدت قدماه الى المدفأة حباً بالدفء ، وفجأة هاجمه الحنين الى مدينته ، ففكر بأن يبتلع حبتين من الأسبرو ، لأن حالته تنذر بالزكام . .

وتوالت التواريخ المختلفة المنقوشة على اطراف الصور : هامبورغ سنة ١٩٢١ « زيرميت » أعياد الميلاد ١٩٢٦ ، لوس أنجلوس ١٩٢٨ « أخذت هذه الصورة

بمناسبة الاجتماع العلمي » ، مجموعة صوره مع زوجته في شهر العسل ١٩٢٧ ، فأسرع بتقليب الصفحات ، قبرها في هايدلبرغ ، ثم برزت الصور التي كان يبحث عنها ، فظهر جوستاف وألفونس في صورة أنيقة ، ثم جوستاف وألبرت في بون ، ثم جوستاف في دور « هرشندلر » في المسرحية التي كتبها جوستاف وساعده فيها « آرتر شنيتزلر » .

وما كادت آخر قطرة من قطرات الشيري تستقر في جوفه ، حتى استبدل خفيه بحذاء صغير من جلد ممتاز (فقد كان يعتبر قدميه احدى مفاخره ، ويحب ان يرى الناس صغرهما ، ولكي يلفت الأنظار اليها ، كان يختار الاحذية الأنيقة جداً) . وغطى وجه الحذاء بغطاء من المطاط ، ثم انتزع موصل المدفأة الكهربائية ، وسحب ثلاث صور قديمة بعناية تامة من مجموعة الصور ، ووضعها في غلاف نظيف ، ثم أدخلها محفظة نقوده .

حين اصبح البروفسور خارج منزله ، انقطعت الثلوج من السماء ، وسار بحذر غريب ، خوفاً من الانزلاق ، ناكشاً الثلج بمظلته المغلقة السوداء . كانت الأقدام البشرية الكثيرة قد هرشت الثلوج في ميدان بيكاديلي ، فزال حذره ، واجتاز إشارة المرور بالقرب من ريتز ، ثم توجه صوب شارع « سانت جيمس » . وعلى مقربة من زاوية « بال مال » رأى قامة مألوفة لعينيه ، فحث خطاه خلفها ، وأخيراً عرف القامة حين انعكست أضواء الشارع عليها ، فنادى بصوت مرتفع :

– جراي ، جراي .

توقفت القامة والتفتت نحوه . وابتدره تسفايغ قائلاً :

– مساء الخير يا تشارلز ، هل تود الذهاب الى النادي ؟

– نعم ، وأنت ؟

كان لتشارلز جراي صديقاً مخلصاً ، يحب البروفسور كارل تسفايغ ، وتتوج عيناه بابتسامة عذبة عندما يقابله . كان طويلاً يزيد طوله على صديقه بقدم على الأقل ، وقد دلت ابتسامته على أنه كان فرحاً بهذا اللقاء العابر . وسأله تسفايغ :

– هل سنتناول طعام العشاء في النادي أيها الصديق ؟

– لا ، فزوجتي قد دعت قسيسين لتناول العشاء معنا ، ولكنهما اتصلا بها واعتذرا عن تلبية الدعوة ، وعليّ أن أتعشى معها ، لِمَ لا تنضم الينا ؟

وفي قاعة النادي ، أعطيا معطفيهما الى الحاجب . وقال تسفايغ :

– سآتي معك ، إن كان وجودي لن يزعج أحداً ، أنت تعرف أنه ليسرني ذلك .

– أنا واثق بأن زوجتي ستسر لرؤيتك معنا ، فهي تريدك أن توقع على واحد من كتبك .

– أي كتاب ؟

– أعتقد بأن اسمه « حتمية الشك » .

كانت قاعة النادي مزدانة بأضواء أعياد الميلاد الفضية ، فبدت وكأنها تسبح في جو مهرجاني ، وازدحمت بالناس ، ووقف بالقرب من الباب مكتشف افريقي شهير ، يناقش ممثلاً قديراً حصل على ميدالية فارس ، بصوت مرتفع ، ولكنه حين رأى تشارلز جراي توقف عن النقاش ، وصرخ في وجه جراي قائلاً :

– هل قبضت على أحد المجرمين أيها الصديق العتيق ؟

ثم أعقب سؤاله بضحكة مدوية ، مما جعل أحد الجلساء يشبهها بعواء كلب مريض ، ومما جعل جراي يرسم شبه إبتسامة على وجهه وهو يجيب المكتشف الإفريقي قائلاً :

– انت تبدو في حالة حسنة يا روبرت .

ووجدا طاولة منعزلة في الركن ، ولكن جراي رفض الجلوس حولها ، فقد ألصق فوقها رسم كاريكاتوري يمثلهما معاً وهما يشربان قرب البار ، ويعيشان في حالة نشوة تامة، ومع أن الرسم لم يحوِ أي عنصر صارخ مبالغ فيه، فإن جراي لم يحبه ، فقد رسمه فنان شهير يعشق مداعبة الرجال العظام . وقد ظهر تسفايغ في ذلك الرسم الكاريكاتوري ، قصيراً ، ذا جثة ضخمة ، وبشعر أبيض كثيف مسرح إلى الخلف ، ومن شدة قصره لم يتجاوز رأسه حافة البار ، ولا بد ان

أحاديثه كانت تمتاز بإنفعال جذاب،جعل صديقه جراي يستمع اليه بشغف وبدهشة .أما جراي فقد أظهره الرسم طويلاً جداً،يمتاز بإنحناء خفيف في الكتفين، تقبض يده النحيلة المعروقة على قدح من البراندي ، ويصوب عينيه إلى صديقه البروفسور ليرتشف الكثير من حكاياته . ومع أن الجمع بينهما في لوحة واحدة ، اعتبر اطراء ظريفاً مهذباً ، فإن جراي لم يحبه ، إذ اعتبره نوعاً من الدعابة السمجة ؛ وقد شاركه صديقه الرأي ، ولذا قررا أن يذهبا الى غرفة الاستراحة علّهما يجدان ركناً منعزلاً يتحدثان فيه بهدوء . وهناك ألقى تسفايغ بجسده الضخم القصير فوق كنبة عتيقة ، وبيده قدح من الشيري ، وبيد صديقه قدح من الويسكي المصنوع في إيرلندة ، وقال جراي :

– منذ زمن طويل ، وزوجتي تود رؤيتك والتحدث اليك ، إنها تدعي بأن كتابك جعلها تؤمن بالكاثوليكية .

– يؤسفني أن أسمع هذا .

– هذه هي الحقيقة ، وهي تتساءل لماذا لا تؤمن أنت بالكاثوليكية ؟

قال تسفايغ بتأثر ، أو لمحاولة سد ثغرة النقاش :

– سوف أبعدها عن الموضوع في هذه الليلة ، ولكنني لن أقطع عهداً بهذا .

وأخرج تسفايغ محفظتين من جيبه ، وتناول الغلاف الأبيض وهمس :

– لدي قصة شيقة أيها الصديق ، سوف أسردها عليك فهي من صميم عملك ويهمني أن أستمع الى رأيك فيها .

– عسكرية أم بوليسية ؟

– بوليسية ، فأنا لم أفكر يوماً بأنك تفهم في الأمور العسكرية .

– لقد خدمت في الجيش مدة أطول من خدمتي في سكوتلاند يارد .

إبتسم تسفايغ ورشف من قدحه . وفكر بأن أمثال جري يفتخرون لخدمتهم في الجيش ، ومع أنه لم ينل شهرة كبيرة عندما كان في الجيش ، فانه يعلن بتفوقه فيه ، وقد جاءت شهرته حينما عمل كمساعد لمدير المباحث الجنائية ، وهو مدين لشهرته الكبيرة هذه ، الى كتابه الذي تلقفته الأيدي بشراهة .

والذي خمّنه مذكراته البوليسية ، وكان قد اختار له اسماً جذاباً ، إذ أطلق عليه « ستون قضيتها في سكوتلاند يارد » وساعدته الدعاية الصحفية لتلقى قمم الشهرة الواسعة ، وخاصة حينما نجح في الكشف عن جرائم ما بعد الحرب .

وتظاهر جري بأنه لم يرَ الإبتسامة العذبة التي تبعث على وجه صديقه ، فسأل بوقار :

– ما هي قصتك على كل حال ؟

– هي قصة حدثت منذ زمن بعيد ، وما زالت مستمرة !

– هل هي قصة طويلة ؟

– ربما !

– في هذه الحالة أفضل لو تنتظر حتى نذهب إلى البيت ، فسوف تشغل بقصتك زوجتي أبدا عن التحدث عن الكنيسة الكاثوليكية ؛ دعنا نشرب قدحاً آخر ثم نغادر المكان .

وحين أعاد تسفايغ الغلاف الأبيض إلى جيبه ، فرقعت أصابع جراي مناديةً النادل .

- ٣ -

إبتسمت ليدي جراي وهي تشاهد زوجها يساعد تسفايغ على خلع معطفه . فقد وجدت اللقاء بينهما ساذجاً وظريفاً ، قال البروفسور وهو ينحني نصف إنحناءة للسيدة :

– أرجو أن لا أكون متطفلاً يا سيدتي .

– على الاطلاق ، فأنا جد سعيدة لرؤيتك هنا ، وعلينا أن نأكل بطة مشوية كاملة ، أما زال الثلج يتساقط في الخارج ؟

– لقد عاد يتساقط منذ لحظات .

– من المؤسف أن الأب لورنس لا يستطيع الحضور . وقد وددت لو أنك قابلته ، فقد كنا نقرأ كتبك معاً .

وتدخل الزوج لمقاطعتها خوفاً من التسرب إلى مناقشة الكنيسة ، فقال :

– إن رائحة الطعام أنعشت معدتي ، ونحن جياع .

– كما تريد يا عزيزي ، إجلسا حول المائدة ، فسأخبر موريس بأننا ثلاثة فقط .

كان تسفايغ كلما زار بيت صديقه ، تقلص حبه لبيته : فغرفة الطعام تذكره بحجرة خريف ، وقد يكون مبعث ذلك الرقعة الكبيرة المصبوغة باللون البني والتي تنعكس عليها أضواء الشموع فتحيلها إلى أوراق صفراء خريفية .

وسأل جراي صديقه :

– هل تريد قدحاً من الشيري ؟

- نعم أرجوك .

تدفق الدفء يجري في جسده القصير من تأثير الشيري ، فتذكر صديقاً له في هايدلبرغ ، كان إذا انتهى من شرب زجاجة من « النابرشتاينر » قال : « إن ذاكرتي تنزف يا أصدقائي ... » ثم قرر تسفايغ أن يشرح فكرة مقالة عن روحانية أعياد الميلاد للسيدة جراي ، ولكنه سرعان ما أبعد الفكرة ، فمن المحتمل أن يقوده الشرح الى الكاثوليكية . ولكي يشغل نفسه ، راح يراقب لهب الشموع من خلال قدح الشيري ، وفجأة قال :

« ثلاثة أقداح من الشيري ويقف الزمن .

أربعة أقداح وأغط في نوم عميق » .

ثم أعقب كلماته ببيت من الشعر باللغة الألمانية .

قال جراي مداعباً :

- إنك على أحسن حال في هذا المساء ، فأنا أعرف أنك سعيد حينما تقول أشعاراً ألمانية . ولكن قل لي ما معنى ذلك البيت ؟

- إنها محاورة فاوست مع ميفستفليس : « يتوجب عليّ أن أقول للحظة الذاهبة ، توقفي قليلاً فإنك عادلة » .

ثم تابع حديثه قائلاً :

- أنا سعيد ، والسعادة تغمرني يا صديقي ، لست واثقاً من شعوري بالسعادة ، إذ أن مفهومنا لها يحتاج الى تغيير ، فقد يشعر رجل ما بالسعادة وهو يعاني ألماً ، مع أن ألمه يزيد من حيويته .

ولم يدر البروفسور كيف انسابت الى ذهنه من جديد ، صورة ذوبان الجليد في « السار » ، ورائحة الجثث العفنة واختلاط الاشمئزاز بالحنين الموجع : تلك كانت صورة ألمانيا التي أحب ، ألمانيا ذات القوة والخراب ، ألمانيا التي رقصت كالأفعى مع الموسيقى التي حكت عن الانتحار والموت .

ودخلت السيدة جراي الغرفة ثم قالت له :

- هذا رائع ! إنك تشرب ، ولن يطول الأمر ...

ثم فرشت غطاء المائدة وهي تخاطب زوجها :

أخبرت دوريس بأنها تستطيع الذهاب الى بيتها . وستقوم أنت بمساعدتي .

كشف تسفايغ بأنه جائع ، مد يده الصغيرة الى طبق المقبلات ليخطف شيئاً منه ، وهزّ رأسه بحرارة حين سأله جراي إن كان يفضل قليلاً من الفودكا قبل أن يأكل من مقبلات ، فقد كان يعتبر إقباله على الطعام ، خطوة عابرة تشحنه بالسكينة والرضى نحو العالم المادي ، الذي يعتبره حاجزاً شائكاً دون الصفاء الفكري .

كان الجميع يعرفون شهيته للأكل ، وخاصة السيدة جراي التي لا يخفى عليها ما يعتريه في حالات كهذه ، فابتسمت له ، حين رأته يملأ فاه بالسردين والخبز الأسمر ، ثم قالت له :

- لقد اتصل الأب لورنس هاتفياً ليقول بأنه قادم في وقت متأخر ، فقد نظم ديواناً من الشعر ، ويودك أن تساعده في تهذيب بعض الكلمات .

اندلقت الفودكا لتجري في حلقه ، فأحس بالحرارة تغسله ، وانفعل وهو يقول :

- كيف يمكن ذلك . أنا لوثري وهو كاثوليكي ؟

وأحس جراي بأن الأمل قد تبخر في تجنب الفلسفة الدينية ، وأحس بأن تدخله لن يفيد ، فهو يحترم آراء زوجته الدينية ، كما يحترم مشاركتها في اتحاد الأمهات ، أو النشاطات الأخرى ، وأخيراً وجد نفسه مصغياً الى حديث عن حاف عن الكنيسة .

أخذت السيدة جراي زجاجة الماء المعدني ، وصبت لنفسها قليلاً منه ، ثم قالت بهدوء :

- هناك أشياء جديدة مفاجئة تحدث في عالم الكنيسة اليوم ، فإن موجة عارمة من الإيمان القوي بدأت تتسلل الى قلوب الناس وعقولهم ، وهذه الموجة شملت رجالاً من أمثال « بولمان وتيللش » ، وذلك الاميركي ، آه نسيت اسمه ،

آه ، إنه نيبهور » .

قال جراي متذمراً وهو يسنّ السكين الحاد :

– لا أدري كيف تتذكرين كل هذه الاسماء ايتها العزيزة .

أجابت زوجته باقتضاب :

– لأنها تهمني يا عزيزي .

ثم تابعت في حدة مبطنة :

– هل لك أن تفتح زجاجة الكيانتي الموجودة على رف المدفأة ؟

وفي اثناء حفلة إلتهام الطعام ، أهملت المناقشة الدينية . وجاءت الخادمة لتستأذن في الخروج، ثم تبعها الطباخ ليسأل في أدب جم عمـا إذا كانت البطة المطبوخة قد نالت إعجابهم ؟ وكان الجواب صيحة مخلصة من تسفاينغ :

– انها من أشهى المأكولات التي تناولتها في حياتي .

وتدخل جراي ليدلل على مهارته في الطبخ فقال :

– لقد اتبع الطباخ نصيحتي بوضع البرتقال بدلاً من اليوسف افندي .

واستغرقت أحاديثهم حول الأطعمة الخاصة بأعياد الميـلاد أكثر من عشر دقائق . ولكي تشارك السيدة جراي بالحديث مشاركة فعلية ، سألت البروفسور إذا كان للفلاحين النمساويين اكلات خاصة بمناسبة أعياد الميلاد ، فاعترف بأنه لا يعرف ، وضحك لجهله ، فقد كان والده مزارعاً في قرية « تيرولس »، اما هو فقد عاش العشرين سنة الأولى من حياته في النمسا .

وانتهز جراي توقف الحديث ليقول :

– كارل يودّ ان يسرد علينا قصة شيقة في هذه الليلة .

قال تسفاينغ بسرعة :

– إن لم يصبكما الضجر .

لقد خدّره الطعام الشهي ، وتسلل النعاس اللذيذ الى حواسه ، ففضل ان يستمع بدلاً من ان يتحدث .

قالت السيدة جراي :

– سأحضر القهوة ، أتفضلها بلا حليب ؟ قال جراي مخاطباً صديقه :

– أريدك يا كارل ان تجرّب نوعاً جديداً من البراندي البرتغالي الذي اقسم بائعه بأنه وضع في زجاجته قبل عام ١٩٠٠ .

وانتقلوا إلى الغرفة المجاورة حيث كان يحترق خشب الزند في المدفأة، فتمنى تسفاينغ لو كان وحيداً في هذه اللحظة ... كم تمنى لو استرخى واغمض عينيه وذهب في إغفاءة شهية . إنه احد تصرفات الإنسان المفاجئة الغريبة التي تنقضّ عليه فجأة بعد تناوله لطعام شهي ، حيث تحلم المعدة بسرير مريح لتنام ، ولتذهب كل الأحاديث الى غير رجعة . لقد خيل له في تلك اللحظة ، بأنه ثعبان ضخم من نوع البوا يحاول بجهد هضم خنزير كامل ، وبدأ رأسه بالتذبذب، ثم احس بأنه اصم ، فانتبه جراي لحركاته :

– جرّب هذا فسوف يساعدك على الهضم .

ثم اشعلا سيجارين ، وجلسا متقابلين على مقعدين مريحين ، وقد اغمضا عيونهما ، ومدّا ارجلهما بالقرب من نار المدفأة . وكان جراي يرتدي سترة صوفية، رمادية اللون، وخفين مزركشين ، لا شك بأنها جميعاً كانت من هدايا عيد الميلاد . ولم ينطق احدهما بكلمة واحدة ، فقد كان صفيق الاخشاب المحترقة يأتيها كموسيقى منومة ، وصوت السيارات يصلها من بعيد ؛ لهذا كله ، كان تسفاينغ يحب جراي ، فصمته مطمئن خال من التوتر وعلامات الإستفهام .

وعادت السيدة جراي تدفع امامها عربة وضعت فوقها فناجين القهوة ، وقالت بصوت طبيعي :

أأنتما نائمان ؟

استخفا بها استخفاف المتصوف بالشهرة ، وفتحا اعينهما على مضض . وكانت ، منذ المناقشة التي حدثت بينها وبين الاب الجزويتي ، لم تشرب إلا الماء ، وكانت تظهر استياءها من اولئك الذين تسميهم بالكاثوليك الخلص ، وهم جماعة « تشستر بلوك » . اما الأب الذي تحبه وتعترف بثقافته ، فهو ذو وجه متقشف ، رقيق الحال ، ومعدة غريبة ، تقذف بالطعام الدسم ، وبالرغم من انـه

جزويتي عتيق ، فهو يشجعها على مطالعة باسكال . اما نسخة « الرسائل الاقليمية » التي تضعها بالقرب من سريرها ، فقد ملئت بالملاحظات من صفحتها الاولى حتى الصفحة الاخيرة . وكان زوجها لا يعرف عن باسكال ، سوى انه اكتشف كيفية تعقيم الحليب ، وهو يدرك تأثيره الواسع على عقل زوجته ، ويشبهه بهواء بارد يهب بالقرب من الطاولة الصغيرة الواقفة بجانب سريرها ، ليلهبه بثورة عارمة ، يصفها دوماً بأنها حذرة .

قال جراي بتهكم ساخر :

– إننا نحاول يا عزيزتي ان نتبادل الخواطر في هذه اللحظة ، اعني أنا وكارل .

– هناك طرق أسهل للإتصال .

وسكبت القهوة في الفنجان ، ثم صبّ جراي قليلاً من البراندي له ولصديقه ، وبعد أن رشف تسفايغ قليـــلاً منه ، هز رأسه ببطء دلالة على استحسانه ، وتلاشت لحظات النعاس وتيقظت أحاسيسه من جديد ، على دفء الغرفـــة ، وجودة السيجار ونقاوة البراندي ، فتمنى لو إجتمع عندد كبير من الناس في الغرفة ، ليسرد عليهم قصته الشيقة . وفي اللحظة نفسها إقتربت السيدة بأريكتها ، التي ترتكز على دواليب صغيرة ، من النار ، وتناولت صوفهـــا لتغزل ملحفة للأب لورنس ، استغرقت في غزلها عدة شهور ، وقـــد كانت من صوف ناعم تمازج فيها اللونان الرمادي والأزرق ، وكانت السيدة بطيئة جداً في غزلها .

قال جراي :

– والآن ، نحن في انتظار سماع قصتك .

– لا أدري إن كانت قصة ، أم مشكلة من إختصاص رجال الشرطة .

وبسرعة اقتنصت عيناه خيبة أمل تعلقت على وجه السيدة ، فأسرع لكي يصحح كلماته السابقة ، بأن قال :

– إنها تحمل طابعاً دينياً أيضاً ، سوف أبدأ الآن :

« كنت عائداً إلى بيتي منذ ساعتين ، في سيارة أجرة ، وحدث أن وقفت السيارة أمام فندق « تشيهام » في شارع « كورزن » .

ثم أخبرها عن كيفية رؤيته لنيومن من خلال ستائر الثلج ، وكيف تحقق بنفسه من موظفي الفندق عن اسم جوستاف نيومن ، وكرر لهما الجمـــلة التي قالهـــا النادل له ، من أن العجوز كان ينادي صديقه الشاب المتأنق باسم جوستاف ، وتابع ليسرد بقية القصة :

« تأكدت بعد ذلـــك أن الشاب كان إبن صديقي القديم « لويس نيومن » هل سمعتما يوماً بهذا الإسم ؟ »

فهزت السيدة رأسها علامة النفي ، وقال جراي ساهماً :

– الإسم يبدو مألوفاً لدي ، ولا أعرف السبب ، أكان عالماً هذا النيومن ؟

– إنه مختص في الدماغ ، وهو واحد من أشهر جراحي الدماغ في أوروبا ، وكتابه « التهيؤات العصبية » ما زال المرجع الرئيسي في هذا الموضوع ، وقـــد حاربنا معاً في الحرب العالمية الأولى ، وعشنا بعد انتهاء الحرب في « هايدلبرغ » تفصل بيننا عدة مئات من الأمتار ، ولذلك عرفت إبنه الوحيد جوستاف منذ كان في السابعة من عمره . ولقد كان ذكياً وغريباً ، يمتاز بوجه يشبه وجـــه فتاة ، وبعينيه الواسعتين وفمه المشدود ، وشعره الأسود الطويل . ومنذ صغره كان يهوى اللغات ، ويعشق الموسيقى ، وحين ماتت أمه إثر مرض دموي ، يوم كان في العاشرة ، لم يتكلم لأيام طويلة . أما أنا فقد انتابني خوف شديد على مستقبله ، وقد أخذه أبوه في رحلة طويلة زار فيهـــا اليونان ومصر واليابان ، وعندما عادا ، خيل لي بأن جوستاف قد تغير ، فأنا لم أعرفه ، فقد تجمد مـــا يجول في خاطره ، وعلقت على وجهه علامات تفكير طويل متواصل ، وكأني به ، يتساءل عن كيفية الانتقام .

قالت السيدة جراي بحزن :

– يمكنني ان أفهم شعوره ، يا له من طفل مسكين !

– لم أستطع أن أعرف التغير الجذري الذي حدث له أثناء رحلته الطويلة ، ولم يعرف ذلك أبوه أيضاً ، فبالرغم من حب أحدهما للآخر ، فإن حاجزاً مـــا قد انتصب بينهما ، فلم يتحدثا عن العواطف ، ولم يتبادلا الخواطر ، ولمـــا بلغ

جوستاف الثانية عشرة . أنبأتني رؤياي بأمر مرعب ، سيحدث له : فقد كنا في عام ١٩٢٤ ، يوم أن عمت ألمانيا موجة طاغية ضد السامية ، والتحق جوستاف خلالها بمدرسة خاصة للأغنياء ؛ ولأن والده كان شهيراً جداً ، فقد عرف الطلبة بأنه يهودي ، وقد كان في المدرسة عصابة قوية من الأولاد تمقت اليهود ، وكان على رأس العصابة طالب ذكي يدعى أرنست جانجر ، وقد أصبح فيما بعد أحد الذين يتلقون العلم على يديّ . كان أشقر البشرة ، سادي الطهر ، تسره رؤية جوستاف وهو يتعذب ويتألم ، وكان يمتاز ببشرة نسائية حساسة . وذات يوم أصيب جانجر بحادث غريب مدبّر ، فعند عودة الطلبة من سباق اجتياز الضاحية ، ركض جانجر نحو غرفة الحمام ليستحم ، ففتح انبوب الماء ، فأحس به بارداً كالثلج ، وحين حاول اصلاحه ، انقلب الماء الى بخار لاهب ، وماء يغلي كمادة بركانية . وقد صرخ وحاول الإنفلات من خلال باب أحكم إغلاقه ، وهنا تدخل جوستاف وأنقذه من الموت ، وحمله محروقاً إلى المستشفى الذي بقي فيه لمدة طويلة تعدت الستة أشهر ، وقد شك في استمراره بالحياة ، ولم يعرف أحد من هو المسؤول عن الحادث ، ونتيجة لهذا طرد الرجل المسكين المكلف بخدمة الحمامات ، بعد أن صرح بأنه لم يفهم الأسباب التي أدت إلى تغيير المياه في الأنابيب .

« وذات مساء كنا نتحدث في بيت « لويس نيومن » عن هتلر ، وعن العداء للسامية بوجه عام ، وكان جوستاف يجلس في زاوية ، ويستمع بهدوء غريب الينا ، وكذلك يبدي إهتماماً لنا ؛ وفجأة جاءنا رنين الهاتف ، فنهض الأب ليجيب على المخابرة ، وهنا تطلع اليّ جوستاف بغضب ثم صرخ : « عيب اليهود انهم لا يحاولون الدفاع عن أنفسهم ، فهم ينصاعون لكل أمر . » ثم بدأ بهجوم مركز شديد على اليهودية ، علماً بأن والده ، كان يهودياً متعصباً ، ومن خلال غضبه الملتهب قال : « إن اليهود في حاجة إلى حقد كبير . وطاقة متحركة للمقاومة ، عليهم أن يتعلموا طرق الإنتقام ، وحين يفهمونها فسيخاف الناس منهم ومن الإعتداء عليهم » .

« ضايقتني لهجته فقلت بغضب : « هل تملكها أنت ، طرق الإنتقام هذه ؟ » فنظر إليّ بصمت قاس ، ثم قال : « لا أظنك تعتقد بأن حادث الماء المغلي كان قضاءً وقدراً ؟! »

« وعندما سمعنا وقع خطوات الأب ، همس : « لا تتحدث عن هذا أمام أبي . » ولسبب ما ، لم أستطع أن أتحدث ، بل تحجرت فوق مقعدي ، وقد خفت أن أخبر الأب بما حدث خوفاً من المضاعفات التي ستتسبب في إيلامه ، ومنذ ذلك اليوم ، أصبح جوستاف يركن إليّ ، وأخذ يشعر بأنني – وهذا خطأ كبير – أتخذ جانبه في التفكير ، وبعد مدة طويلة روى لي حادثة الحمام المغلي ، فقد كان يعرف بأن جانجر هو أول القادمين الى غرفة الحمام . وقال : « إنه كان يقف في داخل الحمام أكثر من نصف ساعة دون أن يدع مجالاً لغيره . »

« وفحص الآلة ، فتمكن من معرفة طريقة تغيير درجة الحرارة ، وذلك باستعمال عتلة تمزج المياه الباردة والساخنة ، ثم توارى في غرفة التغيير بينما انطلق الآخرون في سباقهم نحو الضاحية ، ففك الآلة الى قطع وأجزاء بواسطة مفك ، ثم ألصق القفل بالباب ، وحين بدأت طلائع الطلبة بالعودة ، تشاغل جوستاف مع أول العائدين في حديث طويل لكي يتأكد من أن جانجر سيكون أول الداخلين . » وهنا سألته : « ماذا تفعل لو أن طالباً آخر دخل الغرفة ؟! » فهزّ كتفيه بلا مبالاة ثم أجاب : « لا أدري ، وكل ما عليّ أن أفعله ، هو اكتشاف طريقة جديدة للإنتقام من جانجر . »

« لم يدرك جوستاف بأن غايتي من السؤال ، هي معرفة نوازعه النفسية ، ومدى محاولته الصادقة للحيلولة دون احتراق الطالب البريء بالماء البركاني ، لو أن طالباً آخر دخل الغرفة قبل جانجر . »

توقف تسفايغ ليشرب قهوته الباردة ، فقالت السيدة جراي :

– إنه ، باختصار ، مجرم

فعبس جراي لهذا الانتقاد النظري ، وشعر بالضيق حين قال :

– لا أستطيع الموافقة على رأيك يا عزيزتي ، فميزة المجرم الأول هي الحقد

السخيف ، وهذا الولد لم يكن غبياً ، ويمكننا تصنيفه مع هؤلاء الذين يصلون بكل بساطة الى مصاف نابليون ، أو الى التجار الصناعيين .

أعادت السيدة جراي جملتها الأولى : – إنه ، باختصار ، مجرم .

وتناول تسفايغ قدح البراندي ورشف شيئاً منه ، بعد أن غمره السرور لأنه أثار اهتمامها ، وتلذّذ وهو يقول :

– إن الذي غفلنا عنه هو أن جوستاف يهودي ، وقد عاش في ألمانيا في منتصف العشرينات ، حيث أحس بالعداء ضد السامية أكثر مما أحس به أبوه .

سأله جراي :

– ألم تحاول التأثير عليه ؟

دلق تسفايغ ما تبقى من البراندي ، وأشار طالباً المزيد ، ثم أجاب :

– المشكلة تكن هنا ، فتأثيري كان سطحياً ، لم يفسده ، وأفكاري كانت لا تلائم شاباً من هذا النوع .

– من أية ناحية ؟

– لقد هبّت ثورة في الفلسفة ، فقد نشر هيدجر كتابه « الوجود والزمن » عام ١٩٢٧ ، وكان أحد زملائي واسمه « جسبر » يدعو لفلسفة جديدة في هايدلبرغ ، وفي الوقت ذاته أثار كتاب « شبنجلر » : « سقوط الحضارة الغربية » الجامعات والطلبة ، وكنت انا أكتب كتابي « نهاية فترة » .

وتدخلت السيدة جراي لتقول :

– الذي لم أقرأه .

– والذي لم أقرأه أنا منذ خمس وعشرين سنة .

ثم تابع القصة :

– لقد اندلعت الثورة بحملة حوت في جوفها نوعاً من الدعاية السخيفة : « ثقافة الغرب تنسلّ منها الحياة ، وهي محمّلة بالخطايا » ثم مثلوا الثقافة الغربية بعمل صغير بدأ يغرق لأساليبه العتيقة . وكنت أنا أفكر في دكان بائع الحلوى في بلدتي الصغيرة ، فكل سنة تمضي تتقلص دكانه وتتسخ ، أما صاحبها فقد

هزل وتخلخلت خطواته ، وحين مات ، لم يجدوا في دكانه فراشاً ولا ناراً ، ولا أغطية ، وصعقوا حين عرفوا بأنه عاش كل هذه السنين على اصطياد الجرذ وطبخها .

صرخت السيدة بحدة :

– أرجوك لا تقل ذلك .

– آسف يا سيدتي لسردي هذه الحادثة ، فجامعة هايدلبرغ كانت تبشر بتعاليم بالية تشدني دوماً إلى قصة دكان بائع الحلوى التي جعلتني أؤمن بأن الوجودية بداية انتهاء عهد .

قالت السيدة جراي بحيرة :

– أنا لا أفهم الوجودية .

فعقّب زوجها على ذلك بقوله :

– لا تهتمي كثيراً يا عزيزتي ، فسوف يشرحها كارل فيما بعد .

وعاد كارل تسفايغ إلى قصته فقال :

« ولما بلغ جوستاف الثامنة عشرة أصبح أحد تلاميذي ، وكان قد اتخذ له صديقاً يُدعى جورجي بروتشفج ، أحد طلبة فرع الكيمياء ، وكان ينحدر من عائلة يهودية وأم كاثوليكية ، وقد اتخذ دين أمه . وامتاز بطول فارغ ورقة عذبة ، تشابه رقة النساء . ومع أنه كان يدرس الهندسة فقد اهتم بالصوفية اهتماماً غريباً ، جعله يُسحر بعيشة القديسين . ولقد أحبه جوستاف كما لم يحب أحداً من قبل ، وكان ما دفعه إلى ذلك ، حب حماية جورجي المريض الدائم ، والذي حوّل جوستاف الى شخص جديد . كنت أراهما معاً ، وكثيراً ما زارني الطلبة للمناقشة ، وتسمروا فوق مقاعدهم حتى الرابعة صباحاً . وكما أخبرتكما سابقاً فإن أرنست جاجر الذي انضم خلال هذه الفترة إلى القمصان السوداء ، كان أحد تلاميذي ، فانتهزت كل فرصة لأسخر من هتلر في محاضراتي ، ولم يكن ذلك عسيراً ، فجاجر من المعجبين بنيتشه وبموسيقى فاجنر ، وكثيراً ما أثار نقاشاً عنيفاً خلال المحاضرات ، حتى كان يوم تلاقيت فيه وتلقى والد

جوستاف» رسالة كتبت بالآلة الكاتبة، وتتضمن خبر شذوذ جوستاف الجنسي، وقد أقسم كاتبها بأنه شاهد جوستاف وجورجي في حالة جنسية شاذة، وذلك في حقل كثيف يقع خارج المدينة .

« طبعاً لم أصدق هذا ، فحتى لو تفتحت البذور الشاذة داخل جوستاف — وهذا ما وجدته محالاً ، لتأثير أمه المبكر عليه — فلن يمارس حالته الجنسية الشاذة مع جورجي ، ولم أشك أيضاً بأن كاتب الرسالة كان جانجر ا ففي صبيحة اليوم التالي طلبت من جوستاف أن يأتي لمقابلتي بعد انصراف الطلبة ، وحين لمحت ابتسامة الظفر تتألق على وجه جانجر ، وهو يختلس النظرات إليّ وإلى جوستاف ، اقتنعت بأنه كاتب الرسالة ، فأرسلت اليه في وقت لاحق طالباً منه الحضور لمقابلتي . وقد وجهت اليه تهمة طبع الرسالة فلم يعترف ، وظل مصراً على عدم الاعتراف ، فما كان مني إلا ان أوهمته بأن الرسالة في المختبر ، لمعرفة بصمات كاتبها ، وهنا تهدلت شفتاه وانهار ، ثم أقسم بأن ما جاء في الرسالة كان صدقاً . فأخبرته بأن الأمر سيان أكان صدقاً أم كذباً ، فهذه تهمة خطيرة وباستطاعتي أن أطرده من الجامعة لمثل هذا العمل .

« وبعد أن تركني جانجر اتصلت بجوستاف لأحذره ، فجانجر لن يتوانى عن إيجاد طرق مبتكرة للإنتقام ، وناولته الرسالة لكي يطلع عليها فلم يهتم بالأمر ، لأنه قال باقتضاب : « يمكنني العناية بنفسي جيداً » .

« أفهمته بأن صديقه جورجي في خطر . فإضطرب وهاج . ثم أقسم بأن من يمسه بسوء سوف يُقتَل ، وكان تهديده هذا موجهاً إلى جانجر . وكان تهديداً فارغاً لا حماية قوية تحيطه . فبعد أسبوع واحد ، كان جورجي وحاخام يهودي يسيران في شارع جانبي بإتجاه بيوت المدينة . وفجأة إنقضّ عليهما بعض الأشخاص ، بالضرب العنيف ، فغاب الحاخام في غيبوبة . أما جورجي فقد استطاع أن يجرجر جسده المنهوك إلى صندوق الهاتف ، ليتصل بأبيه ويخبره بما حدث لهما ، فجاء الأب وأخذهما من مكان الحادثة ، وبعدها بإسبوع مات جورجي من تأثير الضرب » وترك أرنست جانجر هايدلبرغ لينضم إلى فرق

القمصان السوداء في برلين. وما كاد يمضي على موت جورجي عدة أيام حتى حاول جوستاف الإنتحار ، حيث قام بقطع شريان يده ، ومن حسن حظه أن أباه قد وجده بعد نصف ساعة يعوم في بحر من المياه الساخنة، فنقله إلى المستشفى حيث أجريت له عملية تحويل دماء أنقذت حياته » .

« وعاد بعد شهر الى الجامعة ، بعد أن تغيرت طباعه وحركاته ، فأصبح صامتاً ومنزوياً ووحيداً ، وانقلب بسرعة ليصبح ألمع تلميذ عندي. وقد أصبت بالحيرة ، فلم أعد أعرفه ولم يكن يتكلم ، وكان يعمل بصمت وتجهم كأنه يريد الإنتقام بطريقة أو بأخرى من أرنست جانجر . وقد قرأ الفلاسفة الإنكليز ، ثم درس « كنت » و « شوبنهور » و « هيجل » ومن ثم انزوى مع « كيركيغارد وهيدجر » وفي ذلك الوقت طُبع كتابي « نهاية فترة » عام ١٩٣٠ ، فأرسلت نسخة الى نيومن الأب ، وكان ذلك يوم السبت ، وفي الساعة الثانية صباحاً من يوم الأحد ، طُرق الباب وأنا أحاول أن أندسّ في فراشي، كان القادم الزائر ، جوستاف الذي بدا مهتاجاً جداً ، فقد قرأ كتابي الذي يحتوي على ما يقارب من سبعمائة صفحة ، بست عشرة ساعة متواصلة ، وقد جاء ليناقشني . »

« لو كان القادم شخصاً آخر لطلبت منه أن يعود لمناقشتي في الصباح ، ولكن رؤية جوستاف أمامي ، بعد أن كف عن كراهيته للناس ورغبته في التحدث إليّ أسعدني جداً ، وهكذا أعددنا القهوة وأشعلنا النار وجلسنا نتحدث حتى الصباح . »

قالت السيدة جراي بلهفة :

ـ لا بد أنه كان حديثاً مثيراً .

ـ كان مثيراً جداً ، حتى أنني لا أستطيع سرده عليكما ، فقد اكتشفت في تلك الليلة بأنه كان عبقرياً يتمتع بعقلية فلسفية تفوق عقليتي . لقد حدثني عن الأفكار التي وضعتها في كتابي . ثم انتقل الى هيدجر وجسبر وأنا أعترف هنا بأنني بطيء الادراك . أتحرك بتثاقل كالفيل ، وبسبب هذا البطء والتثاقل ، فأنا أسير على خط واحد من الصعب الإنحراف عنه ! وسواء طال

الأمر أم قصر ، فدوماً أصل إلى النتيجة المطلوبة . أمـا جوستاف فهو سريع الإستيعاب يجمع بين بصيرة أمه وثقافة أبيه ، وقـد استطاع بعبارات قليلة أن يحدد النتائج التي أحتاج أنا لإدراكها ووضعها في عبارات ، إلى عـدة أيام . كل ذلك نبع من احساسه العميق بالفلسفة . »

أما النظرية التي آلمته وجعلته يتساءل بخوف فهي : « لماذا يعيش الرجال؟» ثم حدثني حديثاً طويلاً عن موت جورجي ، فسألته إن كان يرغب في الإنتقام من جانجر ؟ فأجاب : « هذا لن يحل مشكلة سبب موت جورجي ، فأنا أريـد أن أفهم لماذا يموت الرجال ، إن معركتي التي أخوضها الآن ، هي مع الإله نفسه وليست مع جانجر . »

« انتهزت الحديث ، فبدأته بفكرة حسبت أنها ستغضبه ، ككلمة عـن اللاسامية ، ولكنه ناقشني غير مبال بها وكأنما جاء من الأسكيمو أو من المريخ . وأذكر أنه قال : « إن اللوم يقع على الطرفين ، النازيين لأنهم أغبيـاء واليهود لأنهم ضعفاء ، فالشفقة الذاتية تولد القسوة . »

توقف تسفايغ ليقول بعد فترة صمت قصيرة :

– أقول لكما بصراحة ، بأنني شعرت بالإعتزاز ساعة غادرني جوستاف في صبيحة اليوم التالي ، فقد كتبت في مفكرتي « جوستاف نيومن قد يصبح أحد مفكري هذا العصر » وعندما أخبرت زملائي عنه ، كان أشدهم إهتماماً « جبير » ومن ثم كتب جوستاف مقالاً رائعاً قذف به إلى قمة الشهرة بضربة واحدة ، مما جعل الناس يحترمون مناقشته ، ومما جعل زملائي يقدرونه ، وكأنه أحـد أعضاء الهيئة التعليمية في الجامعة ، وأحبته فتاتان ، ومع هذا فلم يتغير ، بـل إزداد كآبة وعزلة ، وفي ذلك الوقت انعطف لدراسة موضوع أبيه – الدماغ – دراسة قاسية ، فقد كان علم وظائف الدماغ خاضعاً للنظريات « بالفوف » رغم قيام علماء جدد مثل « برجار وجولا » بأبحاث جديدة . لقد قرأ جوستاف كل ما يتعلق بالدماغ في المجلات الطبية ، لعله يكتشف الجواب على الفلسفة فيهـا ، ثم تقدم بمقال قيم هاجم فيه « ليتز » لمعلومات التي وضعها في هذا العلم ، وأصبح

يزورني دوماً ، ويناقشني ، وكان أن نشرت كتاباً جديـداً بعنوان « حتميـة الشك » .

قطعت السيدة جراي حديثه لتقول :

– الذي قرأته .

– رائع ، فقد كان تأثيره عظيماً إذا قيس بحجمه .

وبدأ تسفايغ يشرح فكرة الكتاب لصديقه جراي : « إنـه كتاب صغير تقوم فكرته على الإيمـان الصادق الذي يجب بناؤه على الشك ، لا على التسليم الأعمى . إنه يبين أن مقـدرة الإنسـان على الشك هي أشرف فضائله ، حتى ولو كان قديسـاً . إن على الإنسـان أن لا يتخلى عن الشك » .

قال جراي الذي لم يقنعه تفسير صديقه :

– يجب أن أقرأ هذا الكتاب .

– أعتقد بأنك متصاب بالملل . لقد كنت أقول إن الكتاب وجد نجاحاً هائلاً عام ١٩٣١ ، وأعجب بفكرته جوستاف حتى أن الأب خاف من تأثيري على ولده ، وهو كيهودي متعصب كره ما دعـاه « باللاشيئية » . ثم وقعت حادثة أدت بجوستاف إلى معضلة ، فقد سُرِق سيارة روس – رويس ، كان يملكها سائح أميركي ، وألقى بها في واد عميق (نسيت أن أقول إن زوجـة السائح هذا كانت نزيلة مستشفى نيومن للعلاج ، وهذا مـا سهل على الأب ، أن يجد طريقة ما ويخمد الفضيحة) وقـد حدثت هذه الحادثة في عيـد الفصح عام ١٩٣١ .

« لم أر جوستاف لمدة أسابيع ، ففكرت بأنه ربما كان يعيش قصة حب فاشل . وحين رأيته ، رفض أن يبوح بالسبب الذي جعله يقذف بالسيارة ، بل إنه رفض أن يتكلم في الموضوع ، وقـال لي بعد ذلك بأنه أراد أن يمتحن شجاعته ، فقفز من السيارة قبل إنحدارها في الوادي . وفي ذلك المساء حدثت مشاجرة كلامية – لأول ولآخر مرة – بيني وبين الأب ، فأخبرني بصراحة بأن أفكاري المقيتة هي التي غيرت جوستاف وأكلت من إتزان عقله . وبـدأت

الهمسات تنطلق دون ضجة ، لتحدث شرخاً في سمعة ولده . وسألني إذا كنت أعتقد بأن إبنه قد أصيب بالجنون ، فطمأنته بأنه في خير ، وبالرغم من هذا ، فإن تصرفات جوستاف أقلقتني كثيراً ، فقد أخذ يكثر من شرب الخمرة . ثم أيقنت بأنه مصاب بإجهاد عقلي » .

« والآن ، سأروي لكما حادثة صغيرة : لقد زارني جوستاف ذات يوم ، وأخذ يداعب قطة صغيرة كانت تعيش معي ، فتحولت المداعبة إلى ملاعبة قاسية أخافت القطة ، فخرمشته ، وكانت ردة الفعل عنده أن قبض على عنقها ، وكأنه مصاب بالجنون ؛ وكنت أراقبه من خلال المرآة حيث كنت أقوم بحلاقة ذقني . وقد تطلع إليّ فرآني أراقبه ، وهنا أجهد نفسه ليعود إلى طبيعته السابقة وأفلت عنق القطة ، ولولا وجودي هناك لخنقها .

« لم يكن سادياً ، وإنما كان مصاباً بإرهاق عصبي ، فكثيراً ما حدثني عن الإنتحار ، ــ لا عن نفسه ــ بل عن إنتحار الكتاب من أمثال « كليست وستيفان » وشعرت بأن تفكيره في الإنتحار كان صادقاً ، وقد توصل إليه بعقلية جدّية ، حتى أنني لم أستطع أعطاءه أسباباً تناقض تفكيره الإنتحاري ، وكان أن وضع أمامي نقص فلسفتي ، وتركني عاجزاً عن سد الثغرة .

« وأذكر أنني عزمت في آب عام ١٩٣١ على مغادرة ألمانيا لإيماني بأن هتلر سيعتلي منصة الحكم ، فقد كنت أعارض النازية نتيجة لأفكاري الفلسفية ، وفي ذلك الوقت تلقيت عرضاً من جامعة لوس أنجلوس للعمل فيها ، فقبلت دون تردد ، وكان أن أسف جوستاف ووالده لعزمي على ترك ألمانيا ؛ وتنبه الأب ، وبدأ بتهريب أمواله إلى البنوك السويسرية ، لكنه كره هجر مقر أبحاثه في هايدلبرغ .

« وأذكر أن جوستاف كان حزيناً حينما أخبرته بقصة العرض من جامعة لوس أنجلوس ، وحاولت إقناعهما بالسفر إلى أميركا ، ففضل الأب التريث ؛ وقبل مغادرتي ألمانيا ، أعطيت جوستاف النسخة الأصلية من مقال كتبته لينشر في مجلة فلسفية أميركية . لم يكن المقال عظيم الأهمية ، بل كان عادياً ، فقد

هاجمت فيه الطرق الجامعية في الفلسفة ، وطلبت من الفيلسوف أن يكون كالنسر الكاسر ، يهبط لإلتقاط الحقيقة من علو شاهق ، وفي لحظات فجائية تمكنه من الرؤيا ، حتى يفترقها بعنف ، وسخرت من « الفلاسفة الحشرات » الذين يبحثون في النفايات لبناء قواعد تستند على معادلات رياضية .

« لم أهتم للمقال كثيراً كما قلت ، فقد كتب عنه نيتشه عدة مرات ، وكانت قد مضت ليلتان ، حين قرع الباب في منتصف الليل ، لأرى جوستاف الذي لم أفرح لرؤيته ؛ فقد كنت تعباً جداً . وقدمت له قدحاً من « الكومل » فشربه دفعة واحدة ، وبدأ حديثه ، الذي فضح سكره .

« أنتما تعرفان أن النظام الجامعي في ألمانيا يفرض على الطلبة إحترام أساتذتهم ، وأنا لم أطلب منه أن يعاملني كأستاذ ، وإنما عاملته كإبن لي ، فأظهر الإحترام والحب ؛ أما الآن فقد تغير كلياً ، وأصبح يحدثني بسخرية وقحة مبطنة ، مما كدرني . وكنت في ذلك الوقت أقرأ مقالاً عن قاتل جنسي يدعى « كورتن » كتبه صديق أعرفه من دوسلدورف . وقد إختطف جوستاف المقال ، ثم أخذ يتحدث عن « كورتن » الذي أعدم قبل شهرين ، فأصغيت بإهتمام رغم تكدري من حركاته وأقواله ، حتى قال : « كورتن محاولة عاطفية للإنتقام من المجرم الحقيقي ، فقد أراد أن يكون عدواً لمجتمعه ، ولكنه وقع ضحية . » ثم مضى يتحدث عن العلاقة بين المجرم وضحيته إلى أن قال : « إن اليهود قبلوا دور الضحية بسلبية مطلقة ، وإن الجنس البشري لم ينجب مجرماً كبيراً حتى الآن . » فسألته : « ألا يصلح هتلر لهذه المهمة ؟ » فأجاب بهدوء : « أوف .. إنه مجنون ، وكيف يتسنى لمجنون أن يكون مجرماً كبيراً ؟ » وقلت « ربما يصلح المجنون لأن يكون مجرماً كبيراً ! » فأجاب بغضب : « يمكن أخذ هذا القول كمنطق جامعي . » وشعرت بالضيق من وجوده ، وطلبت منه أن يذهب إلى بيته لينام قليلاً ، فقد تمتع السكر عقله وأفقده المناقشة الواعية ، وقال وهو يصب مزيداً من « الكومل » دون إستئذاني : « لا أريد الذهاب إلى البيت ، فقد تكون هذه المرة الأخيرة التي نتحدث فيها

عجدية ، وأنا أريد أن أدلي اليك بشيء هام . » فقلت : « حسناً . تابع حديثك دون توقف . » وراح يهاجم الفلاسفة الجـــامعيين « جسبر وهيدجر » بشدة عنيفة ، فقلت بلا مبالاة :

« هذا رائع ، فأنا أوافقك ، ألم تقرأ المقال الذي تركته معك منذ يومين ؟ » فقال : « هذا هو السؤال : هل تعذبت حين كتابته كما تعذب نيتشه ؟ » قلت : « ربما ، ولكن قل لي ، كيف تعرف إن تعذبت أم لم أتعذب ؟ » فقـــال : « أعرف ذلك لأنني أتعذب حين أفكر ، ولولا حادث مرّ بي لما رأيتني الآن . ثم أخبرني بأنه حين قرأ مقالي في الليلة الماضية ، قرّر أن ينتحر . »

صرخت السيدة جراي بهلع :

– يا للسماء !

وهزّ تسفايغ كتفيه وهو يتابع الحديث :

– قلت لكما إنه كان منفعلاً ومُثاراً ، فقد ظن أن مقالي يثبت عقم الفكر ، والرؤيا هي التي تقود الى الحقيقة .

« وأذكر أنني كتبت عن « راما كريشنا » القديس الهندوسي الذي ابتهل الى الله كي يكشف له عن حقيقته ، وانتظر وانتظر ، ولكن لم يحدث شيء ، وفي ساعة يأس أمسك بسكين حاد ليقتل نفسه ، ثم فجـأة أصابته رؤيا الله ، وقد بينت أن هــذه الرؤيا هي هدف الفلسفة ، وبينت أيضاً أن الفكر لن يكتشفها مهما تعمق ، وحين قرأها جوستاف صمّم على الإنتحار .

« قال لي جوستاف : « أنا لا أعرف نسبة الصدق في قصتك هذه ، فساعة قفزت من السيارة وهي تنحرف لتنحـدر ، هبطت عليّ مثل هــذه الرؤيا . ولكنها اختفت بسرعة أيضاً .

« عزم جوستاف على الانتحار ، وعزم أيضاً على أن يذهب الى فريبرغ لمقابلة هيدجر الذي أعلن بأن الإنسان لا يعرف الحقيقة إلاّ عندما يواجـه الموت ، وسوف يسأله سؤالاً واحداً : « لماذا لم تنتحر ؟ ولماذا فضلت الاستمرار في الحياة وكتابة كتب طويلة معقدة ؟ »

« ولكي يكمل المسرحية التي في عقله ، فقد حمل مسدساً ليقتل نفسه بإخلاص أمام هيدجر بالذات .

« وفي صبيحة اليوم التالي أخذ القطار إلى فريبرغ ، حاملاً مسدساً جاهزاً ، ومقالي ليعيد قراءته ثانية ، علّه يجد بعض الثغرات في أفكاري ، وقد تناول كمية كبيرة من الطعام . ثم شرب زجاجة كاملة من الشمبانيا لتعيد فرح الحياة إليه ، وتطرد حزنه . وشعر أن طعامه هذا ، هو الطعام الأخير ، فازداد كآبة وغمة ، وقرأ عنواناً لخطبة ألقاها هتلر في جمع حاشد ، هاجم فيها اليهود واتهمهم بوصمة العار على الجنس البشري كله ، وفجـأة حدثت الرؤيا ، فأحس بالآخرين كحشرات تعلو وجه الأرض وأيقن بأن الآلهة قد خلقت الجنس البشري كدعابة سمجة ، وتمنى لو كان « رباً » ليفني الجنس كله ، أو ليعذبه على غبائه الذاتي . ولأنه فرد من الآخرين ، فقد قرر أن لا ينحرف عن الانتحار ، وقال لي « لقد أغرتني نفسي للحظات بتنفيذ الخطة » وتذكرت أن مسدسي لا يزال في حقيبتي ، فرجعت إلى مقعدي لأرى رجلين في عربة القطار نفسها – من أصحاب المصارف الكبيرة ووجوه الخنازير – يتحدثان عن قصة « كورتن » ويفكران أننا نعيش اليوم في خطأ ما . ففكرت لوقت قصير بقتلهما ، ثم جلست أتخيل وجهيهما وأنا أطلق عليهما الموت ، ثم قلت لنفسي : ولماذا أطلق الرصاص على نفسي ؟ سأدعهم يقبضون عليّ ويقتلونني . فهذا عمل يتساوى والتسلية في قتل هذين الخنزيرين ، وفجأة هبطت عليّ فكرة ، أو قل فكرتي العظيمة » .

« سألته بحذر : ماذا تعني ؟ فأجاب : ألا تفهم ؟ لقد وجدت الجواب ، قبضت عليه ، سأكون مجرماً . بل سيد الجريمة ! إن الناس حشرات تسخر منها الآلهة ، ولن تستطيع الإرتقاء إلى مستواها . ومن يدعي خدمة الجنس البشري والتضحية لأجله ، يصدق طبعاً الخديعة مثل هذين الخنزيرين ، إننا حشرات تكالفت مع حشرات أخرى ، ولكن ، كيف يصل الإنسان الى القمة ؟ أعني قمة الإنسان ، ما الذي يفعله حتى يجبر الآلهة على القول : « آه ، هذا يختلف عن الآخرين » الجواب هو أن نتعاون مع الآلهة ضد الجنس البشري ، أن نصبح قتلة

أن أكون مجرماً حقيقياً ، أو أول سيد للجريمة في تاريخ البشرية ، ولن أكون الضحية الضعيفة » .

« ظننت بادىء الأمر أنه هازل ، أو أنه قد قرأ هذه الأفكار في مكان ما ، فبهرته ، وأجبرته على قذفها أمامي ليرى الهزّة التي ستلبسني أو تغضبني ، ولكنه حين أخذ يقارن نفسه بالقديس بول الذي تعذب وتألم في مرارة ، حتى وصل إلى دمشق ، تأكدت أنه يعيش الحالة بعمق ، فتساءلت ، هل هو مجنون حقاً ؟

« وتذكرت فجأة أن نيتشه وستريندبرغ قد عانيا الألم من مرض السفلس الجنسي ، وقلت : لعل جوستاف التقط المرض من مومس شارع ، ولعل المرض بدأ يأكل من عقله . وتظاهرت بالموافقة . وسألته : « هل يفترض بسيد الجريمة أن يتمتع بجسم سليم ؟ » ثم انحرفت بالسؤال لأقذف سؤالاً جديداً : « هل تعاني من مرض تناسلي ؟ » فثار كحيوان هائج ، ثم صرخ : « انني أتمتع بصحة جيدة . هل لك أن تفحصني ؟ » ثم أخذ يخلع ثيابه الخارجية فأوقفته وطلبت منه أن يذهب لينام ، فهو مصاب بتخدر كحولي ، وقبل أن يذهب قال لي : « سأثبت لك في يوم من الأيام بأنني على حق » فقلت : « لماذا تريد أن تثبت لي ما دمت حشرة ؟ » فأجابني بسرعة : « لأنك أنت تملك طاقة دافعة إن استخدمتها ستصبح عظيماً ، ولكنك تجبن أن تستعملها ».

« وفي الصباح أخبرت الأب بما حدث ، ونصحته أن يقوم بإختبار عقلي له ، فهو يعيش المرض . وقد خاف الأب ، وأصابه الرعب ، ثم جاءني بعد ساعات ليقول بهدوء : – « تحدثت مع جوستاف عن ليلة الأمس ، فابتسم وهو يخبرني بأنه أراد تكديرك فقط ».

« لم أناقشه لأنه أرادني ان أصدق . وحين غادر الأب بيتي قال : « إن جوستاف ولد سليم العقل مثلنا ، وحديثي معه أثبت أنه لا يعاني اهتزازاً عقلياً. وقد وعد ان يعتذر منك . »

« لكن جوستاف لم يعتذر . ولم أره بعد تلك الليلة في ألمانيا . »

أشعل جراي سيجارة جديدة ، وحدق متأملاً شيئاً ما ، بينما هربت زوجته بعينيها نحو النار ، وهنا قال لستفانيغ بنعومة :

– أعتذر للإطالة في السرد ، فأنا قريب من هدفي الآن . . .

قال جراي : – أبداً ، فالقصة مثيرة للغاية ، استمر .

– لقد انقطع جوستاف عن زيارتي ، مع أنني شاهدته عدة مرات بصحبة عجوز ثري يدعى جرهارت سايفرت ، وحين سألت الأب عن العلاقة بين جوستاف وبين العجوز الثري ، علمت ان جوستاف استطاع أن يسّل الآلام القاسية التي كانت تسكن في رأس العجوز ، وذلك بالتنويم المغناطيسي الخفيف ، وبتمسيد الجبهة ، وبهذا أصبح الاثنان صديقين حميمين ، وكنت أعرف أن سايفرت ثري جداً ويملك ثروة طائلة تزيد على المليونين من الماركات ، وكان وحيداً أيضاً ، لا وريث ينتظر ثروته ، وقد يترك مبلغاً كبيراً من المال لجوستاف ، وكنت أعرف أيضاً أن الأب نيومن قد أنفق كل ثروته على عشيرة الطبي ، ولو أجبر على ترك ألمانيا لأصبح فقيراً معدماً ، وتساءلت : « من يلوم جوستاف إذا بدأ يفكر في مستقبله ؟ »

« وقبل ان أغادر ألمانيا بأسبوع واحد ، أخبرني الأب ان ولده يعمل كسكرتير خاص لصديقه العجوز ، وأنهما ذهبا في رحلة للنقاهة الى سويسرا ، وكانت حصيلة الرحلة ، ان العجوز وُجد ميتاً بالقرب من نهاية منحدر « ماترهورن » بعد أن وقّع مذكرة إنتحارية يعلن فيها ، بأنه انتحر ليوقف استمرار تفشي السرطان في عاموده الفقري ، وأنه اختار الموت السريع ، ثم أوصى بأن تُعطى كل ثروته لجوستاف الذي كان أثناء الحادث بعيداً جداً عن المنحدر . »

تناول لستفانيغ زجاجة البراندي ليصب مقدار ربع انش في قدحه ، ثم حمل قدحه بين يديه مدركاً في الوقت ذاته أنهما ينتظرانه للإجابة على سؤاليهما.

وأخيراً تنهد جراي وهو يقول :

– هل انتحر العجوز فعلاً ؟

– سألت نفسي هذا السؤال ، ولكن كيف تمت عملية القتل ؟ قد تكون مذكرة الإنتحار مزورة ، وقد يكون جوستاف هو الذي دفع العجوز من على المنحدر ، وهذا ما أجده مستحيلاً ، إذ أن الفندق يبعد خمسة أميال عن مكان الحادث .

قالت السيدة جراي بلهجة منتصرة :

– ألم تقل إنه استعمل التنويم المغناطيسي مع الرجل العجوز ؟

ابتسم تسفايغ لها ، فقد توقع السؤال ، ثم أجاب :

– تعتقدين أن جوستاف أثر على سايفرت مغناطيسياً ليقتل نفسه ؟ لا ، فهذا مستحيل أيضاً .

قال جراي :

– حتى كتّاب الروايات البوليسية توقفوا عن حشر هذه الأشياء يا عزيزتي ، فأنت تعرفين أنه لا يمكنك التأثير مغناطيسياً على إنسان ما ليفعل شيئاً لا يفعله وهو صاح ، أليس كذلك يا كارل !

– ليس كل ما ذكرت صحيحاً ، فصديقي رولاند أجرى تجربة على حيّة سامّة ... وعلى كل حال فالحقيقة أن جوستاف لم يؤثر مغناطيسياً على سايفرت.

قالت أدنا جراي وهي مستغرقة في تفكيرها :

– إذا كانت جريمة فأعتقد أنه يمكن تسميتها « الجريمة الكاملة » .

قال تسفايغ :

– ربما ، ولكن أتعتقدين أنها جريمة ؟

وهزّ جراي كتفيه وهو يلعب بشعيرات شاربه علامة السأم ثم قال :

– إسمع يا كارل ،أنت تعرف ان ما ذكرته لا يتعدى المنطق النظري البحت ، ولو سئلت تحري قضية كهذه لطلبت أدلة أكثر مما ذكرت أنت ، فهناك إحتمال وقوع جريمة ، أو على الأقل فإن الأرجحية غير ذات بال . إن من يتحدث مثل صديقك لن ينقلب بسهولة إلى مجرم ، وأنت تدرك معنى هذا .

– عندي بعض الأدلة وسأقدمها إليك .

– حسناً ، دعنا نسمعها .

– لم أسمع إلا الطفيف من الأب نيومن بعد وصولي أميركا ، وفي عام ١٩٣٦ سمعت أنه انتحر ، كيف ؟؟ لقد أطلق على نفسه الرصاص .

– كيف علمت بالخبر ؟

– نشرت الخبر إحدى الصحف الأميركية ولم تشر إلى التفاصيل ، فكل ما قالته الصحيفة هو أنه وجد مقتولاً في بيته القريب من زوريخ ، وقد أرجعوا سبب الإنتحار إلى الحالة السيئة التي كان يعيشها أقرباؤه في ألمانيا .

– يبدو هذا معقولاً للغاية .

– أوافقك ، ولكن الجريدة ذكرت أن جوستاف عاش مع أبيه لمدة أربع سنين في عزلة ، أعني أنه كان معتزلاً لا يتحدث مع أبيه .

– أهذا كل ما في الأمر ؟

– لا ، فهناك بعض التفاصيل . في عام ١٩٣٨ قضيت عطلة الصيف في مانتون ، وقد لفت انتباهي وأنا أجمع حوائجي لمغادرة الفندق ، ورقة من جريدة قديمة استعملت لتغطية أحد الأدراج ، كتب عليها إسم جرهارت سايفرت ، وقد يكون هذا محض مصادفة ، فتاريخ الجريدة يعود لسنتين خلتا ، والخبر مفاده أن البوليس قد ألقى القبض على رجل يدعى «جرهارت سايفرت» بعد حادث انقلاب زورق ، وكان سايفرت هذا يعمل كسكرتير خاص لصاحب معامل ثياب داخلية من بلجيكا يدعى شرول ، أما الإثنان فقد جاءا لقضاء إجازة قصيرة في مانتون ، وذهبا في زورق شراعي ، ثم انقلب الزورق بطريقة ما . فاستطاع سايفرت أن يصل إلى الشاطيء سليماً ، بينما غرق شرول صاحب المعامل ، وبعدها بيومين اعترف رجل لدوائر الشرطة بأنه راقب الزورق من خلال منظاره ولاحظ أن الرجلين تعاركا قبل انقلاب الزورق ، فقُبض على سايفرت حالاً . وهكذا انتهى الخبر في الجريدة .

– أوجدت المزيد عن ذلك ؟

– نعم ، فصاحب الفندق تذكر القصة بوضوح ، وأخبرني بأنهم أطلقوا

صراح سايفرت في اليوم التالي لإثباته بأن الشاهد قد هدده بإبلاغ الشرطة إن لم يدفع له مبلغاً ضخماً من المال ، فرفض سايفرت أن يدفع شيئاً . واستطاع أن يثبت للشرطة بأن الرجل زاره في فندقه قبل ذهابه إلى دائرة الشرطة بيـــوم واحد ، وللأسف فقد كانت للشاهد سوابق معروفة من هذا القبيل .

حدقت السيدة جراي إلى صوفها ثم قالت :

– لم أعرف لـماذا ربطت سايفرت هـــذا بالرجل العجوز الذي انتحر في سويسرا ؟

– بسبب الصورة المنشورة لهذا السكرتير الخاص في الصحف : كانت صورة سيئة لا تبين ملامح صاحبها ، ولكنها تشبه جوستاف ليومن إلى حـــد بعيد . وسرح تسفايغ في صدى كلماته حـــين وضع شيئاً من البراندي في قدحه ، ثم ضجت الغرفة بسؤال من جراي :

– هل أنت واثق من أنها لليومن ؟

– طبعاً لا .

فسألته أدنا جراي :

– هل ذهبت إلى دائرة الشرطة ؟

– ذهبت لأخذ بعض المعلومات عن الحادثة ، فقالوا بأن القضية أغلقت ، ولم يحتفظوا في ملفاتهم لصورة تمثـــل سايفرت ، فلم أيأس . ذهبت إلى مكتب الجريـــدة التي نشرت الصورة ، لأسأل عن الأصل ، ولكنهم فقدوا الأصل أو تخلصوا منه .

– هل اتصلت بعائلة البلجيكي شمول ؟

– فكرت ، ولكن لم أتخذ أية خطوة إيجابية .

– لماذا لم تفعل ذلك يا كارل ؟

– السبب الرئيسي هو أنني لم أكن مقتنعاً تماماً بأن هناك شبهة ما .

– هل تعتقد بأن الاسم والصورة مجرد مصادفة بحتة ؟

– يبدو ذلك معقولاً ، فإذا فكرنا قليلاً وجدنا ان جوستاف عاش مع أبيه

حتى سنة ١٩٣٦ ، وقد مات الأب منتحراً في تموز من ذلك العـــام ، وحادث الزورق وقع بعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ . فهل من المعقول أن جوستاف حمل اسماً جديداً وجواز سفر مزوراً ؟ ثم وجد عملاً كسكرتير خاص لرجل ثري ؟

ولماذا فعل هذا ، ولماذا ارتكب جريمته ؟؟

– من المحتمل أنه كان وراء مال البلجيكي الذي ترك له بعض المال .

– بعد صداقة قصيرة مدتها ستة أسابيع ؟!

– هذه حقيقة ، ومع ذلك فما زلنا نجهل الأمر .

ارتسمت علامات خوف مجنون على وجه السيدة جراي ، وبسرعـة ألقت صوفها جانباً ثم قالت :

– ألا تظن ... هذا الرجل العجوز الليلة ؟..

فأجاب تسفايغ :

– لهذا أخبرتكما بالقصة . ماذا تظنان ؟

نهض جراي يقطع الغرفة بخطوات صامتة وهو يلعب بشاربه ، ثم قال :

– أوافق بأن القصة غامضة ، ولكن لا دليل ، لا دليل . إنهـا واحدة من القضايا التي تجعل رجل الشرطة يستعمل أنفه أكثر من رأسه . آه ، لا أدري .

– ما هو الذي لا تدريه يا عزيزي ؟

– لا أدري .. إذا كنت في الشرطة الجنائية وزودتني بهذه المعلومات ، هل أرضى نفسي باتخاذ أية خطوة أم لا . أغلب الظن أنني لا أفعل .

فقالت زوجته :

– ولِمَ لا ؟ أفرض بأن العجوز الذي رآه كارل هذه الليلة سيُقتل .

– آه .. الأمر يختلف هنا ، إذا قُتل هذا العجوز او إذا قام بعمل إنتحاري فالأمر يستحق التحقيق .. ولكن هناك ... ما يدور في الخفاء .

تاهت السيدة جراي في تفكيرها وهي تصوب نظراتها إلى وجـه تسفايغ الهادىء ، علّها تجد الجواب ، ثم قذفت بأول كلمات جاءت فوق لسانها :

– أعتقد أن هناك ما يدور في الخفاء .

– أوافقك يا عزيزتي . وما قاله كارل لا يعطي رجال الشرطة أي دليل مادي ، ولو كنت مكان كارل عام ١٩٣٨ لجعلت من الإتصال بعائلة هذا الرجل عملي .. ما اسمه ؟ شمول . ولكنت تحققت عما جرى لثروته . هل قلت إنه رجل عجوز ؟

– لا لم أقل ، ولكنك على حق ، فقد كان في الثامنة والستين .

– أنا اعتقد بأن عائلته قد قامت ببعض التحريات .

سألت ادنا جراي :

– اتعتقد ان الوقت قد فات للسؤال من جديد ؟

– لا ، لا اعتقد ذلك ، ولكن الوقت متأخر لتتبع اي دليل .

ثم التفت إلى تسفايغ ليسأل بلهجة رجال الشرطة :

– هل قدمت تقريراً عن هذه الشكوك لرجال الشعبة الجنائية ؟

– لم افعل ذلك ، بل سردت القصة مرة او مرتين على معارفي منهم فقالوا ما قلت انت .

قالت ادنا جراي بروية :

– لا ارى ذلك مطلقاً .

– سأحاول الإيضاح يا عزيزتي ، إن الأمر يتعلق كله بقوة الأدلة ، لنأخذ مثالاً على ذلك قضية « سميث » ، « العرائس القتيلات في غرف الحمام » : فقد تزوج سميث تلك النسوة لمالهن ، ثم دبر لهن ان يغرقن في مغطس الحمام ، لم يكن هناك اي دليل قاطع ضده ، فالقصة تتلخص بأن ثلاث نسوة غرقن في الحمام وكلهن عانين من ضربات موجعة ، قد يكون هذا كله حادثاً ، وفي كل حادثة كان سميث بعيداً عن مكان الجريمة ، ولم يشك إنسان بأنها كانت جرائم قتل ، وفي يوم ما قرأ أحد أقرباء واحدة من الضحايا ، قصة ضحية جديدة ماتت بالطريقة نفسها ، فاعتقد أن من المستبعد أن يكون الأمر صدفة ، لهذا اعتقل سميث وحوكم . لم تكن أية بصمات على الأجساد ، ولا علامات عنف ، ولكن الإتهام ادعى أن

سميث حل ضحاياه من ركبهن وأغرقهن دون استعمال القوة ، ولو كانت إمرأة واحدة أو إثنتان قد لاقتا الموت بهذه الطريقة لما حوكم سميث ، أما ثلاث نساء ، فقد آمن المحلفون أن الأمر لم يكن مجرد حادث عادي ، وكان أن نفذ حكم الإعدام بالرجل .

الأمر الذي يحتاج إلى دليل ، والأدلة التي قدمها كارل غير مهمة في عرف الشرطة ، ولن يحكم أي محلف في العالم على نيومن بتهمة القتل ، ومن ناحية ثانية سيقع نيومن إذا وقعت ضحية جديدة .

– بمعنى آخر يجب أن يقتل الرجل العجوز المسكين هذه الليلة حتى يتدخل رجال الجنايات .

– أعرف أن الأمر يبدو سخيفاً لك ولكنها الحقيقة تقريباً ، ماذا تعتقد يا كارل ؟

– أوافقك ، فمن الإحتمال البعيد أن يكون لجوستاف علاقة بإنتحار جرهارت سايفرت ، ولكنني أؤمن أيضاً بأنه من المستحيل إثبات ذلك .

فسألت السيدة جراي :

وهل من المتوقع أن يدبر خطة لقتل العجوز الذي رأيته بصحبته هذه الليلة ؟

وحدق تسفايغ في النار وفكر ، ثم قال :

– أظن أنه لن يحدث مثل هذا ، ولكنني مهتم بمعرفة مكان جوستاف في هذه اللحظات .

– لماذا قلت لنا هذه القصة ؟

لأنها مثيرة وقصيرة . ولأنني أردت إستشارة لشارلز في كيفية ملاحقة جوستاف نيومن ، ولأنني أعتقد أن الذي رأيته في الليلة الماضية ، كان جوستاف .

عاد لشارلز جراي إلى مقعده ليلقي برماد سيجاره ثم قال :

– من الصعب أن تأخذ معلوماتك من رئيس النُدُل في الفندق ، قل لي هل

لاحظت رقم سيارة الأجرة ؟

– لا ، فلم أنتبه الى الرقم .

– لا تهتم ، فقد يعرف البواب سائق السيارة . هل قلت أنهما زارا الفندق من قبل ؟

– لا ، فعند سؤالي مدير الفندق ، علمت أنهما لم يظهرا هناك من قبل .

– السؤال الآن : لماذا يذهبان الى فندق في منطقة « الميفير » لتناول العشاء في ليلة أعياد الميلاد ؟ لو كانا يقيمان في أحد فنادق لندن الكبيرة ، فباستطاعتهما أن يأكلا في فندقهما .

قالت السيدة جراي :

– لعلهما يقيمان في نزل صغير .

– أو في فندق رخيص ، ولكن لماذا يتعشيان في الفندق رغم وجود العديد من المطاعم الشهيرة ؟ هذا يدل على أن لهما خبرة سابقة في ذلك الفندق .

قال تسفايغ :

– إنه من المطاعم الشهيرة التي يذهب إليها الناس للطعام والعمل أيضاً .

– ومع هذا فأنا ما زلت في شك ، فلماذا يقيمان في نزل أو فندق رخيص ثم يأخذان سيارة أجرة لتناول عشاء مرتفع الثمن ؟

تنفس تسفايغ مثل فيل البحر ، وهز رأسه ليقول :

– لا أستطيع التفسير أو لعل هناك تفسيراً بديهياً .

وسألت السيدة جراي :

– كيف يبدو صاحبك جوستاف ؟

تناول تسفايغ الغلاف الأبيض من محفظته وقدمه إليها . واتكأ جراي على كتف زوجته ليطالع الصور باهتمام بالغ ؛ وقال تسفايغ وهو يشير الى واحدة من الصور :

– أخذت هذه الصورة يوم ميلاده التاسع عشر في الاستديو .

وأغمضت السيدة جراي عينيها وهي تقول :

– إنه بهي الطلعة .

فحدق ثلاثتهم في الصورة : كان وجه جوستاف نحيلاً ، وكانت عيناه تنمّان عن ذكاء حاد ، وشفتاه مضغوطتان بقوة ؛ أما ذقنه فقد كانت دقيقة بارزة . كان يحمل وجه طبيب أو عالم ، ولكنه وجه عصبي سرعان ما يصبح حاداً شرس المزاج ، شديد التوتر .

ومرت الصور الباقية أمام أعينهم ، فقال تسفايغ وهو يشير إلى صورة الأب :

– لو استطاع أن ينهي أبحاثه في هايدلبرغ لأصبح أحد مشاهير هذا العصر .

كانت تعابير وجهه تشبه وجه إبنه ، وقد تناثرت الشعيرات فوق رأسه المستطيل . وكانت الصورة واضحة تبرزهما واقفين على تلة تراكمت عليها الثلوج ، وقد حدق الأب في آلة التصوير بغضب ، ووضع يديه في جيبي معطفه ، حانياً كتفيه كأنه يتحدى خصماً له ، وقد ظهر جوستاف أطول قامة من أبيه ، ولم يكن يضع معطفاً ، وكان ملقياً بوشاح حريري على كتفه الأيمن ، مباعداً بين قدميه وواضعاً يده اليسرى بلطف على كتف أبيه ؛ وقد أطل برأسه ليحدق مباشرة في عدسة التصوير ، أما الصورة الثالثة فقد كانت لجوستاف مع شاب أطول منه قامة .

قال تسفايغ وهو يشير إلى الشاب في الصورة :

– هذا جورجي .

إرتسمت خيبة الأمل على وجه السيدة جراي ، ولاحظ تسفايغ ذلك فقال :

– هو ليس بوسيم ، إنه خجول جداً . يفكر بإرهاق ولكنه مخلص ثاقب الرأي .

وفجأة صرخ جراي :

– هذا غريب .

– ما هذا ؟

– هذه الصورة .

وأشار جراي إلى صورة الأب وولده :

– هل لاحظت أنه ألقى بوشاحه على الكتف الأيمن ؟ إنه أعسر ، لأن الرجل الذي يستعمل اليد اليمنى يلقيه عادة على الجهة اليسرى ، ومع هذا ففي الصورة الثانية تجده يدخن سيجارته بيده اليمنى .

إبتهج تسفايغ فرحاً لهذه الملاحظة :

– أنت على حق وهذا ما أدهشني ، فقد كان جوستاف يستعمل يده اليسرى واضطر لكي يخفي شخصيته أن يتدرب على استعمال اليدين ، اليسرى واليمنى ، وكان يعتقد أن النازيين سيضعون ثمناً مرتفعاً لرأسه ، لذا كان يقت بأن يوصف بالأعسر .

تطاولت رقبة السيدة جراي فخراً وإعجاباً بزوجها ، وهمست له :

– عليك يا عزيزي ان تعود للعمل في شعبة الجنايات ، فأنت شديد الملاحظة .

فأجاب جراي بثقة :

– صدقيني يا عزيزتي حين أقول إن أعمال شرلوك هولمز تعتبر بديهية لرجال الشرطة الآن . كل ما نحتاجه هو المزيد من الرجال .

وأطالت السيدة جراي النظر في الصورة ثم قالت :

– لا يبدو مجرماً هذا الوجه .

– قد أوافقك ومع هذا فلست واثقاً من أنني لم أر مجرماً يحمل مثل هذا الوجه ، موريسون أحدهم ، آ .. هذا غريب ...

– ماذا ؟

– لا أعتقد أنني رأيته من قبل ، ومن المستبعد أن يكون من أصحاب السوابق هنا ، ومع ذلك فصورته تبدو مألوفة .

– يجب أن تتصل بكولبرايت ، عزيزي .

– هذه فكرة جيدة ، ولكن ليس الآن .

– لم أقل الليلة .

– لماذا ؟ آ ، الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد وهو يعيش في « فولهام » هل

ترغب في المجيء معي يا كارل ؟

– طبعاً لا .

– دعنا نجرب ، فلن يضيرنا ذلك شيئاً ، سأتصل به هاتفياً لأتأكد إن كان في بيته أم لا .

– ليس في ليلة أعياد الميلاد .

– أنا أعرفه جيداً فلن يمانع .

ترك الغرفة ، فأصيبت زوجته بإزعاج غاضب ، مما جعل تسفايغ يقول معتذراً :

– أنا آسف ، لم أكن جاداً حينما بدأت بسرد القصة عليكما .

– ما الذي تعنيه ؟

– جوستاف بالطبع ، لأنني أرغب في رؤيته ، وقد قال تشارلز بأنه ليس بمجرم حقيقي ، أعتقد أن قصة مثل هذه ستثير كثيراً من الضجة .

– إذن ، لماذا لا تحاول منعه من الإتصال الهاتفي ؟

عاد جراي قبل أن يسمح لتسفايغ ان يقول شيئاً للسيدة جراي ، وكان فرحاً عندما قال :

– لقد تم الأمر ، وبإستطاعتنا أن نذهب حالاً لمقابلته .

تدخلت أدنا جراي قائلة :

– أخبرني كارل منذ لحظات أن القصة لا تستحق كل هذا الاهتمام ، وأنا أرى أنه من غير المناسب أن نزعج أحداً في ليلة كهذه .

– رائع ، ولكنني أود رؤية صديقي « توني » هذه المرة للإحتفال بعيد الميلاد .

قال تسفايغ بحذر واضح :

– أنا أؤيد وجهة نظر زوجتك ، فحتى لو كان لجوستاف سجل سوابق – وأنا واثق من أنه لا يملك هذا السجل هنا – فلا يمكن وجوده في انجلترا .

– لا فرق عندي فكولبرايت ينتظرنا الآن ، هل تأتين يا عزيزتي ؟

– طبعاً لا ، أرجوك أن تخابره الآن وتلغي موعدك معه الآن ، وحدد يوم العطلة الذي يعقب أعياد الميلاد لزيارته .

– لا ، لا يمكنني ذلك ، وعلى كل حال فلن تتأخر هناك أكثر من ساعة .

ثم أزاح ستائر النافذة وتطلع الى الطريق ، وقال :

– أف ، ما زال الثلج اللعين يتساقط بكثرة ، سأتصل بسيارة أجرة .

– ٤ –

كانت السيارات المارة في شارع « اولدبرومبتون » قد مهدت قسماً من الطريق المغطى بالثلوج ، أما ساحة « رد كليف » فقد بقيت ثلوجها متماسكة صفيقة ، وهذا ما جعل تسفايغ يندم لنسيانه الخف الذي يغطي حذاءه ، لأن الندف الثلجي قد غطى كاحله . وفجأة قال سائق السيارة بعذوبة :

– ستصبح جليداً بعد ساعة .

وألقى تسفايغ نظرة أسف إلى ساعته ، متمنياً لو كان في غرفته الدافئة يرشف الويسكي الجيدة ، ليشعل الدفء في جسده ؛ وتطلع إلى سيارة الأجرة وهي تستدير نحو « رد كليف جاردن » كأنما هي آخر اتصال له بقلب لندن ، وفي الوقت نفسه هبت رياح ثلجية عاصفة تلسع جلد الإنسان إذا ما أدار وجهه نحو الشرق ، فبدأ تسفايغ يلعن لحظاته هذه بصمت أحمق .

كان هناك من يراقبها ، فقد فتحت البوابة الأمامية للبيت قبل أن يصلاها ، وقابلها صوت لندني أصيل بهذه الكلمات البهيجة :

– ادخلا ، فالبرد شديد .

وبالقرب من الباب وقف رجل قصير القامة ، ضخم الجثة ، محاولاً فتح الباب لدخولها معاً ، بالرغم من بطنه المنتفخة الواقفة كحجر أمامها ، وقد وضع على رأسه قبعة من الورق الملون تربعت بهدوء عجيب قريباً من جبهته ، ولف جسده بعباءة برتقالية اللون ، أعجب بها السير جراي .

التفت رجل العباءة إليها وقال مبتسماً :

– هل أستطيع مساعدتكما في أخذ معطفيكما ؟ إنها الفرصة سعيدة أن نراك

معنا ، سير تشارلز ، أين زوجتك ؟ آ ، يا لها من ليلة ثلجية لعينة !

كانت تنتشر في البيت رائحة حلوة منبعثة من شجرة عيد الميلاد المحترقة ، ومن فطائر اللحم ، وقادهما إلى غرفة واسعة غطيت جدرانها وسقفها بأغصان شجرة العيد ، وبأوراق بالونات ملونة ، وكانت الغرفة دافئة جداً ، وبدأ الثلج الذي علق ببنطال تسفايغ بالذوبان ، وانزوى صبي وبنت يلعبان بهدوء ، وقال المضيف :

– إجلسا هنا ، وعما قريب ستحضر زوجتي ، فهي في المطبخ .

وفي تلك اللحظات تم التعارف بين تسفايغ وكولبرايت رئيس شعبة المباحث السابق ، وكان جراي يطيل النظر في العباءة الليلية ، ثم قال له فجأة :

– هل تشعر بالبرد ؟

فأجاب الصبي من زاويته البعيدة :

– لا ، فهو معجب بلونها ولا يطيق خلعها .

اهتز كولبرايت تيهاً :

– إنها رائعة ، وهي هدية من ابنتي المتزوجة بمناسبة العيد .

واختار تسفايغ الجانب البعيد من الطاولة عاولاً تجنب وهج النار . وقال كولبرايت بلهجة كريمة :

– لنشرب قليلاً من هذا الكوكتيل الذي يسمونه « الثان فوق ثمانية » ، الاسم غريب آ ، ولكن نسبة نقاوته مرتفعة ، وزوجتي تشتريه خصيصاً بمناسبة العيد .

قال الصبي ضاحكاً :

– عليك أن تبعد العباءة عن النار .

فزجره الأب قائلاً :

– تحدث عندما يوجه اليك الحديث وإلا . . .

والتقطت البنت بقية حديث الأب لتوجه إلى السير جراي سؤالاً :

– أين ميداليتك ؟

فبدت دهشة غبية على وجهه ، جعلت البنت تشرح السؤال :

– قالت لنا المعلمة بأن الفارس في يومنا هذا لا يضع أسلحته على كتفه ، عارضاً إياها على الناس ، بل يضع ميدالية على صدره ، وأنت تحمل لقب فارس ، فأين ميداليتك ؟

انتهى حديث البنت بحضور أمها التي حملت طبقاً من فطائر اللحم المفروم ، وكانت تبدو سريعة كزوجها ، وأطول منه قامة ، وقد صافحت تسفايغ وتم التعارف بينهما ، ثم التفتت إليه بلا صداقة لتقول :

– ماذا تريد من البرت ، اتريده ان يقوم بعمل في الخارج ؟

صرخ الصبي فرحاً :

– أوه ، هل يمكنني الخروج معكم ؟

– كل ما نريده يا سيدتي هو أن نستعين بدائرة معارفه عن الجريمة والمجرمين .

وتدخل كولبرايت ليقول :

– لا تتابع أرجوك ، دعنا نشرب خمرتنا .

وبدأ السير جراي والبروفسور تسفايغ بشرب الويسكي ، بينما أغري الولدان – الصبي والبنت – بالذهاب الى غرفة النوم ، يصحبها إنذار من الأم بعدم استراق السمع من وراء الباب ، ثم تناول تسفايغ الصور وأعطاها الى كولبرايت الذي قال :

– في صحتكم جميعاً ، عيد ميلاد سعيد ، وأعياد كثيرة قادمة .

واستمر يعب من قدحه وهو يحدق في الصورة ، ثم قال بعفوية :

– هذا الشاب بطل قضية « مادستون » أليس كذلك ؟

فطن كل من تسفايغ وجراي ، وتبادلا النظر بدهشة غريبة ، ثم قالا بصوت واحد :

– مَنْ ؟

أبعد كولبرايت الصورة على مدى يده ، مقطباً ما بين حاجبيه ، وقال :

– لا يمكن أن يكون غيره، نعم إنه هو... المرض الخاص في قضية إطلاق النار في مادستون ، طبعاً أنت لا تذكرها يا سيدي فقد وقعت عام ١٩٣٨ .

لهث جراي وهو يقول :

– أسرد علينا هذه القضية ، هل حققت فيها ؟

– لا ، أهذا هو الشاب ؟

– لا تعرف . من كانت الضحية في مادستون ؟

– رجل عجوز يدعى ... آر ... لا أذكر اسمه ، ولكنه قريب من آرسكين أو باسكين ، برلسكين .

فتبادل تسفايغ وجراي نظرات مستفسرة ، ودبت الحرارة بالبروفسور حتى نفذت الى رأسه وكتفيه .

– أعتقد أن اسم العجوز أرسكين ، يمكننا معرفة ذلك بسهولة .

صرخ السير جراي بغضب ، بعد أن نفد صبره :

– أخبرنا ماذا حدث ؟

– لقد قيل إنها قصة انتحار يغلفها غموض غريب ، فقد كانت نافذة الغرفة مفتوحة مما جعلهم يتهمون لصاً ، أما أداة القتل فقد كانت مسدساً .

أقحمت السيدة كولبرايت بنفسها قائلة :

– ألبرت يمتاز بذاكرة قوية ، وكثيراً ما رددت بأن عليه أن يجرب حظه في التلفزيون .

– هل تستطيع أن تتذكر أشياء أخرى من القصة ؟

ومال تسفايغ بجسده إلى الأمام ليسأل :

– ما اسم المرض الخاص ؟

– هنا أمسكتَ بي ، فأنا لا أذكر الاسم .

ألح جراي في السؤال :

– هل يمكنك أن تتذكر أية تفاصيل أخرى ؟

غاب كولبرايت بعيداً ، محدقاً في الحائط ثم غمغم :

– دعني أتذكر ... النافذة المفتوحة .. إنسان ما دخل ...

وقال بعد لحظات :

– آسف يا سير تشارلز ، فالقصة قديمة جداً ، ولم أحقق فيها شخصياً ، وقد سمعت عنها القليل من شقيق زوجتي الأولى الذي عمل برتبة رقيب في دائرة شرطة مادستون ، قد ترجع الحوادث إليّ إذا فكرت فيها .. أو قد تعود إن لم أطل التفكير فيها .

فقال جراي :

– من الأفضل أن نجرب دائرة شرطة مادستون ، من كان المسؤول آنذاك؟

– أوه .. مـا اسمه .. أنا أذكره جيداً ، اسكتلندي .. آه ، إسمه ماكفرسون أعتقد أنه أحيل إلى التقاعد أو أنه قد مات .

– هل تسمح لي بإستعمال الهاتف ؟

– بكل سرور ، ولكن أرجو أن لا تسيء فهمي ، فالأفضل أن تترك الأمر إلى ما بعد العيد ، أم أنه ضرورة قصوى ؟

– صديقي البروفسور تسفايغ سوف يخبرك بالقصة ، بينما أحاول الإتصال بمادستون ، أين الهاتف ؟

حاول تسفايغ سرد القصة بإختصار ، وكان مرتعشاً غير واثق في نفسه ، فقد جاءت جمله غير مترابطة ، مهزوزة ، بالرغم من أن السيدة كولبرايت أصغت بإهتمام لتشجعه على السرد . وكم تمنى تسفايغ لو كان في الغرفة المجاورة مع صديقه جراي ، ليتخلص من توتره الشديد ، وفكر لو يسأل عن هاتف آخر في البيت ، فقد أصغى اليه كولبرايت دون تعبير جاد على وجهه ، أو حتى تعليق بسيط يظهر أهمية المواقف الغامضة .

وأخيراً ألقى تسفايغ بجملة جديدة :

– وهكذا نجد أنك كنت على حق ، فقد كان جوستاف هو المرض الخاص في قضية مادستون .

فارتسم الهلع على وجه كولبرايت وهو يصرخ :

- يا إلهي .

ثم إقترب منه ليعيد النظر في الصورة ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة ، ولم تفهم زوجته معنى إصرار البروفسور ورؤيته لجوستاف نيومن فقالت :

- أليس هناك قانون يمنع محاكمة إنسان ما على جريمة مضى عليها أكثر من عشرين عاماً !

فأجاب الزوج :

- في هذه الحالة يمكننا الإستناد الى مادة قانونية حديثه الإستمرار .

انتعش صدر تسفايغ بالأمل حين استعمل كولبرايت صيغة الجمع في حديثه ، وتبدلت رؤيته للأشياء . وشعر بأنهم سيطاردون القاتل الشاب ، وفي تلك اللحظة سمعوا صوت الهاتف وهو يُعاد إلى مكانه ، وأعقبه دخول السيد جراي والإنشراح يملأ وجهه . وقد وقف بينهم وقال :

- الحظ معنا ، فالرقيب المسؤول هناك ، عمل تحت أمرة ماكفرسون .

لم يستطع تسفايغ أن يعبر عن شعوره المفاجيء بأية كلمات ، ووجد نفسه يقبض على يد صديقه الباردة ليهزها بشكر عميق ، ثم همس :

- ما هي الأخبار؟

اتخذ جراي مكاناً قريباً من النار ، حاملاً في يده قدح الويسكي الذي قدمه إليه كولبرايت ، واتجهت العيون الى شفتيه ، منتظرة أخباره . ثم قال :

- لقد مات ماكفرسون في بداية هذه السنة ، والرقيب الذي تحدثت معه لم يعمل أو يحقق في القضية رغم وجوده آنذاك في الدائرة ، ولكنه يعرف بعض التفاصيل فالرجل العجوز اسمه « بالسكن » .

صرخ كولبرايت كصبي مدرسة :

- هذا هو الاسم .

- .. لقد جاء من الخارج مع سكرتيره ، أو ممرضه الخاص الذي كان مختصاً في علم الحشرات القشرية ذات الأجنحة ، ولم يستطع العجوز مغادرة فراشه بسبب مرضه الشديد ، مما جعل سكرتيره يخبر الناس بأن الرجل يعاني من

التأثير الذي يصيب الإنسان بعد إصابته بالملاريا . وذات ليلة ترك السكرتير البيت ليشتري دواءً مخدراً من صيدلية مجاورة ، وعند عودته وجد العجوز ميتاً بالقرب من غرفة الطعام ، ثم قيل إن العجوز المسكين سمع صوتاً غريباً في البيت أجبره على مغادرة الفراش ، والتسلّح بمسدس حربي ، وقيل إنه تبادل إطلاق الرصاص مع اللص ، ومات من إصابته بطلقة ممينة في وجهه .

قال كولبرايت :

- هذا صحيح ، فلم يجدوا أية علامات تدل على استخدام القوة ، حتى على الأبواب ، وأذكر أنهم ذهبوا للتحقيق مع البستاني ، لاعتقادهم بأن القاتل قد استعمل باباً جانبياً يقود الى البيت ، وكان جواب البستاني بأنه وضع جرس إنذار بالقرب من الباب لكثرة اللصوص في المنطقة ، وهنا ذهبوا للتحقيق مع السكرتير أو الممرض الخاص الذي قيل إنه هو الذي ارتكب الجريمة ، وإنه ذهب لشراء الدواء لكي يغطي جريمته ويثبت وجوده في مكان بعيد أثناء الاشتباك ... دعني أتذكر ... ماذا حدث بعد ذلك ؟.

تابع سير تشارلز القصة بقوله :

- قبضت الشرطة على لص من أبناء المنطقة استطاع أن يبرهن بأدلة قوية على وجوده بعيداً عن البيت ، وفي الوقت نفسه أعطى الشرطة أسماء لصوص آخرين .

- هل قبضوا على السكرتير أثناء التحقيق ؟

- لا ، فقد أثبت التقرير الطبي أن الموت قد تمّ أثناء غيابه عن البيت .

لم يستطع تسفايغ كبت ثورته مدة طويلة ، فصرخ :

- هذا السكرتير ... هل يعرف أحد أوصافه ؟

- إنه يشبه إلى حد بعيد الرجل الظاهر في الصورة التي تحملها أنت .

- نعم ، ولكن هل هو أجنبي عن البلاد ، وما اسمه ؟

لمس السير جراي بشعر رأسه حين قال :

- لم أستطع معرفة ذلك ، وسوف يتصل بي الرقيب إن وجد شيئاً ، فقد

نسي اسم السكرتير .

فتنهد البروفسور بغيظ ، وغيّر جلسته وهو يقول :

– ما زلنا حيارى لا نعرف شيئاً قط .

خيم الصمت على المكان لفترة قصيرة ، وفجأة سألت السيدة كولبرايت :

– لماذا لا تذهبون إلى مادستون وتسألون أحداً هناك ؟ أنا واثقة من أنكم ستعرفون القصة كاملة منهم .

أجاب جراي بلا مبالاة :

– أنا خارج نطاق وظيفتي الآن ، ولو كنت موظفـاً رسمياً لاستطعت الحصول على معلومـات كثيرة من سجلات الشرطة ، ولأرسلت رجلين إلى مادستون لجمع معلومات جديدة ، ولكن يدي قصيرة ومكتوفة ، ونحن لا نملك أدلة مادية نرتكز عليها في ملاحقة القصة ، فقد ينقلب الأمر إلى ألغاز لا جواب لها في أيدي الشرطة الآن ، ولو كنت في وظيفتي السابقة لاتصلت مبـاشرة بشرطة « الانتربول » ، وربطنا بين قضية مادستون ومانتون ، وحصلنا على معلومات من شرطة زوريخ عن حياة جوستاف نيومن أثناء الحرب ، ولكن نحن رجلان فقط ، أعني من يهتم بالقصة ، كارل وأنا .

قالت السيدة كولبرايت وهي تشير إلى زوجها :

– أنتم ثلاثة رجال الآن .

– هذا رائع وجميل أيضاً .. وحتى لو كنا ثلاثة فستظل علامة الإستفهام الكبرى معلقة .. هل نضحي ببهجة العيد ونلاحق قاتلاً قد لا يوجد هنا ؟

بدت السيدة حزينة حائرة ، وأرادت أن تقول شيئاً لهم :

– ألا يمكنكم الانتظار ، أعني حتى ينتهي العيد ؟ فهو لن يعمل الكثير أثناء العيد .

ساد صمت قطعه تسفايغ حين قال :

– أنا أوافق على هذا الرأي .

قال جراي بهدوء عميق :

– إذا اتصلت باسكتلانديارد الآن ، فسوف يرسلون عدداً من الرجال لتعقب خطوات نيومن من بعيد .

وهنا أعلنت الساعة الحـادية عشرة ، وتمنى تسفايغ لو احتضن فراشه في تلك اللحظات ، فقد منعه الخجل أن يعبر عن أمنيته ، وتثاقلت أهدابـه من الدفء الذي غمر الغرفة ، فشعر بأن لا فائدة من وجوده ، فالحالة مـا زالت مقلقة ، والأجوبة بلا كلمات ، وهو لن يتخلص من شكوكه المؤلمة هذه الليلة .

وأراد أن يقترح العودة إلى البيت ، وهو يطالع الوجوه الصامتة الجالسة أمامه ، وفجأة برق سؤال في عقله ، فسأل كولبرايت :

– أين رأيت صورة المرض الخصوصي هذا ؟

– آه .. دعني أتذكر .

وأمال رأسه إلى الأمام علامة التفكير العميق ، ووضع يـده على مؤخرة رأسه :

– ربما شاهدتها في إحدى الصحف .

نبت الاهتمام على وجه جراي فقال :

– هل نشرت الحوادث في الصحف الكبيرة ؟

– لم تثر ضجة كبيرة حول القصة .. دعني أتذكر .. فقدت الحوادث .

– أية صحف نشرتها ؟

– أمهلني لحظات أرجوك ، كنت أشتري صحيفة « الميل » و « الكرونيكل » في ذلك الوقت ، وكان زميلي يشتري « النيوز » ، ربما كانت واحدة من هـذه الصحف قد نشرت الحوادث ، أو لعل شقيق زوجتي الأولى هو من أطلعني على الصورة .

ونظر جراي إلى ساعته وهو يقول :

– القضية تستحق التجربة على كل حـال ، أرجو الإصغاء إليّ ، فنحن لا نريد أن تطول السهر معنا ، اسمح لي بالاتصال بسيارة أجرة ، وسنتابع العمل من بيتي .

إقترح تسفايغ :

– أو من بيتي أنا .

نهض جراي وهو يقول :

– سأتصل بسيارة أجرة ، وبينما نحن ننتظر ، سأحاول الإتصال بصديق لي يعمل ليلاً في صحيفة « النيوز » .

عندما رجع جراي إلى الغرفة بعد عشر دقائق ، وجد تسفايغ قد غاب في نومه ، والسيدة كولبرايت في المطبخ لترى الطعام ، وزوجها قد ركض إلى الطابق الثاني ليعيد السلام في غرفة الولدين بعد أن نشبت معركة بين الأخ وأخته الصغيرة . ثم سمعوا جرس الباب الخارجي ، فقال جراي :

– حسناً ، هذه هي السيارة .

وذهب ليرى من بالباب ، فانتفض تسفايغ مستيقظاً على كره ، لتسلل الرياح الباردة إليه من خلال الباب المفتوح ، وعاد كولبرايت للسلام ، فودعه تسفايغ دون أن يتذكر اسمه .

قال جراي :

– السيارة بالباب ، أرجوك لا تزعج زوجتك يا ألبرت ، وأرجو لها مساء سعيداً عنا .

– هل وجدت شيئاً عند صحيفة « النيوز » ؟

– لم أجد صديقي هناك ، فاقنعت شخصاً آخر بالبحث في سجلات الصحيفة ، ولسوء الحظ لا أعرف تاريخ الجريمة بالتحديد ، ألم تقع في أوائل تشرين الأول ؟

– أنا أعرف التاريخ ، فمن المؤكد أنها وقعت قبل عيد « مايكلماس »[1] بيوم واحد ، لأن شقيق زوجتي اعتاد أن يرسل لها القهوان « مايكلماس » .

وبحث في درج مكتبه ، حتى وجد بطاقة بريدية ، ثم قال :

– حدثت الجريمة يوم ٢٨ تشرين الأول ، أو قريباً من ذلك التاريخ .

– هـذا رائع يا ألبرت ، أهنئك على ذاكرتك ، ليتني كنت أعرف ذلك

١ – عيد الملك ميخائيل الذي يأتي في تشرين الأول .

حين اتصلت بالصحيفة ، لا بأس فسأتصل ثانية من بيتي .

خرجا الى الليل الجليدي ، ليرتمي تسفايغ فوق مقعد السيارة وهو يرتعش ، ثم أغمض عينيه وراح يحصي الأقداح التي شربها منذ بداية هذا المساء ؛ وبدون تفكير أعطى السائق عنوان بيته حين سأله ، وحسد جراي على حيويته الشابة .

صفق جراي الباب ودارت دواليب السيارة لترسم خطين على الجليد ، واستدار السائق ليسأل :

– في أية ناحية من شارع « كلارج » يا سيدي ؟

فأجاب جراي :

– ليس شارع « كلارج » ...

ثم التفت الى صديقه وتابع :

– إلا إذا أردت ...

فشعر تسفايغ بحيرة شلّت حركة لسانه ، وأخيراً استطاع أن يقول :

– إنني متعب يا تشارلز ، ولكن إن أردتني في شيء ...

قال جراي للسائق :

– منطقة « نايتسبردج » وراء قصر « ويلنتون » بالضبط . ثم تابع الحديث مع صديقه :

– علينا أن نذهب الى بيتي أولاً ، فقد نجد بعض المعلومات في انتظارنا من صحيفة « النيوز » ، رغم أنني أشك في وجودها ، فهم كسالى .

قال البروفسور وهو يفرك وجهه المتعب البارد :

– كما تريد يا تشارلز ، فهذا أقل ما أستطيع عمله في ظروف كهذه .

– قد يرسل صديقي سدهوبكتز صورة للسكرتير ، وإذا فعل فأنت من سيعطي الحكم على الصورة ، فأنت تعرف السبب يا كارل ، وإذا كانت لصديقك نيومن نوايا يدعوني للاتصال بمساعد رئيس الشرطة لملاحقة القاتل ...

– طبعاً يا تشارلز فأنا أعرف هذا .

إن مجرد التفكير بأخذ سيارة ثانية إلى شارع فليت – شارع الصحافة –

قد عكر قواه وأبعد إيمانه بصحة القضية ، وحيّره الحماس الذي يبديه جراي بجوستاف . كانت غرفة الطعام في بيت جراي خالية ، والنار في غرفة الجلوس تموت رويداً رويداً ، فقال جراي :

– لقد تعبت أنا لتنام .

وبسرعة مذهلة وضع بعض الحطب في المدفأة واستعمل المنفاخ لإشعال النار، وجلس تسفايغ يراقب العملية بإعجاب كطفل صغير . وتهلل وجهه بالفرح حين احترقت قطع الحطب الجاف ، مدركاً في الوقت ذاته أن إهتمامه هذا هو نتيجة لتعبه المضني ، ثم استلقى على مقعده المريح مغمضاً عينيه ومحاولاً أن يضلل جراي ليتركه ينام في أمان ، فقد كان يستطيع رؤية النار من خلال جفونه المغلقة .

ألقى صاحب البيت مزيداً من الحطب بهدوء تام كيلا يزعج صديقه النائم ، وقاد تسفايغ ادعاؤه النوم إلى حالة لا شعورية ، ثم غط في نوم عميق ، وبقي جزء من عقله يتوقع الإستيقاظ .

وحلم بأنه يلعب مع جوستاف – الذي كان في السابعة عشرة – لعبة الشطرنج التي سقطت بطريقة مبهمة الى أرض ذات مربعات كبيرة ، وإنقلب هو وجوستاف إلى حجارة شطرنج يتحدى الواحد منها الآخر ، ولم يكن تسفايغ حجر شطرنج فقط ، بل كان متفرجاً يراقب سير المباراة ، ولم تكن اللوحة أرض غرفة ، بل كانت رقعة بيضاوية طويلة بلا جدران، تحدّها طبقات ضبابية صافية كأنها زجاج رمادي؛ وقد لاحظ تسفايغ ، وهو يراقب الحجارة، أن طبقات الضباب طغت على الأرض واللوحة دون عائق يوقف طغيانها ، وأنها تسبح في أعاصير هوجاء ، وأحياناً تبدو وكأنها تتراجع إلى الخلف .

وعندما فتح تسفايغ عينيه تخيل للحظة أن جراي الجالس على كرسي مقابل ، هو جوستاف تيومن ، وحين إبتسم له صاحب البيت ، أدرك أنه يعيش اليقظة الآن . قال جراي :

– لا جديد يا صديقي ، هل تريدني أن أطلب سيارة أجرة لك ؟

حرّك تسفايغ رأسه محدقاً في النار ، ثم في ساعته ؛ لقد نام نصف ساعة ، منعه خجله فيها أن يخبر صديقه برغبته الجارفة للنوم، فالساعة تجاوزت منتصف الليل ، والتعب يلف جسده، والحلم الغريب ما زال في عقله ؛ قد يضحك جراي عندما يخبره بحلمه وهو يقول : « أنت جعلت من نفسك خصماً لتيومن بكل بساطة وأنت تلعب الشطرنج. » ولكن هذا لا أهمية له . إن التأمل في جدران الضباب هو الذي حفر في نفسه ، هناك لا شيء ، لا معنى ولا قيم ، . وهنا قوانين وانظمة المباراة التي جرت فوق بقعة صغيرة من الطبيعة المحاطة بضباب غريب . . . و . .

ودوى رنين الهاتف فهبّ جراي متمتماً « آه وأخيراً » ، ثم التقط السماعة وأعلن عن رقم هاتفه . فأصغى تسفايغ بإهتمام إلى الحديث الهاتفي « سيدي . . هه . . نعم . . ليس سيدي . . طبعاً أنا أذكرك . . روبن دافيد . . ماذا جرى ؟ هكذا . . أنا آسف لهذا الإزعاج ولكن الأمر في غاية الأهمية . . إذا كان في الأمر قصة فأخبرني بها أولاً . . نعم . . ماذا تريدنا أن نفعل ؟ . . نأتي اليك . . أنستطيع هذا ؟ . . بالطبع . . ولكن متى ؟ . . هل أنت متأكد بأن هذا لن يسبب إزعاجاً لك ؟ لا . هذا جميل منك . »

أعاد السماعة لينهي المخابرة ، وقال دون أن ينظر إلى تسفايغ :

– سيأتي حالاً ومعه الصورة .

فسرّ تسفايغ بهذا ، فلن يضطر للذهاب إلى شارع « فليت » ، ثم غمغم :

– هذا مدهش يا تشارلز ، كيف أقنعته ؟

– أبداً ، قال إنه سيمر على البيت لأنه يسكن قريباً من هنا ، وقال إن إخراج أي شيء من السجلات ، يعتبر خرقاً للأنظمة الصحفية ؛ وأنا أعتقد أنه وراء قصة مشوقة ليكتب عنها ويسجل نصراً صحفياً .

– سيحمل الصورة معه ، أليس كذلك ؟

– نعم ، فقد قال بأنه لديه صورة واضحة للمرض، واسمه –بهذه المناسبة– برنشتاين .

فهاجت انفعالات تسفايغ ، فعما قريب ستكون الصورة أمام عينيه ليعطي حكمه ، وسوف تتلاشى كل الأوهام عند رؤية الصورة ، التي ستحدّد وضع جوستاف القاتل ، أو غير القاتل ؛ ثم تخيل نفسه يدقق في صورة لجوستاف من صحيفة يومية ، فشعر بالماء البارد يغسل جسده الدافىء . وسأل صديقه بصوت مرتعش :

– تشارلز .. افرض أن الصورة كانت لجوستاف فماذا ستفعل في هذه الحالة؟

– سأتصل بالشرطة على الفور ، مطلعاً إياهم على جميع المعلومات ، وتاركاً لهم مطاردة القاتل ، فأنا أعتقد دون شك بأن نيومن هو القاتل . ماذا تقول أنت ؟

فأجاب تسفايغ بصوت خال من التعبير :

– بالطبع .

ثم تخيل نفسه يقف في اسكتلانديارد ليعيد القصة ذاتها مرة جديدة ..

– ما رأيك ببعض الشراب ؟

– أشكرك أيها الصديق ، أفضل قدحاً كبيراً من البراندي .

– فكرة رائعة ، سأشرب براندي أيضاً ، ولكن علينا أن نتفق على قصة نقولها للصحفي القادم .

– هل هذا مهم ؟

– لن ينشر شيئاً حتى نسمح له بهذا ، أما إذا تركناه يتعقب القصة بنفسه ، فسيكون الموقف محرجاً للغاية ، وقد يختفي نيومن في مكان ما .

– إذن لنقل له ...

وجاء رنين الجرس الخارجي ليقطع حديث تسفايغ ، فقال جراي :

– إن سرعته لمذهلة .

بعد لحظات عاد جراي بصحبة شاب علق الثلج على معطفه الثقيل ، وقال صاحب البيت مقدماً له صديقه البروفسور :

– رون دافيد ، أقدّم لك البروفسور كارل تسفايغ .

– كيف أنت يا سيدي ، أنا أعرف وجهك بالطبع .

– أعطني معطفك يا رون ، فستشرب قدحاً من البراندي معنا ، جرّب هذا النوع ، إنه برتقالي من نوع خاص .

كان وجهه طبيعياً منتفخاً بعض الشيء، تعلو لسانه لعثمة خفيفة حين يتكلم، وقد قال بلهجة شاكرة :

– أشكرك يا سير تشارلز ، هل لي بقليل من هذا البراندي ؟

– نحن من يشكرك لتحملك كل هذه المشقة في ليلة العيد، قل لي هل أكلت؟ أترغب في بعض السندويتش ؟

– لا ، شكراً فأنا في طريقي إلى البيت ، لأن زوجتي في انتظاري .

– أين كنت حتى هذه الساعة ؟

– أتتبع قضية قتيل النهر في سانت ألبان، فقد اعترف الزوج منذ ساعات.

– هل فعل ؟ إذاً كان الزوج ..

رشف دافيد الخجول شيئاً من البراندي وهو مغلق العينين ، ثم قال بعد أن اندفقت حيويته للحديث :

– آه ، هذا ما أحب ، هذا هو البراندي الجيّد . واقترب من النار مادّاً يديه ، فتنحنح تسفايغ وهو يقول له :

– آسف أيها الصديق ، ولكن الصورة ...

– أوه ، أعذرني فهي في جيب معطفي .

ارتعش تسفايغ وهو يتناول الغلاف ، فقد أربكته الرعشة ، وتوتر الجو الدافىء في الغرفة ، فصبّ جراي لنفسه مزيداً من البراندي وهو يقول بصوت طبيعي :

– هل زوّدك ، سيدي ، بمعلومات عن هذه القضية ؟

– أقول الصدق أنني لم أصغ جيداً ، فقد شعرت بالبرد والرطوبة حين ...

تناول غلافاً أبيض كُتب عليه « قضية باليكين ، ٢٨ أيلول ١٩٣٨ » .

وغمر شعور بالارتياح تسفايغ وهو يرى جراي يفضّ محتويات الغلاف ليدقّق

النظر في الصورة ، فلم يستطع صبراً ، حتى أنه نهض من مكانه وأطل بعينيه من وراء كتف جراي الذي قال :

– هل هذا صديقك جوستاف نيومن ؟

فدقّق تسفايغ في الوجه الملتحي ، الذي صُوّر جانبياً ، غير مصدّق عينيه ، شاعراً بشيء مبهم لم يقدر تفسيره ، ثم قال بإرتباك :

– لا ، لم أعرفه بلحية ، فلم تكن له لحية .

وأعاد النظر من جديد ، وبيأس مرتبك ، خائفاً أن يدقّق كثيراً ، أو يقول شيئاً ، وشعر براحة كبيرة تنبع من داخله حين قال جراي :

– من الواضح أنه أطلق لحيته لهذا السبب ، السؤال الآن ، هل هذه الصورة تشبهه ، وهل يمكنك التأكيد ؟

كانت الصورة واضحة جداً رغم اصفرار أطراف الجريدة العتيقة التي جعلته يتخيل فيها صورة لإنسان هزيل مضحك ، يعمل في سيرك متحرك ، ويخاف من النظر مباشرة إلى آلة التصوير ، ولكي يخفي عليه زيْن رأسه بقبعة ورقبة مضحكة . واتهم تسفايغ نفسه بالجبن لأنه لا يريد التعرّف على الوجه ، ولأنه يرغب في تجنب ما يعقب ذلك من تعقيدات حتمية ، لذا شعر بالضيق وهو يعترف بأنه لم يشاهد مثل هذا الوجه في كل حياته ، والصورة لا تعني شيئاً له . فاقترح جراي :

– لنقارنها بالصورة التي معك لنيومن .

وضع الاثنتين متجاورتين ثم همس جراي :

– قد يكون الشخص نفسه .

ثم التفت إلى تسفايغ ليسأل :

– ماذا تقول يا كارل ؟

– لا أدري ، إنني لا أعتقد أنه هو .. كما لا أعتقد انه ليس هو .. لا أستطيع الحكم .

إقترب رون دافيد بخجل وهو يقول :

– هل ثمة مانع .. أم أن القضية خاصة جداً ؟

– لا مانع ابداً ، فأنت من حمل الصورة الينا .

حدّق الصحفي في الصورتين لمدة قصيرة ، ليقول :

– قد أقول انها لرجل واحد مع الإحتفاظ بأنني قد أكون مخطئاً .

ثم أخذ الغلاف ليرى ما في داخله ، ووجد شيئاً ما . كانت قصاصة ورق مطوية بعناية ، تناولها جراي بلهفة ، فقد كانت تمثل رجلاً عجوزاً أصلع الرأس كتب عليها وأخذت هذه الصورة قبل مقتل والتر بانسكين بعدة أيام فقط ، أما تاريخها فيرجع إلى ما بعد الحادث بعدة أيام حين نشرت الصحيفة قصته ، كما كتب فيها عن المجموعة الكبيرة من الحشرات النادرة التي قدّرت قيمتها بملايين الجنيهات ، والتي كان يجمعها بانسكين ، وقد تساءلت الصحيفة بذكاء فيما لو كان السارق أو القاتل يطمع في الحصول على المجموعة الثمينة ، وأشارت الصحيفة أيضاً الى ان العجوز يملك أشياء نادرة وغالية الثمن في بيته .

قال دافيد : – إنه يبدو كالميت في هذه الصورة .

قد يكون ما قاله صحيحاً ، وذلك بسبب الطباعة السيئة التي صبغت الوجه بالموت . واحتار تسفايغ في تفسير شعوره ، فلماذا لا يصرف عينيه بعيداً عن الصورة ؟ أهي مخيلته التعبة التي جعلت من هذا الوجه ضحية لميته ؟

قال دافيد من جديد :

– ما هي القصة ، ام أنك تعتقد بأنه من المستحسن أن لا أطلع عليها ؟

– لا . لا ، إذا كان هذا الرجل وذاك شخصاً واحداً فأغلب الظن انه القاتل .

– وإذا لم يكن كذلك ؟

– إذن فأوهامنا تنخفض .

– أي نوع من القتلة هو ؟

– ذلك النوع الذي يلتقط العجّز من الرجال ليحصل على أموالهم .

– تبدو لي قصة مثيرة جداً .

– كن مطمئناً ، فإذا تأكدنا من شيء فالقصة لك لتكتب عنها .

وأخذ تسفايغ في قراءة المقـــال الذي يصف موت والتربانسكين ، الذي احتاروا له عنواناً صحفياً مثيراً، كُتب بالخط العريض: «مقتل رجل عجوز في صراع دموي مع لص »؛ وقد احتوى المقال على تفاصيل صغيرة لم تكن معروفة له ، فبانسكين ورث بيتاً كبيراً في مادستون من أخيه الذي مات أثنـاء وجود بانسكين في أميركا الجنوبية ، وقد عاد من هناك ليستقرّ في بيت أخيه ويتـابع جمع الحشرات النادرة والتحف الغالية الثمن ، وكان جراي يلتهم المقـال بعينيه أيضاً ، وأخيراً قال تسفايغ :

– إن كلمات المقـــال توحي إليّ بأن برنشتاين كان سكرتيراً أكثر منه مرضاً .

فأجاب جراي : – بعد انتهاء عطلة العيد ، سأذهب إلى مادستون لأحصل على معلومات جديدة ، فأنا أريد معرفة جنسية السكرتير .

قال تسفايغ : – أريدك أن تعرف أن جوستاف يجيد الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنكليزية ويتكلم هذه اللغات كواحد من أهلها ، ويصعب معرفة جنسيته عندما يتحدث .

– هذه ملاحظة مهمة ،ولكن رجال الشرطة لا بد انهم قد سألوا عن اوراق إثبات شخصيته وجواز سفره وكل هذه الأشياء .

قال دافيذ : – حسناً ، سأذهب الآن ، ويجب أن آخذ هذه القصاصات معي إن سمحتا .

– بكل سرور لأنني لا أرى ضرورة في الإحتفاظ بها ، وأنا أتساءل بهذه المناسبة عما إذا كنت تعرف الدوافع الحقيقية للقصة .

– لا أدري يا سيدي فقد تكون مضللة ثم هناك ... آسف ، فقد لا تكون لها دوافع حقيقية .

ثم قال وهو يرتدي معطفه :

– بروفسور ، هل يمكنني إيصالك الى أي مكان ؟

– لا ، أشكرك أيها الصديق فأنا أعيش على بعد مئة ياردة فقط .

ثم استأذن تسفايغ بمغادرة البيت قائلاً لصديقه :

– لا دليل لدينا ، أخاف أنني قد أضعت ليلتك .

– تراودني فكرة غريبة جداً ؛ فلقد رأيت صورة نيومن من قبل ، كما رآها كولبرايت الذي قـــال حين رأى الصورة « هي صورة السكرتير في قضيـــة مادستون » .

– هذا صحيح ، فأنا أذكر هذا .

– هل تعرف أن لكولبرايت ذاكرة عجيبة في حفظ الوجوه ؟ لقد كان من أقدر الرجال في معرفة وجوه المجرمين ، وكثيراً ما تعرّف على مجرمين من صور رديئة أو من خطوط تشير الى أوصافهم ، فإذا رأى صورة نيومن بلحيـــة أو بلا لحية فسوف يعرفها بسرعة .

– هل هذا ممكن ؟

– نعم . إذا لاحظت أن الصورة المنشورة في الجريدة قد أخذت من زاوية سيئة جداً ، واللحية قد ظهرت بارزة من الأسفل ، ومن الواضح أن المصور قـد انحنى حين التقطها ولو أخذت من أعلى لما لاحظها أحد . ماذا تقول أنت ؟

كانت كلمات جراي تتدفق من بين شفتيه كنبع صاخب من أصوات عديدة لم يلاحقها صديقه المتعب الذي كان يفكر « أنا طاعن في السّن ، متعب ، فات موعد نومي ، لماذا لا أذهب الآن ؟ » وقال :

– عليّ أن أذهب لأنام يا تشارلز .

– سأرافقك الى البيت ، أم أنك تفضّل سيارة أجرة ؟

– لا ، فالسير ليلاً ينعش نفسي .

انقطعت الثلوج في طبقات الجو العليا ، واحتفظ الهواء بصقيعه ، حـــين سار جراي يرافق صديقه رغم الاحتجاج ، الصامت من البروفسور . وقد كانت الحادثة شبه مستحيلة لبرودة الجو . وغرزت أقدامهما في أكوام من الجليد تاركة آثاراً بشرية ، وبدت منطقة « الهايدبارك » رائعة الجمـــال باتساعها الفسيح وبعزلتها عن العمران ، وجعلت الحنين يراود تسفايغ ليذكره ببوابة «برندبرغ»

في برلين . ثم بدأ يحلم بفراشه الدافىء وبالغطاء الكهربائي . وفجأة تذكر زيارته لأخته القاطنة في منطقة « هامستيد » كما وعد من قبل ، فلعن الأيام لأنه سوف يستيقظ مبكراً ، سينام حتى الحادية عشرة صباحاً ، ثم تذكر بأن جراي يسير بجانبه ، فانتفض وهو يقول باسماً :

– أيها العزيز تشارلز . أنا أصرّ على أن أقطع هذه المسافة القصيرة وحدي، كن مطمئناً ، فلن أقع وُتكسر عنقي، شكراً على السهرة الممتعة ، وأرجوك أن تشكر زوجتك عني ، وإن أردت الإتصال بي غداً فسأكون عند أختي في « هامستيد » وسوف أعود إلى بيتي غداً ليلاً .

– أتمنى لك عيداً سعيداً ، سأحاول الإتصال بشرطة مادستون .

أعلنت الساعة الواحدة وهو يدخل شقته التي تركها منذ أقل من ست ساعات فقط ، ليذهب الى النادي ، وبدا له ذلك وقتاً سحيقاً في البعد ، وكان عليه أن يحضر زجاجة الماء الساخن لوضعها في فراشه البارد ، فهذه هي عمليته الاولى ، ثم بدأ بخلع معطفه وسترته وعلقها في خزانة الملابس الموجودة في غرفة النوم . وتذكر الصورة فجأة ، فأخذها من الجيب الداخلي لدراستها دراسة وافية . أما مجموعة الصور ، فكانت ما تزال على الطاولة ، فأخذها ودقق النظر من جديد في صور نيومن ، ثم رجع إلى الصفحات الأولى ليحدّق في صورة لجوستاف عندما كان في السادسة من عمره : كان يتربع فوق ركبة أمه التي كان يشبهها تمام الشبه : العيون سوداء ، وجهان رقيقان يحدقان في آلة التصوير ، ما زال تسفايغ يذكرها جيداً ، فقد قابلها عدة مرات في آخر سنة من حياتها ، وجاءت صورتها واضحة في مخيلته . كانت إمرأة تحب أغاني « هوجو وروبرت فرنز » . فكيف تنجب ولداً ليصبح مجرماً ؟؟ كيف ؟ .

أعاد التفكير في صورة السكرتير الملتحي ثم قارنها بوجه الطفل الجادّ ليتساءل فجأة :

– ما الذي جعله يتلبه في جوستاف كقاتل لعدّة ضحايا ؟

ثم وضع مجموعة الصور تحت إبطه ، ذاهباً بها إلى غرفة نومه . وكان الندى

المتراكم على النافذة قد تجمّد وتحوّل إلى صقيع ، فحكّه بظفره ، وتطلع إلى غرفته بشوق كبير ، فقد كانت دافئة تمر بها أنابيب المياه الساخنة الآتية من الحمام ، وكان يلذ له أن يغوص في فراشه مستمتعاً بحلاوة العودة إلى غرفته مرة ثانية .

لم يقرأ قبل إطفاء النور كعادته ، بل جلس يتقلّب في مجموعة الصور عن صورة ما لم يكن ليعرفها هو ، وبدأت الصورة تقابله ، فهذه صورة قديمة له وهو في ملابس الميدان ، وكاد أن لا يصدق بأنه رجل عجوز ليس أمامه إلا عشر سنين للحياة . لقد مرت أربعون سنة وكأنها حلم خاطف ، مخلفة وراءها القليل من الذكريات ومن الإنتاج العقلي أيضاً ، وكان ذلك الحائط الضبابي غامضاً كبداية ، وفكر : « غريب هذا ، كيف تبدّل إحساسي بالحقيقة » . وقلّب صفحات المجموعة دون اهتمام برؤية أية صورة ، وانزلقت المجموعة من بين يديه فوقعت مفتوحة على الصفحة الأخيرة ، وكان ثمة عدة جيوب ورقية تحتوي على صور متجمدة الأطراف ، وصورة أخرى تبدو مغرية للإحتفاظ بها ، ولكنها غير مهمة أيضاً ، وظهرت صورة لتجتذب انتباهه ، إنها تجمع اثني عشر رجلاً جالسين حول مائدة العشاء في لباس سهرة ، وقد وقف الأب نيومن بعيداً عن آلة التصوير فصعبت رؤيته . هو يذكر أن الصورة أهديت إليه من قبل الأب نيومن ، ولكنه لم يذكر المناسبة ، ولم يظهر في الصورة أيضاً ، قد تكون دعوة عشاء مدنية ، أو اجتماعاً لجمعية الجرّاحين ، ولم يذكر الوجوه الموجودة في الصورة ، ومع هذا ، فقد لطمه وجه مألوف لديه جعله يحدّق فيه كالأبله ، إنه الجالس بجانب الأب نيومن ، وقد اختفت هذه الألفة حين دقق النظر مرة ثانية مدركاً رداءة الصورة التي أبعدها عن عينيه ، ولكنها عادت لتستقر في ذاكرته ، فالرجل متوسط العمر أصلع ، يستطيع أي إنسان أن يحدّد عمره من ضعف جفنيه ، ومن الآثار الزمنية البادية في أسفل العينين ، وكان البروفسور تسفايغ يؤمن بنظرية تقول : إن الذاكرة ترتكز على قوة كهربائية يدفعها جدار الدماغ ، وإذا ما توارت الذكريات ، فإنها تحتاج إلى مجهود ضخم لإعادتها إلى

الوجود من جديد .

لهذا كله صرخ تسفايغ كمجنون سجين: «إن بطارية الدماغ الخرقاء فارغة». ثم أطفأ المصباح الواقع بجانب سريره ، معتبراً أن الأمر لا يستحق الإهتمام ، فقد هدّه التعب .

كاد أن يستسلم للنوم ، ولكن وخزته شوكة حادّة ، نهض وجلس على حافة السرير ثم أضاء المصباح الكهربائي حين تعلق الوجه الآخر الذي أراد بكل قوة أن يفرض وجوده في الصورة ، وفي ذاكرته ، ففتح المجموعة من جديد ، ليبرز صاحب الوجه بدقة متناهية : لقد رآه منذ ساعة واحدة في الصورة التي نشرتها الصحيفة؛ إنه وجه الرجل العجوز الذي قتل في «مادستون» و«الترابانسكين». وقرّبها من الضوء ، ولكنه ما زال غير واثق، فإذا كان هذا الرجل هو من قُتل في مادستون فعليه أن يتصل بصديقه جراي حالاً ليخبره بهذا ، ولكن كيف يتأكد من ذلك ؟ إنه متعب عجوز يريد النوم ، والليلة باردة يلعب فيها هواء صقيعي ، وغرفة نومه دافئة كليلة صيف ، ولا يدري كيف أقنع نفسه بأن صور الجرائد لا يُعتمد عليها ، فالصورة التي رآها كانت قديمة ملطخة مضى عليها خمس وعشرون سنة . أضف إلى ذلك أن الصحفي ينام في بيته الآن ، والقصاصات تنام في جيب معطفه الداخلي ، مع أنه لم يعتبر الصحفي كدليل يوثق به ، كما أن إيقاظ جراي في مثل هذه الساعة سوف يزعجه حتماً .

ألقى بنفسه داخل الأغطية الدافئة وأطفأ النور وهو يفكر بصوت منخفض. « هذا تافه جداً ، وأنا أريد النوم . » ثم تحقق من أن النوم قد فرّ من عينيه ، فاستعاض عن ذلك بالتحديق الطويل في الظلام والتفكير : « إذن فجوستاف هو القاتل »، وتعجّب من تفكيره الذي قاده الى الإشارة التي هي قرينة البهجة، فتساءل : « لماذا يغمرني السرور إذا كان جوستاف قاتلاً ؟ أم أن تقدمي في السّن يجعلني أرحب بالأشياء المثيرة وأتعلق بها ؟؟ لا ، لا . »

وقاده تفكيره إلى جرائم القتل القليلة التي اختبرها بنفسه ، إنه ما زال يذكر الرجل المعتوه الذي قتل زوجته في كاليفورنيا ثم أحرق البيت كله ، لأنه

أصيب بالهستيريا ، وما زال يذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه مع الأب نيومن لفحص « هارمان » القصّاب في هانوفر الذي أظلم قلبه حزناً أسود لفساد الإنسان ومكره ، تماماً كما حدث لكورتن . فكل القتلة ... وغاص في عقله ليجد الكلمة المناسبة ، « فكل القتلة ضحايا جرائمهم » من قال ذلك ؟ نيومن الأب ؟ لا ! إنه جوستاف حين تحدثا معاً في آخر ليلة له ، في ألمانيا ، لهذا صبغ تسفايغ جوستاف بلون ملوث سرد قصته على جراي وزوجته ؛ فقد خيّل إليه أن جوستاف يمشي في الغرفة بكل وضوح، ففتح عينيه ليحدّق فيه ويراه ، حتى أن صوته عاد إليه بوضوح ليردّد من جديد : « إن قاتلاً مثل كورتن هو ضحية جريمته ، وفظاعة العمل تعتمد على اختلاط أمر القاتل وضحيته ، ولكن هل يمكنك أن تتصور قاتلاً لا ينتمي الى عمله ؟ أليس هذا هو التعبير النهائي للإرادة ؟ اقتل دون أن تورط نفسك ! »

من العسير أن يتصور جوستاف قاتلاً ، أو قادراً على ارتكاب جريمة ، وذلك لسبب بسيط ،هو تعبيره الصادق عن خلجات نفسه وتوازعها بدقة متناهية تشدّ الأذن والعين اليه حين يتحدث . ان رجلاً وهب حياته لقتل الرجال الطاعنين ، المرضى ، من اجل نهب أموالهم ، يجب ان يكون معتوهاً وضحية . فهل مصدر بهجة تسفايغ وفرحته ، إعتقاده أن جوستاف احد الفاشلين ، ام أنه نوع من الأمل ؟

ومالت في عقل المتعب فكرة الإتصال بجراي ، وحملته ذكرياته مع نيومن الأب ، بعيداً عن حاضره حتى تخدّر إحساسه بالطمأنينة ونام ، فرأى في نومه أنه يقضي إجازة عام ١٩٣٧ في برلين ، أيام كانت برلين ، برلين ، في يوم تزدحم الغيوم في سقفه ، يوم بارد من أيام فبراير ؛ وعثر مع نيومن الأب على مقهى موبوء تفوح منه رائحة الخمرة ، وهناك تحدثا عن المستقبل المجهول وعن مصير ألمانيا بعد احراز النصر وعن الدور المقبل الذي سيلعبانه؛ وشعرا بالتفاؤل والإحساس بالظفر القريب ، فسوف يصبح أعظم مفكري ألمانيا . أما نيومن فقد أفاض بالحديث عن نظرياته وتجاربه عن علاقة قوة الإرادة بالدماغ التي ستحدث ثورة

في علم النفس ، وحين قذف نيومن بآخر قطرات قدحه ، قال « إنه لعجيب حقاً ان نلتقي هنا ، ولكن عظماء العصر يلتقون ويأتون معاً . . » .

تذكر وهو نصف نائم أنه مضى على ذلك أربعون سنة ، فهزّه شعور عنيف بالضياع ، حتى أنه لم يعد يحتمله ، واختفى هذا الشعور حين وجد نفسه ممدّداً على السرير ، ففكر : « إنه لغريب ، كيف يكون الحزن في الحياة أسهل منه في الحلم » وفكر مرة ثانية في جوستاف نيومن ، ولأول مرة رأى كل شيء على ضوء علم الرئيات . كيف تطاوعه نفسه بدحرجته إلى الموت ؟ وكيف انقلبت القصة لتصبح في يد جراي ؟؟ فقد خاف أن يصدّق منذ خمس ساعات فقط بأن جوستاف نيومن ، هو القاتل . اما الآن فقد عرف السبب الذي منعه من الإتصال بجراي حين اكتشف أن صورة الرجل تشبه « والتر بالسكين » . فلم يكن تعباً أو كسلاً ؟ ، أو خائفاً ايضاً ، ولكنه الإخلاص الغريزي نحو عائلة نيومن .

شعر بالأسف في هذه اللحظة ، الأسف على عدم زحفه من السيارة والإقتراب من نيومن بالقرب من فندق « تشسهام » ، الأسف على سرد القصة لجراي وزوجته ، ولكنه لو لم يتحدث إلى جراي لما اكتشف بأن جوستاف . . . قذف عقله بالكلمة قبل اكتمال الجملة ، غير أنه لم يتأكد بعد ، من أنه قاتل ، او أنه شاهده بالقرب من فندق « تشسهام » ، فكل الأشياء تعوم في بحر من ضباب ، سلسلة الأدلة كانت سلسلة من ورق . وفجأة تأكد من شيء واحد ، هو أن يبدير الإتصال بجوستاف نيومن ، وعند ذلك ؟ وعند ذلك هبط عليه نوم فجائي لم يمهله لحظة واحدة ، ولم يستيقظ الا على ضوء النهار المغبر يتسلل من خلال المربعات الزجاجية المغطاة بالجليد .

وطُرق الباب فلم يستطع النهوض ليصرخ « تفضل » . واذا هو بجراي يندفع اليه من غير ان يهتم بنظرات الخادم المذهول بهذه الزيارة الصباحية وقال :

– صباح الخير يا كارل ، هل نمت جيداً ؟

– على أحسن ما يرام .

وبسرعة اتجه تفكيره الأول نحو مجموعة الصور الملقاة على الطاولة المجاورة

السرير ، دون أن يستطيع إبعاده عن عيني جراي ، فتابع حديثه للتضليل :

– كم الساعة الآن ؟

– بعد الحادية عشرة والنصف ، جئت لتوي من فندق « تشسهام » .

وبلا إرادة إعتدل تسفايغ في جلسته هارشاً مؤخرة ذقنه ، ثم قال :

– ما هي الأخبار ؟

– لا جديد مع الأسف ، فقد تحدثت إلى البواب الذي قال بأنه لا يعرف السائق ولم يقرأ رقم السيارة .

اعترى تسفايغ الخجل لبقائه في السرير ، فصبّ القهوة في الفنجانين ، ثم وضع معطفه الليلي وأشعل نار الغاز ، فقال جراي :

– لماذا لا ننتقل إلى الغرفة المجاورة ؟

أجاب تسفايغ وهو يفرك عينيه :

– لم أستيقظ بعد .

ثم اختطف مجموعة الصور ليتابع حديثه :

– الأفضل أن نفعل ما قلت . . .

فقال جراي حين لمح المجموعة في يد صديقه :

– هل من مزيد لصور جوستاف ؟

– القليل فقط .

– ثم فكّر : « لا جدوى من الكذب » .

وأخذ جراي المجموعة وهو يقول :

– هل لي أن أرى ؟

قال تسفايغ وهو يمزج قهوته بالحليب والسكر :

– لا شيء فيها يدفعنا خطوات للتعرف عليه .

وحدّق في النار المستعرة ، ثم راقب صديقه وهو يطالع الصور . وسمع جراي يقول :

– عندي خبر مهم ، لا أعتقد أن نيومن هو السكرتير المتحي في قضية

مادستون .

– ماذا تقول ؟ وكيف توصلت الى هذه النتيجة ؟

– اتصلت هاتفياً بالرجل الذي حقق في القضية الذي قـال بأن برنشتاين اسكتلندي بالرغم من أن اسمه غير اسكتلندي .

– هل تأكد من هذا ؟

– يمكنني أخذ أقواله ، فنيومن لا يستطيع التحدث بلهجة اسكتلندية لأنه لم يكن قديراً في اللهجات ، أليس كذلك ؟

أجاب تسفايغ بهدوء :

– كان لغوياً قديراً ، يمتاز بالتحدث بجميع اللهجات المشتقة من اللغات التي يعرفها .

– قد لا يكون ذلك القدير ، فكثيراً مـا سمعت عن أجانب يتحدثون الإنكليزية بطلاقة ولكنني لم أقابل أحداً يتكلمها كأهلها ، خذ لغتك الإنكليزية مثلاً ، إنها سليمة من الناحية النحوية ولكن لهجتك تأكل الكلمات .

اهتم تسفايغ للمناقشة ، وانتفخ تيهاً بلغته الإنكليزية ومقدرته الفائقة فيها ، فقال :

– تعبت كثيراً كي لا ألفظ الـ W[1] مثل V و V مثل F .

– سأحاول التفصيل ، فالانكليزي يتكلم لغته ويرصفها بجانب بعضها ، الكلمات تخرج لطيفة ملتصقة كعقد ، أما الأجنبي فيتكلم الإنكليزية بطريقة تفصل بين نهاية الكلمة الأولى والثانية ، ولا يمكن التغلب على لهجته الأصليه .. أوه يا كارل انني لا أستطيع الإيضاح تماماً .

– لا بأس ، أنا أوافقك من ناحية جوستاف ، ولكن أود أن أبين لـك نقطة واحدة : إن اللهجة الاسكتلندية قريبة جداً من الألمانية والايطالية .

– آ . هل هي كذلك ؟

– نعم ، فمرة سمعت اسطوانة للمغني « كاروزو » كان يغني فيها بالانكليزية ،

١ – W بالألمانية تلفظ كحرف V بالانكليزية و V بالألمانية تلفظ كحرف F بالانكليزية .

ومن لم يعرف فسيفكر بأنه اسكتلندي .

بدأ جراي يحرّك السكر في قهوته ، بينما كان تسفايغ يتعجّب من أمره ، فكيف ناقش صديقه بهذه الطريقة ، ولماذا تكلم معه عـن اللهجات واللغات . وسمع جراي يسأل :

– وهل كان جوستاف لغوياً قديراً ؟

علت وجه البروفسور إبتسامة غامضة وأجاب :

– لا .

– هذا رائع فـلم يكن جوستاف نيومن سكرتيراً وقـد ضلّلنا صديقي كولبرايت حين أعطاني هذا الأثر لنتتبعه .

– وماذا عن أوراق اثبات الشخصية ، هل فحصها رجال الشرطة ؟

– لقد أطلقوا سراح برنشتاين بعد مـدة قصيرة ، ولم يسأله أحد عـن أوراقه ، والحق يقال أن حجزه عندهم كان لمساعدة الشرطة في إجراءات التحقيق ، ولم يقبض عليه من الناحية القانونية مطلقاً ، فقد علمت من الرجل المسؤول ، أدورن ستيفنس ، بأن الحادثة كانت عفوية ، فقد إنطلقت الرصاصة من مسدسه حين كان يحشوه والسكرتير لا علاقة له بالجريمة ، فالرجل العجوز يعيش في توتر عصبي دائم ، مما جعلـه ينطلق إلى الطابق الأسفل ليخمد صوت اللص الموهوم .

– حسناً ، وماذا عن النافذة المفتوحة ؟

– قيل بأنها فتحت من الداخل وقيل أيضاً بأن الرجـل العجوز هو الذي فتحها .

وشقّ على البروفسور متابعة تطور الحديث ، فقد كان عقله منشغلاً في أمر الصورة التي رآها للضحية العجوز الذي كان يجلس بالقرب من نيومن الأب في حفلة العشاء الرحبية . وتساءل : هل يحدّث جراي بهذا؟ إن صداقته معه متينة ترجع الى سنوات بعيدة ، وقد كان يصارحه بأدق الجزئيات الخـاصة به ، ولكن هل يهدم هذه الصداقة الآن ، فلا يحدثه عن الصورة ؟؟ إنه لا يدري .

وجلسا صامتين يرشفان قهوتهما الصباحية ، حين عزم البروفسور على التلميح لصديقه عن الصورة التي وجدها في مجموعته الضحية العجوز ، ولكن أصيب بالدهشة حين سمع نفسه يقول :

– بإختصار ، فقد انهارت وأغلقت قضية جوستاف نيومن .

– لا يا صديقي فما زلت أؤمن بأن هناك ما يثبت بأنه القاتل ، وسوف أطلب من اسكتلانديارد الإتصال بالانتربول ، والتحقق من اسم نيومن .

ثم نهض من مكانه واضعاً فنجان قهوته الفارغ على الصينية وقال :

– سأذهب الى البيت يا كارل وأنت تريد أن تذهب لزيارة أختك ، وقد جئت لأخبرك بالمعلومات الجديدة عن قصة مادستون ... و ..

ورنّ جرس الهاتف فجأة فقال تسفايغ :

– هذه أختي ...

– وداعاً ، وسأتصل بك إن حصلت على معلومات جديدة .

فسار الإثنان حتى الباب الخارجي ، ثم قال تسفايغ :

– شكراً أيها الصديق لزيارتك .

استأذن جراي بأدب حتى لا يؤخر صديقه عن المخابرة الهاتفية ، وعندما أمسك البروفسور بسماعة الهاتف ، قال بصوت كسول :

– هالو من المتكلم ؟

أجاب صوت غريب :

– هالو . هل أنت بروفسور تسفايغ !

– نعم أنا تسفايغ ؟

– أنت لا تعرفني ولكنك جئت الى فندق تشهام لتسأل عن رجلين تناولا العشاء هنا .

– نعم ، تكلم ، تكلم بسرعة .

– ... كما أن صديقاً لك جاء وسألنا بعض الاسئلة حولهما ، الآن أستطيع أن أعطيك بعض المعلومات عنهما راجياً أن تساعدك في مهمتك .

وهنا أراد أن يقفز خلف صديقه ، ولكنه صمت فترة ليقول بعدها :

– سأكون عندك بعد عشرين دقيقة ، فهل تستطيع أن تنتظر ؟ أم سأتصل بك ثانية ؟

– يمكنك الإتصال بسكرتيرة الفندق فهي التي تلقت المخابرة الهاتفية .

– هذا رائع ، أشكرك .

– عفواً يا سيدي .

وحين أنهى الحديث ، جلس على حافة السرير ليرشف مزيداً من القهوة ، مفكراً أن يفعل شيئاً ، فالصور ملقاة على السرير ، ودون تمييز التقط واحدة الظهره مع نيومن الأب في لباس الجندية عام ١٩١٦ ، وبدت له كفأل خير ، وخففت من حدة توتره النفسي ، وجعلته يجلس بهدوء ، مخاطباً نفسه بصمت : « لا يا كارل ، لا تقل شيئاً لتشارلز ، فهو رجل شرطة وواجبه يطلب منه العمل ، لا يا كارل .. تذكر صداقتك لعائلة نيومن » .

ثم نهض ليلتقط سماعة الهاتف ويطلب سيارة أجرة ، بعد أن شعر بفقدان شهية الفطور ، ولكن كبر سنه هتف به منذراً من خيبة قد تحل به إن لم يأكل ، فذهب إلى المطبخ ليضع قليلاً من الزبدة على قطعة صغيرة من البسكويت ، وتساءل : « لماذا وعدت بالذهاب إلى الفندق للحصول على معلومات جديدة ؟ » ثم تأكد أن السبب يكمن في وجود صديقه جراي في البناية أثناء حديثه مع مدير الفندق . كم أعجب بهذا التملص ، وكم إبتسم لنفسه بزهو ، وهو يقضم البسكويت بلا شهية .

آمن بأنه منقسم على نفسه بين صداقته القديمة لجوستاف ، وبين واجبه كإنسان . لا ، الحق أنه إنقسم على نفسه بين الإثارة الغامضة الوافدة من مطاردة قاتل ، وبين الإزعاج الذي يهدده بإلتهام الساعات الطويلة من وقته . ولا يدري كيف تذكر سخرية جوستاف اللاذعة وقت مناقشته الأخيرة ، ولا يدري كيف انعدم الإحساس العميق بصداقته . أما الآن ، أي بعد خمس وعشرين سنة ، فقد أدرك أن الصداقات القديمة لا تخلف الا الضيق ، ولم تكن الإثارة هي محور

اهتمام رجل جذبته فكرة الجريمة سراً ، فهو لم يكن من هذا النوع . إن ما أثاره حقاً هو أمر لا يمكن تحديده ، بل وبعيد وقوعــه ، ولكنه يتعلق بمناقشته الأخيرة مع جوستاف في هايدلبرغ .

- ٥ -

استقبله مدير الفندق بابتسامة عذبة . كان رجلاً قصيراً يسير بسرعة نحو الشيخوخة ، وقد تدفقت عاطفته بخجل وهو يصافح رجلاً مشهوراً مثل البروفسور كارل تسفايغ ، وتلعثم وهو يقول :

– صباح الخير أيها البروفسور ، هل لك بقدح من الشيري ؟

حدّقت حفنة من النساء بوجه البروفسور وتهامسن ، فالتقطت أذنه كلمة « الفزيون » . لقد كان في الماضي يشعر بالبهجة بهذا النوع من المعرفة ، أما في هذا الصباح فقد حملت اليه النسوة شعوراً بالإزعاج ، فأحس كأنما ملء حذاؤه ماءً . وقد أجاب البروفسور بلطف :

– لا أستطيع ان اشرب شيئاً في هــذا الوقت ، فقد تناولت طعام الفطور منذ دقائق ، أشكرك .

– حتى ولو قليلاً من الشيري بمناسبة العيد؟ هل تتفضل بالحضور إلى مكتبي؟

وسارا تتبعهما سيدة مكتنزة الجسم ، ترتدي فستاناً قرمزي اللون . وقال المدير معرفاً :

– السيدة « ويست » سكرتيرتنا تعمل معنا منذ ثلاثين عاماً .

ثم التفت اليها قائلاً :

– ستأخذين قليلاً من الشيري ، أليس كذلك ؟

– لا مانع عندي ، شكراً يا سيد جاكسون .

اعترى تسفايغ شعور غريب وهو يقف هناك ، خجولاً لأن يخبر مدير الفندق بأن سيارة الأجرة تنتظره في الخارج . ونظر إلى المدير وهو يصب الشيري في

تدمين ، مفكراً في كلمات عاجلة لينهي هذه المقابلة :

– سأشرب قليلاً من هذا الشيري .

– رائع... أخبرني مساعدي السيد تشامبرز أنك جئت للسؤال عن صديق لك شاهدته وهو يغادر فندقنا ، وأخبرني أيضاً انه لم يعرف شيئاً عن صديقك هذا ، لأن عمله يبدأ في الخامسة ، اما السيدة « ويست » فهي التي تلقت المخابرة وحجزت لهما مائدة العشاء ... و ..

فالتفت تسفايغ ليسأل :

– هل تعرفين اسميهما ؟

– لا ، وإنما أعرف البارون الإسكتلندي الذي اعتاد أن يزور الفندق بإنتظام قبل الحرب ، كان يأتي ابيه واسمه « تيموثي فرجوسن » .

وكتب البروفسور الاسم في مذكرته وعاد للسؤال :

– عظيم ، أتعرفين شيئاً آخر ؟

أجاب مدير الفندق :

– لا ، ولكن اليك كتاب « من هو » .

ثم وضع الكتاب مفتوحاً على صفحة معينة وتابع قائلاً :

– هذا ما تبحث عنه . فإنحنى البروفسور ليقرأ الكلمات بسرعة غريبة « البارون الثالث ، ابن القائد سير كلفن فرجوسن رئيس إدارة المستشفى ... جمعية أبحاث بناء السفن الإسكتلندية ، بيرث » .

– بيرث ، بيرث ؟ أليست هذه المدينة في استراليا ؟؟

كانت مادة الجغرافيا أعقد المواد الدراسية بالنسبة له ، وقد ابتسم المدير وهو يلتفت نحو السكرتيرة البدينة ، وتخيل نفسه يحدث زوجته عن أن البروفسور كارل صاحب برنامج « سل الخبراء » لا يعرف أين تقع بيرث ؟ آه ، ماذا ستقول زوجته ؟

أجاب : – هناك بيرث أخرى في اسكتلندا أيها البروفسور .

– طبعاً ، طبعاً ، فأنا لم أميّز الحروف لأنني لم اضع نظارتي الطبية .

سجل تسفايغ العنوان ورقم الهاتف في مذكرته وهو يقول شاكراً :

– هذه مساعدة قيمة لن أنساها ابداً ، وسوف أتصل بهذا الرقم لكي اعرف أين يقيم البارون الآن .

وبرز سؤال جديد في عقله ، فسأل السكرتيرة :

– هل تعرفين من أي مكان اتصلوا بالفندق هاتفياً ؟

– لا يا سيدي ، السكرتير الخاص بالبارون هو الذي حجز المائدة ، أليس هو الرجل الذي تبحث عنه ؟

– هذا صحيح ، ولكن مَنْ قال بأن للبارون سكرتيراً خاصاً ؟

– هذا ما قاله على الهاتف .

– ألم يخبرك عن مكان إقامتها ؟

– لا حاجة لذلك يا سيدي ، فقد سألني إذا كان بإستطاعته حجز مائدة العشاء لاثنين ، فقلت نعم .. أعتقد انه يقيم مع أصدقاء في مكان ما .

انتهى البروفسور من الشيري ومن الأسئلة ، فشعر براحة عميقة ، ثم شكر المدير :

– لا أستطيع التعبير عن امتناني لما قمتم به من مساعدة .

– إنه ليسرنا ذلك ، فأنا احد الذين يشاهدون برنامجك التلفزيوني دون إنقطاع . وبهذه المناسبة هل لك ان توقع على هذا الدفتر لأعطيه لابن أختي الصغير ، إنه في الثامنة ؟

وقّع تسفايغ إسمه بأحرف منمّقة جميلة ، ثم وقع ورقة للسيدة ويست التي قالت بأنها تساعد إبنها في جمع تواقيع المشهورين .

ودّعها مصافحاً ، وعاد الى سيارة الأجرة ليفكر « إن للشهرة امتيازات كثيرة ، فهي تحطم الحواجز دوماً » .

- ٦ -

بعد ساعة من الزمن استلقى على سرير أنثه يطلب رقماً هاتفياً في اسكتلندا، وانتظر طويلاً دون أن يسمع رنين الهاتف الآخر البعيد ، ثم جاءه صوت عاملة الهاتف :

– آسفة يا سيدي ، لا جواب ... آ ، اسمح لي بلحظة ..

وبعد فترة صمت عادت لتقول :

– إنك مع الرقم الآن .

فصرخ تسفايغ :

– هالو .. هل يقيم السير تيموثي فرجوسن هنا ؟

وجاءه الجواب من صوت مكبوت خافت :

– نعم . ماذا تريد ؟

– أنا البروفسور كارل تسفايغ ، أودّ أن أتكلم مع صديقي السير تيموثي فرجوسن .

– إنه في مكان آخر وهو غير موجود هنا .

– من المتحدث إذن ؟

– مديرة شؤون بيته .

– أعتقد أنه في لندن ، أتعرفين أين ؟..

قاطعه الصوت الآخر بحدّة :

– هو غير موجود في إنكلترا يا سيدي .

– هل أنت متأكدة من هذا ؟

لم مضى على مغادرته البيت ؟

– شهران ، إنه في كولوند .

– أنت مخطئة يا سيدتي ، فقد شاهدته ليلة الأمس في لندن .

صمتت المرأة لفترة ثم قالت بسخرية :

– لماذا تتصل بي هنا ، إن كنت قد رأيته في لندن ؟

– لأعرف إن كان بإمكانك إعطائي عنوانه في لندن ، فقد تركني قبل أن أحصل على العنوان منه ، كان اللقاء خاطفاً سريعاً .

– هذا غير صحيح يا سيدي ، فقد اعتاد أن يرسل برقية قبل عودته الى إنكلترا ، وهو لا يحب أن يقضي أعياد الميلاد في لندن ، إنه يفضل العودة الى هنا مباشرة .

فكتم غيظه ليقول بلطف :

– أنا أؤكد لك بأنه في لندن، هل تعرفين أين يقيم؟ وطلبت منه أن ينتظر قليلاً ، فأحس بأنه انتظر عودتها وقتاً طويلاً ، حتى أنه سمع صفير انتهاء المكالمة مرتين ، وسمع صوت عاملة الهاتف وهي تسأل :

– الا زلت تتحدث يا سيدي ؟

فصرخ بحدة :

– نعم ، لا تقطعي الخط .

وأجابته عاملة الهاتف بصوت منزعج :

– استطيع أن أسمعك بكل وضوح يا سيدي ، فلا داعي للصراخ .

عاد إلى الصمت لينتظر طويلاً قبل أن تقول المرأة :

– آسفة يا سيدي ، فقد بحثت على دفتر العناوين فلم أجده ، أنا أعتقد بأنه يقيم في شقته رقم « ٧٤ بلهام بلاس في جنوبي كنزنغتون » وإن لم تجــده هناك فلتسأل عنه في شقته رقم « ٢٠٠ كرومويـــل رود » الذي يقيم فيها صديقه جوزف جاردنر .

وبسرعة سجّل تسفايغ العناوين في مفكرته الخاصة، وسأل :

- هل شقة بلاس موجودة في دليل الهاتف ؟

فأعطته الرقم وأضافت :

- إذا تحدثت معه ، فأرجوك أن تطلب منه أن يتصل بي لأعرف موعد حضوره إلى هنا ، اسمي السيدة « كيركب » .

فوعد البروفسور أن يقوم بهذه الخدمة البسيطة ، ثم أعاد سماعة الهاتف ، مستنداً بظهره المتعب إلى الحائط ، وتائهاً في أفكاره البعيدة . ومن الخارج جاءته أصوات الأطفال الصغيرة السعيدة ، الفرحة ، فعبس ، واكفهر وجهه . إنه يحب أطفال أخته « أو تولي » . أما اليوم فهم لا يطاقون ، وكم أزعجته ضحكاتهم البريئة الصاخبة . وأطلت أخته التي تصغره بخمسة عشر عاماً ، والتي بقيت تعيش معه لتدبّر أمور بيته حتى تزوجت منذ عشر سنين . كانت ملامحها قوية صارمة مثل أخيها ، وكانت صامتة أبداً . ووجهها يبدو كأنه صبغ بأصبغة ثمينة ، وكانت تحدثه دائماً بالالمانية التي تلفظها بلهجة قروية . وقد سألته بحب :

- هل تشكو تعباً ؟

- بعض الشيء .

كان يشعر براحة غريبة عندما تكون قريبة منه ، وهو لم يكتم عنها سراً أبداً فتابع قائلاً :

- في عقلي أشياء كثيرة يا أوتولي .

- الا يمكنك نسيانها من أجل أعياد الميلاد ؟

- لا ، أيتها العزيزة ، هل تذكرين جوستاف تيومن ؟

- القاتل ؟

كانت تعرف القصة كلها ، فقد سمعت تسفايغ يكرّرها في أمريكا دون إنقطاع .

قال تسفايغ : - نعم فسيّد القتلة في لندن .

- حسناً ، وهل في هذا ما يزعجك ؟

- إنه مع رجل عجوز .

- إذن ...

حدق فيها طويلاً قبل أن يقول :

- الا تفهمين ؟

فضحكت بعذوبة وهي تقول :

- هل تعتقد بأنه سيقتل هذا العجوز ؟

- أتظنين ذلك مستحيلاً ؟

نظرت اليه غير مصدقة :

- هل أنت جادّ فيا تقول ؟

- ولِمَ لا ؟

- لأن ....

وهزت كتفيها غير مبالية بالقصة ، وبدأت في جمع الثياب ووضعها في الدرج وهي تتابع حديثها :

- لا أعتقد بأنك صدقت تلك القصة في يوم من الأيام ، أعني أنها مستحيلة التصديق ولكن ...

- إذن لماذا تظنين أنني كررتها على مسامع الأصدقاء ورجال الشرطة ؟

- لأنها قصة ممتعة ، ولأنك أردتني أن أتزوج من ذلك الخبير .

تغيّر لون تسفايغ عندما واجهته أخته بالحقيقة ، فانتقل الى موضوع آخر ليقول :

- لقد حصلت على رقم هاتفه في لندن ، وأجد أنه من الأفضل الاتصال به الآن .

فضحكت بسخرية وهي تقول :

- قد تعيقه عن عمله ، وهو يحاول التخلص من الجثة .

وتناول الهاتف فخرجت من الغرفة . إنه لم يفكر جدّياً الاتصال ، بلهسام بلاس ، ولكن شكوكها جعلته يشعر بأنه يلاحق لمة الخبر دون تقديم لأي

شيء، ولو اتصل لما تأذى أحد ، فإذا كان جوستاف عازماً على قتل سير تيموثي فرجوسن ، فأن تدخل تسفايغ يوقفه عن عمله المجرم ، أما إذا كانت القصة خاطئة ومن صنع خياله فيمكنها الاجتماع والتحدث عن الأيام الماضية . وتخيل أن أصواتاً غريبة تأتيه عبر الهاتف ، ثم تبع ذلك صوت العاملة لتسأل :

– أي رقم تريد يا سيدي ؟

أخبرها عن الرقم ، فقالت :

– يؤسفني أن أقول ، أن هذا الرقم غير صالح يا سيدي .

– منذ متى ؟

– لا أستطيع أن أخبرك بذلك يا سيدي ، ولكن أستطيع أن أحولك الى الاستعلامات للسؤال .

رافق مرافقته شعور بالخوف ، ومضت دقائق طويلة مرتجفة قبل أن تستطيع الاستعلامات إخباره بأن الهاتف المذكور قد انتزع من مكانه منذ سنة تقريباً ، ولم يوضع رقم جديد هناك . وأجاب :

– هل يمكنكم الاستعلام عما إذا كان البيت يحوي هاتفاً آخر ؟

– يمكنني البحث في دليل الشارع، هل هناك إنسان معين تود الحديث معه؟

– لا ، فكل ما يهمني هو الإتصال بصديقي ...

– آسف يا سيدي ، عليك أن تذكر اسم الشخص الذي تريد التحدث إليه .

– هل بإستطاعتك أن تخبرني عن رقم الشقة التي يمتلكها السير تيموثي فرجوسن ؟

– نعم يا سيدي ، فهو يسكن في الطابق الأرضي .

– إذن أخبرني إذا كان في الطابق الأول هاتف .

– آسف يا سيدي ، لا يمكنني أن أفعل ذلك الا إذا ذكرت اسم المشترك ، فعلينا أن نحافظ على طمأنينة مشتركينا ...

فألقى سماعة الهاتف بغضب وهو يشتم ويلعن ، وعادت أخته لتقول :

– كل عاملات الهاتف الانكليزيات على هذه الشاكلة .

فضم تسفايغ ظفر سبابته ، فقالت أخته :

– تعال لنتناول الغداء .

– أنا ما زلت أتساءل ... ربما سأتصل بجاردنر .

– نعم ولكن بعد الغداء .

– أنا أفضل الاتصال الآن ، فلعلهما يقيان هناك ، ثم إن شارع «كرومويل» يقع بالقرب من «بلهام بلاس» ، ويحتمل أن جاردنر ذهب لزيارة فرجوسن في بيته ، ويعرف عنه بعض الأخبار .

– هل يذهب لزيارته في مثل هذا اليوم ؟

أدار تسفايغ قرص الهاتف عدة مرات ، في حين أن أخته وقفت تراقبه ، وعندما سأل عن جوزف جاردنر أجابه صوت نسائي :

– إن السيد جاردنر سيقضي هذا اليوم مع زوجته خارج البيت ، هل تريد أن تترك خبراً له ؟

– لا . ولكن بمقدورك اخباري شيئاً،هل تعرفين إذا كان السيد جاردنر قد قابل السير تيموثي فرجوسن في هذه المدة ؟

– لا يا سيدي ، فأنا لا أعتقد أن سير فرجوسن هنا في لندن لأنني لم أره في هذه الفترة ، فقد اعتاد أن يقضي معظم وقته هنا عند زيارته للندن .

– شكراً جزيلاً ، وسأتصل ثانية غداً .

قالت أوتولي : – حسناً ، والآن ؟

– يجب أن أذهب لمقابلة فرجوسن الآن ، فقد قالت الخادمة أنها لا تعتقد بأنه في لندن ، وهذا يعني أنه جعل وجوده هنا سراً لا يريد أحداً أن يعرفه .

أحنت أوتولي كتفيها ، جامعة يديها كأنها تصلي ، فقد رأت أخاها عاجزاً تماماً ، كانت هي الواقعية ، وكان هو مفكر العائلة العظيم ، وقد أجبرتها التجارب العديدة على ان تعامله أحياناً كصبي غبي ، وطالما ضايقته وازعجته ، مع أنها كثيراً ما تخطيء مثله تماماً ، ومع ذلك فهو يسمح لنفسه التظاهر بالاقتناع ، لهذا وقف ليقول :

ـ حسناً سأترك الأمر الى ما بعد الغداء .

ـ اترك كل شيء الى الغد ، فليس بوسعك القيام بأي عمل في العيد ، تناسى كل شيء ، ومتّع نفسك .

وهكذا استمتع البروفسور بعيده ، إذ ساعد أكبر أولاد أخته ، في تركيب جهاز آلة رافعة ، وفي المساء جلس ليناقش موسلدورفي في سياسة المانيا الغربية ، وقد كان هذا الدسلدورفي يملك مطعماً فاخراً في سوهو ، وقد شاركهما الحديث مهندس سويسري ، وكذلك قضى على زجاجتين من خمرة الرين ، أمدهم بها المرشتايمر الذي يعمل في سوهو ، وحين تسللت إلى نفسه قصة جوستاف ، فقد تسللت من خلال غيوم المتعة والنشوة المنبعثة من الطعام والخمرة ، وفي الثانية صباحاً ، حمله زوج أخته في سيارته التي كان يقودها بحذر تام .

وقبل أن ينام ، فكّر جدياً في قصة جوستاف ، وحمله هـذا التفكير إلى أحداث الساعات الماضية ، فرأى على ضوئها فجأة ، أن جوستاف لن يكون مجرماً ، فالمجرم هو رجل بلا قدر ، أمـا جوستاف فذو أحاسيس شاعرية ، وهو مؤمن بقدره ، وعند هذا الحد من التفكير نام البروفسور تسقايغ .

— ٧ —

في التاسعة صباحاً أيقظته مديرة منزله لتسأله عن الساعة التي يريد أن يتناول فيها طعام الإفطار ، فجلس وهو يلعن ، وبدأ يطرد النوم من عينيه بفركهما . قالت له :

ـ هل أعدّ النار أيها البروفسور ؟ هل ستمضي يومك هنا ؟

وكره تسفايغ أن يتخذ قراره وهو نصف نائم فقال :

ـ دعيني أفكر في الأمر .

ـ هل تفضّل السمك المقدّد مع فطورك ؟

ـ هذا رائع .

وعاد الى النوم من جديد ، حين جاءه رنين الهاتف ، فقالت المرأة :

ـ إنه السير تشارلز جراي .

همهم وشتم وهو يرتدي معطفه الليلي ، وخطـا نحو الهاتف ليسمع جراي يقول :

ـ آسف لإيقاظك ، ولكن الأمر مهم ، هـل يمكنني المجيء إليك خلال عشرين دقيقة ؟

ـ أنت تعرف أنه يمكنك الحضور متى شئت .

ـ أعرف هذا ، ولكني أريد ان أصطحب معي عالماً نفسانياً يدعى جون ستافورد موران .

ـ حسناً يا صديقي أحضر حالما تستعد .

ثم توجّه بالنداء الى مديرة المنزل :

– يمكنك إشعال النار بعد هذا كله ، فالسير تشارلز سيكون هنا خلال دقائق ، وهل لك أن تحضري القهوة في الإبريق الكبير ؟

لم يستطع ارتداء ملابسه بسرعة ، بسبب برودة الجو ، فأشعل النار في غرفة النوم ، ثم أحضر نسخة من كتاب « من هو » طبعة ١٩٥١ ، وجلس ليقرأ عن جون ستافورد مورتن ، إذ أنه يعرفه ، ولم يسمع عنه من قبل ؛ ولكن تقديم الكتاب له جعله يؤمن بأنه رجل مهم ، فهو يحمل عدداً من الشهادات العليا ، التي تتبع اسمه : F. I. C. S, F. R. C. S, B. Ch, M. A ، و ... وعدة مراكز كبيرة في المستشفيات التي تعالج المرضى بواسطة الطب النفسي ، هذا الى جانب قائمة طويلة بالمنشورات الصغيرة التي كتبها « عقل المجرم » و « الخلل العصبي والجريمة » و ... وهنا دخلت مديرة المنزل لتقول :

– الأفضل أن تأكل هذه قبل وصولها ، والقهوة جاهزة تقريباً .

أكل ما أعطته وهو شارد يطيل التحديق فيما كُتب عنه في كتاب « من هو » وتساءل :

– لماذا يريدني جراي أن أقابل هذا الرجل ؟ فلا فائدة من هذه المقابلة .

إلا أن هذا لم يزعجه حقاً ، فسوف يغتنم الفرصة لزيارة « بلهام بلاس » والتحدث مع جوستاف قبل أن يراه جراي ، وهنا لطمه سؤال :

– هل يخبر جراي بالمعلومات التي حصل عليها بالأمس ؟

ولم يتخذ قراراً في هذا الشأن ، وهذا ما ذكّره في القرار الذي اتخذه سابقاً ، حين قرر ألا يجعل جراي يرى صورة الضحية بالسكين ؛ أما هنا فقد يعرف جراي قصة مقابلته لمدير فندق تشسهام ، ولعن نفسه لغباء بديهته التي لم تجعله يطلب من صديقه الحضور بعد ساعتين ، ليعطي نفسه وقتاً طويلاً للتفكير .

وفكر لحظة بمغادرة بيته والإسراع إلى بلهام بلاس ، بعد أن يترك رسالة يطلب فيها من جراي والعالم النفساني الانتظار ، وتخيل وجهيهما وهو يدخل عليهما الغرفة قائلاً بفرح : « أقدّم اليكما جوستاف نيومن الذي اتهمناه بجرائم القتل الموهومة . »

فجأة انقطع خيط تفكيره حين سمع صوت الجرس الخارجي ، فتطلع إلى دقنه غير الحليقة ، وقرر أن لا جدوى من ارتداء ملابسه ، فلفّ حول رقبته شالاً حريرياً ، وغيّر معطفه الليلي المتآكل بآخر جديد .

قال جراي : – آسف لإزعاجك يا كارل ، ولكن أمام ستافورد يوماً مليئاً بالأعمال .

وعندما رأى تسفايغ العالم ، قرر حالاً النفور منه ، فقد ظهر أصغر من سنواته الخمسين ، رغم اصفرار وجهه ، وطلعته العصبية التي تستولي على إنسان ما ، فيجزع لأن العالم لن يعامله بالجدية التي يعامل بها نفسه . وكان صوته مرتفعاً ومقتضباً حين قال :

– أنا أعرف الكثير عنك أيها البروفسور ، ولطالما وددت مقابلتك ، إنه ليؤسفني أن نتحدث عن الأعمال اليوم ...

فقال تسفايغ : هل تفضل شرب القهوة الآن ؟

فأجاب جراي : – سأخبرك بالسبب الذي دعانا إلى مقابلتك في مثل هذه الساعة ، لقد تحدثت إلى ميتفورد في اسكتلند يارد ووافق على أن ملاحقة نيومن تتطلب عملاً سريعاً وهذا يؤدي الى أن توزّع أوصافه على دوائر الشرطة جميعها ، كما وأنه يوافق على أننا لا نملك دليلاً حاسماً لتجريم نيومن ، ومن ثم تحدثت مع الطبيب ستافورد الذي قال بأن الأمر قد يكون غلطة ...

فقاطعه ستافورد : أنا لا أعني هذا ولكنني أؤيد رأي ميتفورد ، واسمح لي أن أقول ، اعتماداً على ما أخبرني به جراي ، ان جوستاف نيومن لا يبدو قاتلاً .

حلق تسفايغ في لهيب النار المتصاعد الذي أمدّ الغرفة بالدفء ، ثم سأل :

– كيف توصلت الى هذه النتيجة ؟

– بناء على ما أخبرني به السير تشارلز ، فنيومن هذا يبدو مثقفاً ثائراً جذبته فكرة الجرم السيء ، وبناء على خبرتي الشخصية فإن أمثاله لا يرتكبون الجرائم .

كان صوته هشاً جليجلاً ذا نغمة حاضر ، مما جعل تسفايغ ينظر بعيداً عنه ، لكي يخفي ازدراءه ، وتابع حديثه قائلاً :

– لا شك أنك تعرف بأن الرجال المثقفين الذين يدعون للجريمة لا يرتكبون أية جريمة أبداً ، خذ دي ساد ولوترامون كمثال ، وكما تعرف فإن دي ساد أيام حكم الإرهاب لم يقتل الأعداء ، بل أطلق سراحهم .

وصمت برهة ليسمع صدى نغمة صوته المسيطرة ، ثم أسرع الى القول :

– وأنت بالطبع تعرف هذا كله كما أعرفه أنا .

وقد وافق ما قاله الطبيب هدف تسفايغ ، إلا أنه أراد أن يناقضه فقال :

– ولكنك تعلم أيها الطبيب ، أنه ليس من الحق القول بأن الرجال المثقفين لا يقومون بعمل الجريمة ، فهناك العديد من المجرمين الذين كتبوا شعراً جيـــداً مثل ...

– هـــذا صحيح ، ولكن شعرهم لم يكن رائعـــاً ، فلا يمكن تسمية « وين رايت » و « لينسير » مثقفين إلا من قبيل المجاملة ، لأننـــا نعرف أن فكرة الشاعر تناقض الإجرام ، فهو محبّ لذاته لدرجة أنه يتوقف عن خداع مجتمعه لشعوره بأنه استطاع أن يجسد الحقيقة التي لم يكتشفها مجتمعه الضال .. أمـــا المجرم ...

فقاطعه تسفايغ بهذه الكلمات :

– فهو محبّ لذاته أيضاً .

– طبعاً ، ولكن حبه يختلف ، فهو أناني ، حيوانيّ في حبه لذاته ، لاعتقاده بأن مجتمعه على حق ، وللمجتمع الحق في الحكم عليه ، أما الشاعر فيعتقد بأن له الحق في الحكم على مجتمعه .

أعجب تسفايغ بآراء الطبيب ووجد أنها امتداد للفكرة التي هبطت عليه ساعة النوم ، ومع ذلك فقد أبى الموافقة ، وأراد أن يستمرّ في العناد والمناقشة فقال :

– ألم يشرح لك سير تشارلز إيمان جوستاف بحقه في الحكم على البشرية ؟

وليست الجريمة عنده الا تعبيراً طبيعياً عن هذا الحكم .

فأجاب ستافورد بإنفعال وبصوت مرتفع :

– ولكن يا عزيزي البروفسور هذا ما قلته سابقاً بالحرف الواحد ، فكل الجرائم تأتي كتعبير عن الخوف ، وهي التعبير الطبيعي لإختلال الأعصاب . هل توافق على أن صديقك نيومن في حالة انهيار عصبي ؟

تدخل جراي قائلاً :

– أنا لم أفهمك يا كارل ، بالأمس فقط وافقت على أن نيومن ليس من نوع المجرمين ، والآن تبدو وكأنك تريد التصديق بأنه مجرم .

– ليست المسألة ما أريد التصديق به ، فكل ما أرجوه هو أن يكون الطبيب ستافورد على صواب، اما إذا كان على خطأ فهذا سيكلف حياة إنسان.

ارتسم على وجه ستافورد إزعاج عميق وهو يقول :

– هناك أرواح أخرى يجب الإهتمام بها ، فرجال الشرطة يستخدمون جميع الوسائل لمطاردة قاتل الأطفال في « إيلنج » ، وهنـــاك قضية حارس « دولس هيل » وربما يُقتل طفل آخر أثناء حديثنا هـــذا ، أو أثنـــاء تعقب الشرطة لصديقك نيومن .

فأغرته هذه الكلمات لأن يقول :

– لا حاجة للبحث عن نيومن ، فأنا أعرف مكانه .

ولكن جراي سبقه إلى الحديث :

– إن القضية تتلخص في إقنـــاع الطبيب بخطأ نظريته في أن نيومن ليس بمجرم ، وفي هذه الحالة يستطيع هو اقناع ميتفورد ببدء البحث عنـــه ، والحق يقال بأن آراء الطبيب حول هذه القضية جد معقولة .

قال تسفايغ :

– حسناً يا تشارلز ، دعنا نعتقد أنـــه على صواب ، ولكنني سأستمر في البحث عن نيومن في الوقت الحاضر .

أصرّ جراي في السؤال :

– ولكن هل تعتقد بأن الطبيب على صواب ؟ هـــذا كل ما أريده منك . فأنت تعرف تيوس حق المعرفة ، ونحن لا نعرفه بالمرة ، هل يحتمل أن يكون الطبيب على خطأ ؟ وهل تجاهل بعض العناصر المهمة في شخصية تيوس ؟

فجأة أحس تسفايغ بأنه يجب أن ينهي هـذا النقاش ، والا فسوف ينفجر بالكلمات ، لذا وقف ليقول :

– حسناً أنا أوافق ، سأرتدي ملابسي و ...

فسأله جراي :

– توافقه على أي شيء ؟

خانه صوته في إخفاء ضيقه فقال :

– أوافق على أن لا فائدة من سؤال الشرطة بالقيـــام بأي عمل ، فسأجد جوستاف بنفسي .

وكان ذلك أكثر مما أراد الإفصاح عنه ، ومما جعل جراي يصاب بالدهشة وهو يقول :

– كيف ؟ إذا كانت الشرطة لا تستطيع ذلك ...

فابتسم تسفايغ قائلاً :

– لدي بعض الأخبار التي سأقولها لك في وقت لاحق .

– أليس لك من الأفضل أن تخبرني بها الآن ؟ فعلينا أن نعمل معاً .

– أعطني ساعتين فقط ، ثم سأخبرك بكل شيء .

وقف ستافورد ليقول :

– آسف . يجب أن أذهب مهما كانت الظروف ...

ودلّت نغمة صوته على ضيقه وعدم رضى عن هذه المقابلة ، وأراد جراي أن يخفّف من توتره النفسي وخاصة عندما صافحه واعداً الاتصال به . وانحنى تسفايغ بفتور غريب حين غادرهما ستافورد ، ولما أغلق الباب خلفه ، قـــال جراي :

– لقد جعلته يشعر بأنه غير مرغوب فيه هنا .

– آسف ، فقد أزعجتني .

– لماذا ؟

– لأنني أشعر بأن طريقته لم تكن ودية ، وهذا يرجع إلى خجله الشديد .

– ذكّرني بأستاذ التاريخ الحديث في «سانتاباربره» رجل انكليزي آخر ...

فاستغرب تسفايغ هـــذه الملاحظة الشديدة ، فساعة إستمع إلى ستافورد قارنه لا شعورياً بذلك الأستاذ في كاليفورنيا ، وحول إليه كل ما حمله من بغض لزميله السابق ، وتضايق تسفايغ وهو يكتشف هذه الحقيقة ، فقـال وهو يعلم بأن جراي يراقبه عن قرب :

– أوافق على غرابة الموقف ، ولكن كيف نسمح لبواعث سخيفة بالتأثير علينا ؟

قال جراي دون أن يدري ما يدور في عقل صديقه :

– إن عدم ميلك نحوه لمؤسف حقاً ، فقد رغب في مقابلتك ، والظاهر أنه قرأ جميع كتبك التي جعلته يؤمن بأنك أعظم الفلاسفة المعاصرين .

فشعر تسفايغ بالخجل من نفسه فقال :

– شعرت بأنه تطرق الى موضوع لا يعرف عنه الكثير ، أرجوك ان تعتذر له ، وقل له بأنني متأثر من الفكرة التي جعلت من صديقي القديم ، قائلاً ...

– طبعاً ، طبعاً .

وظهر الضيق على وجه جراي الذي بدأ يبحث في جيوبــه عن الغليون ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يغيّر بهـا الحديث الى موضوع يهمّه ، ثم قال :

– حدثني الآن عن تلك المخابرة الهاتفية .

أجاب تسفايغ وهو يدرك ما الذي عناه صديقه :

– مخابرة هاتفية ؟

– قلت منذ قليل بأنك سوف تتصل بي هاتفياً بعد ساعتين لتخبرني ببعض الأنباء .

ضحك تسفايغ ، وصبّ آخر فنجان قهوة ، بينما ملأ جراي غليونه مدّعياً أن الصمت لا يحمل علامات استفهام ، بالرغم من عدم رغبته في التدخين . وأخذ تسفايغ بمراجعة الاحتمالات الأخرى التي قادت الى الموضوع ذاته ، ألا وهو الصراحة مع جراي فقال راضخاً :

ــ حسناً ، لماذا لا أخبرك ؟ فأنا أعرف مكان جوستاف .

فوجىء جراي الذي صرخ :

ــ بحق السماء كيف ؟

أطرى إندهاشه تسفايغ الذي أسف لقذفه بكل معلوماته دفعة واحدة ، ثم قال :

ــ هل تذكر حين رن جرس الهاتف وأنت تودعني بالأمس ؟ كان المتحدث مدير فندق تشسهام ...

ثم قصّ عليه زيارته للفندق وحديثه الهاتفي مع مديرة شؤون منزل سير فرجوسن الإسكتلندية ، ثم مع الخادمة في شقة جوزف جاردنر . فلم يتمالك جراي الا أن يصرخ :

ــ يا إلهي ، كيف استطعت أن تخفي عني كل هذه الأخبار !

لاحظ تسفايغ رنّة التأنيب في صوت صديقه ، والتي إزدادت في مرارتها ، فقال :

ــ ولكن يجب أن تعرف السبب . اسمع يا تشارلز ، أنا أعتقد بأن جوستاف غير مجرم ، ولا أعرف ماذا سأقول حين أقابله .. هل أخبره بأنني طلبت من الشرطة مطاردته ؟ ولكنني سأقول له « إن الظروف أحاطتك بالشبهات التي أظهرتك بمظهر القاتل ، مع أنني لا أصدق ذلك » .

ــ هذا صحيح ، ولكن افرض أنه مجرم ، فإن عملك هذا سيرغمه على الفرار إلى الطرف الآخر من انكلترا .

ــ أرى غير هذا الرأي ، فهو إن كان مجرماً ، فيجب عليه أن يعرف أننا نشك به ، وهذا ما سينقذ حياة الرجل المسمى فرجوسن ، أما إذا لم يكن ..

أخذ جراي بإشعال غليونه ، ثم عدل فوضعه في كيس التبغ . وسأل :

ــ حسناً ، ما الذي قرّرت أن تفعله حينما تقابله ؟

ــ أحاول معرفة ما أستطيع ...

سار جراي نحو المدفأة ساهماً ، وقال :

ــ لا أدري ، لا أدري ، وأظن أن ذلك لن يؤذي أحداً .

عرف تسفايغ ما يفكر به صاحبه فأسرع إلى القول :

ــ وكيف يؤذي ، وقصتي تبدو جد معقولة لجوستاف ؟ لقد رأيته خارجاً من « تشسهام » فحاولت معرفة شخصية مرافقه ثم تبعتها إلى الشقة ، وسوف أسأله عن خططه ...

بدأ يقتنع ذاتياً بأفكاره ، فتذكّر الصورة ، ثم قرّ رأيه لفترة وجيزة أن يريها لجراي ، ولكنه أدرك استحالة الأمر ، فهي ستزيد من ظنون جراي بأن نيومن مجرم . ونظر إلى ساعته وقال :

ــ يجب أن أرتدي ملابسي ، لأذهب لرؤية جوستاف .

ــ لا أرى أن رؤيتك له ستغير شيئاً .

ولم يقل تسفايغ شيئاً ، وهو يرتدي ثيابه في الغرفة المجاورة ، مع أنه ترك الباب مفتوحاً لإستمرار المناقشة ، وشعر بأنه لا يريد أن يناقش صديقه جراي ، أكثر من أن يداعبه ، فقال له :

ــ هل تود أن تأتي معي ؟

ــ لا ، فأنا أشعر بأنك تود أن تنفرد به ، وقد تكون فكرة لا بأس بها إن ذهبت معك وانتظرتك خارج البيت .

ــ قد تنتظر طويلاً !

ــ ومن ناحية أخرى فقد يكون هناك شخص آخر .

ــ وماذا نفعل في حالة كهذه .

وران صمت عميق لفترة ، ثم قال جراي :

ــ وسأتصل بالأنديول في هذه الحالة ، وسوف أعرف ما الذي فعله فرجوسن

في كولون ، وهل تعرّف على نيومن هناك ؟
– طبعاً تعرّف عليه هناك .
– ولكن دليلنا الوحيد هو رؤيتك لجوستاف من خلال ستائر الثلج ، وقد تكون غلطاً في هذه الحالة .
– حسناً، وماذا تقول عن النادل الذي قال بأن اسم الرجل هو جوستاف ؟
– آه ، هذا صحيح ، فقد كدت أنسى ذلك ، ومن الأفضل أن نذهب إلى بلهام بلاس ، انني سأتصل بسيارة أجرة .

- ٨ -

كانت الثلوج متراكمة على الأرصفة في منطقة بلهام ، مما جعل جراي يقول :
– هذا الطقس مناسب لعمل مخبر سري ، لاحظ يا كارل إن كانت هناك آثار أقدام تقود إلى الطابق الأرضي .
كان الهواء يلسع الوجوه ببرودته ، والشمس الخافتة انصبّت على الثلوج لتبهر البصر ، دون أن تساعد في ذوبان الثلوج ، وتسفايغ يأكله تأنيب ضميره لتفكيره في ترك جراي ينتظره في الخارج ، لذا سمع نفسه يقول :
– لعله من الأفضل أن تأتي معي .
– لا تهتمّ بي ، فإذا اشتدت البرودة فسأنتظرك في المطعم المقابل ، اذهب أنت .
كان الممر الواقع أمام الباب الخارجي نظيفاً ، وكذلك الدرجات التي تتجه نحو الشمال ، وإلى الأسفل ، وصناديق الأقذار القابعة في أسفل الدرجات كانت نظيفة أيضاً ، وحتى العتبة الواقعة أمام باب الطابق الأرضي .
التفت تسفايغ نحو صديقه الذي وقف على الجانب الآخر من الشارع ، وهزّ رأسه ، ولاحظ وهو يهبط درجات السلم اهتزاز ستائر النافذة الأمامية ، ووقع نظره على وجه أبيض لامرأة عجوز . طرق الباب ووقف منتظراً ، ولكن لا جواب ، ورأى جرس الباب الخارجي فضغطه دون أن يسمع رنينه في الداخل . واختطف نظرة إلى ساعته ، فوجد أن الوقت لم يتجاوز نصف النهار تقريباً ، ففكر بأنه من المحتمل أنها يتناولان طعام الغداء خارج البيت ، ثم رُفعت الستائر التي تغطي النوافذ الأمامية ، فصرخ جراي من بعيد :

- لم تصب حظاً .

هزّ تسفايغ رأسه ، وتقدّم جراي نحو الباب الخارجي ووقف الإثنان أمام باب الشقة ، ثم همس جراي :

- لا جدوى من الإدّعاء بأنني لست بصحبتك ، فالمرأة العجوز نظرت من النافذة ولمحتني ، لنذهب ونحاول اكتشاف ما نستطيع .

انشق الباب الأمامي للبيت وظهرت إمرأة شابة لتقول :

- هل أستطيع مساعدتكما ؟

- اننا نبحث عن سير تيموثي فرجوسن ، هل يسكن هنا ؟

فتح باب آخر لتبرز منه المرأة العجوز التي قالت بسرعة :

- من المؤسف أنهما قد غادرا المنزل قبل نصف ساعة ، لقد ذهبا في سيارة أجرة .

- هل تعرفين متى يعودان ؟

- قد تستغرق رحلتهما بعض الوقت ، فقد أخذا معهما بعض الحوائج .

فدمدم جراي :

- يا لعنة الجحيم .

قال تسفايغ :

- شكراً على مساعدتك ، ونأسف للإزعاج .

قال جراي دون أن يحاول الخروج :

- هل تمانعين في أن نتحدث معك قليلاً ، هل أنت صاحبة البيت ؟

- نعم ، ما الأمر؟

وتقدّمت نحو الباب متكئة على عصى ، واعتذرت الفتاة لتتوارى في الداخل . وقال جراي :

- الأمر يتعلق بالسير تيموثي ، وعلينا أن نعرف أين ذهب لأن هذا في غاية الأهمية ، وهل رأيت الرجل الذي يصاحبه ؟

- هل تعني السيد تيومن ؟

- نعم . هل لديك أية فكرة أين يمكننا أن نجدهما ؟

- لا أعتقد ذلك ، مع أنني أظن بأنهما ذهبا إلى بيت سير تيموثي في اسكتلندا .

لاحظ تسفايغ أن المرأة العجوز تتفحصه بدقة ، فقال معرّفاً :

- هذا سير تشارلز ، وإسمي تسفايغ ، بروفسور كارل تسفايغ .

إبتسمت العجوز بعد أن سمعت الاسمين ثم قالت :

- الآن عرفتك ، فقد كنت واثقة من رؤيتي لك من قبل .

قال جراي :

- هل يمكننا الدخول للحظة ؟

- بكل تأكيد ، تفضلا ، لم أكن أعرف أنك من أصدقاء سير تيموثي أيها البروفسور ، لأنه لم يذكر اسمك قط .

تبادل جراي وتسفايغ النظرات المستفهمة ، فمن الواضح أنها تعلم شيئاً عن تيموثي ، لذا قال تسفايغ :

- لست صديقاً مقرباً .

وقادتهما الى الغرفة الأمامية حيث قال جراي :

- لقد حاولنا الاتصال هاتفياً ، ولكن الاستعلامات أخبرتنا بأن الهاتف معطّل .

- هذا صحيح ، فقد طلب نزع الهاتف منذ سنة تقريباً ، لعدم استعماله إياه ، ولأنه لا يريد دفع الإيجار ، وإذا أراد الاتصال بأحد فهو يستعمل هاتفي أنا . فكر تسفايغ فيما يجب أن يقولا لها ، وأخيراً قرّر أن يترك الأمر لجراي الذي سأل :

- هل ترين سير تيموثي كثيراً ؟

- لا ، فأنا لا أراه إلاّ قليلاً ، فقد استأجر مني الشقة السفلى بسعر رخيص جداً ، ولكنه لا يستعملها أكثر من مرتين في السنة .

وجلست على أريكة مرتفعة ، واضعة عصاها بين ركبتيها ، وقالت وهي

تنظر إليها :

- آسفة لأنني لا أستطيع مساعدتكما كثيراً ، لأنني لا أعرف أين ذهب ، وهل هذا مهم للغاية ؟

فأجاب جراي :

- نعم ، إن هذا مهم جداً ، هل قابلت السيد نيومن من قبل ؟

- لا ، فسير تيموثي قابله في ألمانيا منذ عدة أسابيع فقط .

- هل تحدث عنه بصورة ما ؟

- نعم .. ولكن لماذا ؟ لماذا تريد أن تعرف ؟

- ألديك مانع إذا جلست ؟

جذب جراي كرسياً وجلس مقابلاً لها ، ليتابع حديثه :

- إننا يا سيدتي قلقون بعض الشيء على سير تيموثي .

- هل أنت من الشرطة ؟

انطلق السؤال بصورة أرعبت تسفايغ ، أما جراي فأجاب بهدوء :

- نعم ، ولكن الأمر لم يصل بعد الى رجال الشرطة ، بل يمكن تسميته عملا خاصاً .

- من تطارد ؟ نيومن !

وبرقت عيناها بحب الاستطلاع الشره غير الخجول ، فقال جراي بحذر :

- آه لا ، ولكن إذا لم يكن سير تيموثي ، فيجب أن يكون سكرتيره .

- نعم ، إن نيومن هو الذي يهمنا ..

فقاطعته قائلة :

- ماذا فعل ؟

- لم يفعل شيئاً على ما نعرف ، ولكن أوصافه تنطبق على مهرّب ألماني لا يحق له البقاء في هذه البلاد ، فإذا كان نيومن هو ذلك المهرّب ، فكل ما نفعله هو ترحيله .

أصغى تسفايغ معجباً ومتأثراً بفصاحة صديقه وصواب ما يبتدعه من

أفكار ، وتابع جراي حديثه قائلاً :

- قد نكون مخطئين ، ولذا علينا أن نكون حذرين ، إذ ليس باستطاعتنا أن نوجّه التهم كيفما اتفق ، وسأكون شاكراً إذا كان بوسعك مدّنا بأية معلومات .

حدّقت المرأة العجوز في تسفايغ متسائلة :

- وهل يستطيع البروفسور التعرف على ذلك المهرّب ؟

حرص تسفايغ أن لا يورط نفسه حين قال :

- لا ، لا ، فقد علمت أن سير تيموثي في لندن مع سكرتير تنطبق عليه تلك الأوصاف الـ . . .

وبحث في خلايا عقله ليجد الكلمة المناسبة ، فأنقذه جراي بقوله :

- ماذا يمكنك أن تخبرينا عن هذا السكرتير؟هل حدّثك سير تيموثي عنه؟

- لم يكن لديه متسع من الوقت ليحدثني خلال هذه الزيارة ، ولم يتحدث عنه كثيراً .

- متى وصلا لندن ؟

- قبل عيد الميلاد بيوم واحد .

- هل تدري إن كان تيموثي غنياً ؟

هزّت كتفيها حين قالت :

- هذا شيء لا يمكنني اخباركم به، فهو رجل كريم من عدة نواحٍ ، ولكنه لا يحب التحدث عن المال .

اقتنص تسفايغ هذه الكلمات ليقول :

- هل تعنين أنه لا يحب هدر نقوده ؟

- ليس باستطاعتي اخباركم عن هذا ، فهو يدفع الأجرة بانتظام .

- وهل يحتاج إلى سكرتير خاص ؟

إبتسمت قائلة :

- في الحقيقة أنه لا يحتاج ، مع ان سكرتيره أقرب إلى طبيب خاص منه

إلى سكرتيره .

– هل يعاني سير تيموثي مرضاً ما ؟

ومن خلال ضحكتها العذبة ، اكتشف تسفايغ أنها فرحة بالحديث ، وأن اللحظات تطيب لها ، ولذا استمرت في الإجابة بصراحة :

– سير تيموثي يعتقد بأنه مريض ، ولعله يعاني مرضاً ما ، انه من ذلك النوع المرتجف خوفاً من أي مرض ، ومعدته ضعيفة جداً ، لانه يحس بالالم بعد كل وجبة طعام ، وانا أعتقد انه مصاب بداء الإحشاء . طبعاً هو لا يخبرني بكل ذلك .

وهنا ألقى تسفايغ بالسؤال الذي داعب خياله منذ دخوله البيت :

– وهل كان مريضاً في عيد الميلاد ؟

– لا ، بل على العكس ، لم أره أصح جسماً منه في يوم كذلك اليوم ، وإذا كان هذا النيومن مهرّباً ، فهو بلا شك يعرف شيئاً عن الطب .

– أتعتقدين انه بدا في حالة جيدة لم ترينها من قبل ؟

– بكل تأكيد ، فآخر مرة رأيته فيها كانت في آب .. كما اظن .. او لعلها في ايلول ، وقد كان مريضاً جداً ، وخيّل اليه أنه يعاني من داء الإحشاء فذهب إلى كولون لرؤية اخصائي .

قال تسفايغ :

– هل تعرفين اسم الإخصائي هذا ؟

– آ ، لقد ذكر اسمه أمامي عدة مرات ، ولكنني نسيته الآن .

– هل كان وارتيمر ؟

– آ ، هذا هو الاسم .

قال جراي صديقه :

– هل تعرفه ؟

– أعرف عنه أنه من اشهر الإخصائيين بأمراض المعدة والأحشاء في اوروبا ، ثم هو صديق نيومن الأب .

– إذن فقد قابله جوستاف هناك ، وهذه بداية حسنة ! والآن يا سيدتي ، هل لك ان تخبرينا بدقة متناهية عمّا حدثك به سير تيموثي عن سكرتيره ؟

– لم يتسع الوقت لهذا ، فهو لم يأتِ لزيارتي إلا مرة واحدة ، وقد اخبرني بأنه اكتشف طبيباً قديراً يقوم بالعجائب ، وسوف يشل الالام جميعها ، وقد ظهر كأنه رجع إلى الوراء مدة عشرين سنة ، واكتسى وجهه حمرة الصحة ، وعاد البريق يشعّ من عينيه .

– هل تكلم عن نوعية العلاج ؟

– لا ، كل ما قاله هو انه لن يراني كثيراً ، فسوف يقضي معظم وقته مستلقياً فوق سريره ، وعندما رأيته في صحة جيدة ، ظننت ان في الأمر ما يدعو إلى الغرابة .

– والآن عن نيومن ، هل رأيته ؟

– مرة أو مرتين ، إنه شاب مرح تستطيع أن تحكم بانه طبيب قدير .

– لماذا ؟

– لماذا ؟ لأنه ... يستولي عليك بجاذبيته الآسرة ... المفعمة بالدفء ، ومع هذا ، فلا يمكننا الحكم على المظهر ، هل تعتقد أنه محتال ؟

نهض جراي من على كرسيه ، مرجعاً إياه إلى مكانه ، ثم قال بهدوء :

– إن الأوصاف هذه تنطبق عليه تماماً ، ولكنها قد تكون خاطئة ، ونحن نشكرك على هذه الخدمة يا سيدتي ، وهل لك أن تتصلي بهذا الرقم عند عودتها ؟

ورفرفت خيبة الأمل على وجهها وهي تأخذ البطاقة من يده ، فقد كرهت أن يتركا المكان ، لذا سألت بفتور :

– هل ستعودان ثانية ؟

– يستحيل علينا أن نعرف ، فمشكلتنا التالية هي محاولة العثور على سير تيموثي ، قلت بأنك لا تعرفين أين هو ؟

– أظن أنها ذهبا إلى بيت سير تيموثي في بيرث ، سأعطيكما العنوان .

– شكراً لك ، فنحن نعرف عنوانه ، ولكن هل تعرفين إذا كان سير تيموثي

يملك بيتاً آخر أو شقة ، أو مزرعة في مكان ما ، من انكلترا ؟

ـ معرفتي به تجعلني أشكّ في ذلك .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه لا يحب هدر نقوده ، ولهذا انتزع الهاتف من شقته هذه .

ـ آه ، هذا صحيح ، وعلى كل حال نشكرك لمساعدتك القيمة .

عندما خرجا تحت الندف الثلجي المتساقط ، قال جراي :

ـ أنا مدين لك بإعتذار يا كارل .

ـ لماذا ؟

ـ لو تركتك تنفّذ خطتك لما تأخرنا نصف ساعة عن موعد خروجها .

ـ إن ذلك مجرد سوء حظ ، والآن ما هي الخطوة القادمة ؟

ـ أقترح أن نحاول مع الرجل الآخر ... ما اسمه ؟

ـ هل تعني جاردنر .

ـ إن اسمه لمألوف لدي ، أين سمعت به من قبل ؟

لم يتابع حديثه لرؤيته سيارة أجرة ، فصرخ بأعلى صوته :

ـ تكسي ، تكسي .

توقفت السيارة فجأة متزحلقة فوق ذوب الثلوج ، ناثرة المياه الموحلة على سيقان سرواليها ، وحينما صعد تسفايغ الى السيارة همس لنفسه :

ـ قد أكون مخطئاً ، ولكن هذا الرجل كتب إليّ عن موضوع ما ..

ثم أعطى السائق العنوان ، فتغيرت السيارة اتجاهها مارة بمحطة جنوب « كنزنجتون » .. وتابع تسفايغ حديثه مع صديقه :

ـ أريد تهنئتك على الطريقة اللبقة التي أدرت بها الحادثة مع المرأة العجوز ، فقصتك عن المهرب كانت مقنعة جداً ، وأرى أن نعيد هذه القصة مع جاردنر هذا .

ـ إن ذلك يتوقف على نوعية السامع ، ولو أخبرنا العجوز مثلاً بالحقيقة لانتشرت القصة في بيوت لندن هذا المساء ، وأراهن بأنها في هذه اللحظة تستند على سماعة الهاتف تخابر عجوزاً أخرى عن زيارتنا .

ـ ولكن هل تعتقد أنه من المناسب أن نخبر أحداً بشكوكنا في أن جوستاف قاتل ؟

ـ لا أدري ، فقد نجبر على ذلك .

توقفت السيارة بالقرب من بناء يقع في شارع اليزكورت حيث ذابت الثلوج ونقشت الأرض بحصى متشققة ، وألقى جراي نظرات خاطفة على قائمة الأسماء خارج البيت ، أما تسفايغ فقد تبيّن له أن هذه الأسماء تخصّ أصحاب الرتب الشهيرة ، والأموال ، مما جعل جراي يقول :

ـ الطابق الثالث .

فتحت لهما الباب فتاة نضرة لتبادرهما بسؤال مفاجىء :

ـ إلى من تريد التحدث يا سيدي ؟

أجاب تسفايغ :

ـ لقد خابرتك بالأمس ، وأريد أن أرى السيد جاردنر . تكاثفت الغيوم بالقرب من عيني الفتاة حين قالت :

ـ هل لك أن تنتظر يا سيدي ، فالسيد جاردنر يعمل في مثل هذه الساعة عادة . ما هو الاسم ثانية ؟

ووقف الاثنان يحدقان بالباب المغلق ، وابتدأ جراي الحديث مرة جديدة:

ـ هذا نوع فريد من البناء .

وما كاد ينهي جملته حتى شرع الباب وأطل منه رجل طويل القامة صارم الوجه ـ يحمل سمات رجال الجيش ، جاء على عجل ليرحّب بالبروفسور :

ـ يا سيدي العزيز إن هذا لشرف عظيم لي ...

وبدت عليه الدهشة حين رأى جراي ، وتسلّلت الحيرة إلى نفس تسفايغ. فلعل الرجل قد ارتكب خطأً ما ، إذ أنه لم يره من قبل ، مما دعاه إلى القول :

ـ أنا بروفسور كارل تسفايغ ، وهذا صديقي سير تشارلز جراي من اسكتلانديارد . فأسرع جراي إلى القول :

– من اسكتلانديارد سابقاً .
– هذا رائع ، رائع ، تفضلا .
وتدحرج أمامهما فاركاً يديه ومتابعاً حديثه :
– إن زوجتي ليست هنا الآن وسيؤسفها عدم رؤيتك .
احتار تسفايغ في العاطفة الفيّاضة التي غمره بها الرجل ، وفسّرها بأنها الضريبة التي يؤديها المعجبون لإنسان يشاهدونه على شاشة التلفزيون . ولكن هذا التفسير بعيد عن الحقيقة ، فليس في غرفة الجلوس جهاز تلفزيوني .
كانت الغرفة فسيحة إمتازت بأثاثها القديم الذي لم ير له تسفايغ مثيلاً في جميع البيوت التي زارها ، حتى بيت جراي . وكانت هذه الغرفة تمتاز عن غيرها بعددٍ من الزخارف البربرية النادرة المتناثرة فوق الرفوف وعلى الفتحات الحائطية ، وفوق الطاولة ، فالنظرة الخاطفة إلى محتوياتها تدل على أنها عبارة عن نصب تذكارية حملت من أفريقيا ، الدرع الكبير الملون ، والرمحان المتقاطعان علقا فوق المدفأة ، وأخرى من مصر والهند واليابان ، كما أن شقاً حائطياً حوى على وجه حجري كبير طوله قدمان ، نقشت عليه خطوط قديمة.
... استمر جاردنر في الحديث :
– تساءلت كثيراً عمّا إذا كنت ستحقق ما وعدتني به في رسالتك ، ولكن بعد مضي ثمانية شهور ، فقدت كل أمل .
أحدثت هذه الكلمات ثغرة في عقل تسفايغ ، فهزّ كتفيه ليقول :
– مضى على ذلك وقت طويل ولكن ...
ورمى جراي صديقه بنظرة استغراب وهو يقول :
– لم أكن أعرف أنكما تتبادلان الرسائل ...
ثم تدارك الأمر ، فتوقف عن الكلام لملاحظته أن صديقه محرج ، فهو لا يتذكر الوجوه والاسماء .. وأجاب جاردنر بزهو :
– أوه ، تبادلنا عدة رسائل بعد نشر المجلد الثاني من « الفلسفة الإلهية البروتستانتية » . فقد أسرتني نظرية البروفسور عن المخلص في الأساطير

السلتية⁽¹⁾ ، وأنا أملك الدليل القاطع على أن سكان « ويلز » عبارة عن قبيلة من قبائل اسرائيل الضائعة .
عادت الذكرى إلى عقل تسفايغ ، فلم يدر أيفرح أم يحزن ، ثم إبتسم لصديقه محاولاً بحركة من رأسه أن يستنجد به لإنقاذ الموقف الحرج ، فأسرع جراي ليقول :
– إن الحديث في هذا الموضوع ليسرني ولكنني أحب أن أشير إلى أن مجيئنا هنا لا يتعلق بمناقشة الأساطير السلتيه ، مهما كانت الدوافع الخاصة التي أخفاها عني صديقي تسفايغ ...
ثم اطلق عدة سعلات خافضاً عينيه ، فعلم صديقه ان هذه اشارة غامضة كي يبعد عينيه عن وجهه .. وابتسم جراي ليتابع الحديث :
– لقد جئنا لنسألك عن صديقك سير تيموثي فرجوسن .
– آه آسف ، هل لكما ان تجلسا ؟ ماذا تشربان ويسكي ام شيري ؟ فطلب كلاهما قدحاً من الويسكي .
وناولهما جاردنر كأسيهما نصف المملؤين وذهب ليملأ إبريق الماء ، فأسرع تسفايغ إلى القول بصوت هامس :
– لم أكن اعرف ذلك ، فهو رجل معتوه ، يؤمن بنظريات غريبة ، اهمها أن الإهرامات المصرية عبارة عن مقابر كهنة الإنكليز القدماء .
– لا شك أن إجابتك على رسالته كانت مشجعة .
– اغلب الظن انني قلت له بأن نظريته أسرتني إذ لم أر مفراً من ...
وتوقف عن الحديث عند عودة جاردنر إلى الغرفة ، ثم التفت اليه ليقول :
– كنت أحدّث صديقي عن نظرياتك التي اسرتني مع أنني لا املك دليلاً حاسماً لتأييدها .
أجاب جاردنر شاهراً اصبعه :
– آه ، وهذا ما كتبته في رسالتك ، واذكر أنني طلبت منك ان تأتي

---

١ – سلتي . نسبة إلى سكان غربي أوروبا الأقدمين .

لمقابلتي ولتقديم الأدلة التي تريد .

رشف تسفايغ من قدحه ، وخيّل اليه أن مشروب جاردنر اقل غموضاً من أفكاره . وقال جاردنر :

– والآن لنتحدث عن تيم فرجوسن ، وعندما ننتهي منه نعود إلى مناقشة الأفكار المهمة .

جلسوا جميعهم ، فلاحظ تسفايغ أن نعل حذاء جاردنر قد صُنع من « الكريب » ويبلغ سمكه أكثر من إنش ، وفكر ، لماذا . ولكن صوت جاردنر قطع عليه تفكيره حين قال :

– إنه في كولون في هذا الوقت .

أجاب جراي :

– اعتقد انك مخطيء يا سيدي ، فمنذ ساعة واحدة كان في لندن ، وهو الآن في طريقه ليستقلّ قطاراً ما .

– هذا غير صحيح ، فهو يأتي لزيارتي إذا مرّ بلندن ، لقد قضينا عدة سنوات معاً في سيلان .

أجاب جراي :

– وهذا ما يقلقنا ، إذ أن لدينا دليلاً قاطعاً يقول بأنه أمضى ليلة عيد الميلاد في شقته في بلهام بلاس مع رجل يدعوه بسكرتيره .

– لا أفهم ما الذي تعنيه تماماً ، فهل لك أن توضّح القصة ؟

– حسناً ، اسمع ، هناك أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد بأن السكرتير قد يكون مجرماً ، هل كتب اليك من كولون ؟

– لا فنادراً ما نتراسل ، ولكن أي نوع من المجرمين ؟

– قد يكون محتالاً ، هل السير تيموثي يملك ثروة كبيرة ؟

– الأغلب أنه مليونير ، ولكن أي سبب يدعوكما إلى الاعتقاد بأن سكرتيره محتال ؟

– اننا لا نملك دليل ثقة بعد ، ولكن أوصافه تنطبق على رجل تبحث عنه

الشرطة الألمانية .

– وكيف عرفت هذا ؟ آه ، قلت أنك من الذين عملوا في اسكتلنديارد سابقاً . تأكد تسفايغ من ان جاردنر يمتاز بحدّة الذكاء ، بالرغم من أفكاره الدينية الجنونية . فطريقته في الإصغاء ، وتحديقه المستمر من وراء حاجبيه ، أقنعا تسفايغ أنه ليس بمعتوه . وقال جراي :

– نعم ، وتحرياتنا ما زالت تجري في نطاق خاص ، وذلك لعدم وجود الدليل القاطع على أن هناك جريمة ارتكبت ، أو أنها وشيكة الوقوع . قال جاردنر :

– ألا تعتقد أن من الأفضل أن تخبرني بالقصة من بدايتها !

فالتفت جراي إلى تسفايغ لعلمه بأن صديقه لا يحبذ إنتشار القصة التي ستلصق لقب قاتل بنيومن ، ليستطلع رأيه ، فقال تسفايغ بلا مبالاة :

– لا أعتقد أن ذلك سيلحق الأذى بجوستاف نيومن . . .

والتفت إلى جاردنر ليتابع حديثه :

– ولكن علينا أن نسألك الكتمان ومعالجتها بسرية تامة ذكية .

لم يقل جاردنر شيئاً وإنما اكتفى بهز رأسه دون أن يفارقهما ببصره ، مما جعل جراي يقول :

– حسناً . نحن نعتقد أن نيومن قد يكون قاتلاً .

– هل تعني السكرتير ؟

– نعم ، والظاهر أنه يعمل كطبيب خاص للسير تيموثي .

– هل هو مطارد من قبل الشرطة الألمانية ؟

– لا ندري بعد ، فاحتمال تجريمه برز منذ اليومين السابقين صدفة ، كارل . . .

وأشار جراي الى البروفسور كأنما يعطيه الإذن لسرد بقية القصة ، وقد استطاع تسفايغ أن يلخصها في عشر دقائق ، وما أن انتهى منها حتى قال جاردنر بحدّة :

– هذا واضح جداً ، إن الرجل قاتل .

فقال جراي :

– هل تعتقد ذلك ؟

– نعم ، هل عندك أي شيء يخصّ هذا الشاب تيومن ؟

– لا ، لماذا ؟

– للأسف ، قد أستطيع اكتشاف ...

– اكتشاف ماذا ؟

– آ ، أنا أذكر بأن « تيم » ترك قفازه هنا .

وبسرعة ضغط على جرس فظهرت الخادمة :

– أحضري قفاز سير تيموثي الذي تركه هنا .

تبادل الصديقان النظرات الحائرة ، وتابع جاردنر حديثه :

– أريد أن أحاول طريقة « سلتية » سحرية ، قد ترشدنا إلى شيء مـا نطلق على خطاه .

تمالك جراي نفسه حتى لا ينفجر وتتناثر كلماتـه لتخبر الرجل بأنها على موعد هام ، فقد تطفل جاردنر كثيراً ، معتبراً نفسه بأنه على صواب ، إذ كان يتحرّك بثقة في غرفته الكبيرة ، آخذاً عدداً من العصي المحززة من الخزانة ، ثم خالعاً حذاءه السميك النعل ، وانطلق تسفايغ ليسأل :

– أرجو أن تعذرني على سؤالي المتطفل ، ولكن لماذا تحتذي نعلاً سميكاً كهذا ؟

– لقد لاحظت أنك راقبته ، والسبب يتعلق بالتيارات التي في الغرفة .

ردد جراي بدهشة :

– التيارات ؟

وحدّق في منطلق القوة الكهربائية ، فأجاب جاردنر :

– تيارات أثيريـة تنبعث من كل هـذه الأشياء المختلفة ، وكما يعرف البروفسور ، فالأشياء التي تتفاعل مع الشعور الجامع الثوري ، خـاصة الشعور الديني ، تلتقط قوى خفيفة من الشعوب القديمة التي كانت على علاقة بهـا ، وأنا حين ألمسها يلسعني بعض من هذا التيار إلا إذا قبضت على تراب منا ، أو لبست نوعاً آخر . يصيبني تياران متصارعان ، لأن الإيمان العميق الذي تعبر عنه هذه الأشياء ، كثيراً ما يصطدم بوحشية بدائية ، ولهذا فأنا أتعرض لنوع من الإعدام الكهربائي النفسي إذا لم أضع نعالاً سميكة في قدمي .

تساءل تسفايغ :

– وماذا عنا نحن ؟

– هذا يتوقف على مقدار حساسيتك تجاهها ، قد لا تكون موصلاً للكهرباء مثلي ، ولما كانت زوجتي وسيطاً ، فأنا أستطيع بواسطة هذه الأشياء أن أصيبها بضرر بالغ .

أحضر جاردنر تمثالاً « سلتياً » قديماً ، ووضعه في زاوية من زوايا الغرفـة ، وقد أزيح الزجاج الملتصق بصندوقه ، ليظهر على شكل رأس طاولة ، وهناك جلس لينظّم عصيه إلى أكوام ، ثم قال دون أن يلتفت إليهما :

– أنت تعرف كل هذه الطقوس يا بروفسور ، أليس كذلك ؟

– انها تشبه طريقة الصينيين عند استشارتهم « التشنج الأول » .

– هذا صحيح ، والآن أين القفاز ؟

ألقى القفاز عند قدمي التمثال ، ليتابع تحريك العصي واضعاً بعضها خلف ظهره ، وبعد خمس دقائق من هذه العملية الغريبة لم يبق معه الا كومة واحدة من العصي ، فأخرجها واحدة فواحدة ليتفحصها بدقة تامة ، ثم قال :

– هذا غريب جداً ، فهي تقول بأن « تيم » في خطر كبير ، خطر غـير جـدي .

وقف ليحدّق طويلاً في العصا الباقية في يده ، ثم قال بضيق :

– هذا جنون .

التفت جراي بسرعة نحو الطرف الآخر ليخفي إبتسامة عريضة نبتت على وجهه ، وليوقف ضحكة أرادت أن تنفجر ، ثم سأل بسخرية :

– ما هذا الجنون ؟

– هذا فقط ، قد يكون في خطر روحي بسيط هـذا العجوز الشرس .

عادت إلى جراي طبيعته الهادئة وهو يقول :

– أريدك أن تعرف يا سيد جاردنر أنني رجل شرطة عادي ، لم أتوقع أن أشاهد هذه الألاعيب السحرية في لندن ، علماً بأنني شاهدتها عندما كنت في الشرق ، وكل ما أرجوه أن تغضّ النظر عني ، لأنني لا أهتم بعصيّك الصينية هـذه .

– إنها ليست صينية أيها الصديق ، يمكنك أن تحرقها .

وكأن جاردنر لم يسمع ملاحظة جراي ، أو يهتم التفسير ، فقد تابع تحديقه وعبوسه في العصي ثم قال :

– يستحيل أن أرتكب عملاً خاطئاً ...

هزّ كتفيه بلا مبالاة وهو يرمي العصا الباقية فوق كومة قديمة :

– لا يمكن أن نقوم بعمل ما ، فلا خطر من ضرر جسدي يحدث له .

وسأل جراي بسخرية :

– هل بإستطاعة هذه العصي أن تخبرنا عن مكانه ؟

– أوه لا ، هذا مستحيل ، فهي لا تملك الا عـدداً محدوداً من الرموز ، ولكن قد تساعدنا زوجتي إذ استطعت أن أنوّمها ، أعني أحلها على الغيبوبة ، وهي في المساء أكثر استعداداً .

كرع تسفاينغ جرعة كبيرة من قدحه ليخفي إبتسامته هذه المرة ، وأعطى الفرصة لصديقه ليسأل :

– هل لديك أية فكرة عن المكان المحتمل وجوده فيه ؟

– لا أدري .

أجاب دون تفكير ، ثم فجأة حرّك رأسه مركّزاً عينيه على جراي :

– ماذا قلت ؟ دعنا نفكر أين يمكننا ان نجد رجلاً غريب الطباع مثـل « تيم » ، فهو يملك ثلاثة أو أربعة مخابىء في أمكنة مختلفة من انكلترا .

– هل أنت واثق من ذلك ؟ إن صاحبة شقته في بلهام بلاس لا تؤيد هـذا

الرأي .

– لماذا ؟

– لإيمانها بأنه لن يتكفّل بدفع أجرة أي مكان لا يستخدمه .

– هذا صحيح ، فهو لا يحب الإنفاق ، وأذكر أننـا كنا في « كورنول » معاً ، حين اشترى بيتين ريفيين بعشرة جنيهات ، أعني كل بيت بعشرة جنيهات ، وأوصى بواباً ليعتني بواحد منها ، ثم حصل على من يعتني بالبيت الآخر دون مقابل ؛ والمعروف بحبه لشراء البيوت الريفية بثمن رخيص جداً ، وهو غريب الأطوار ، كما سوف تكتشف ، فقد بيع والده مرة بأمر من المحكمة لعدم دفعه قائمة من القوائم ، وسير تيموثي يعتبر أن امتلاكه لهذه البيوت يضفي عليه الأمن .

قال جراي :

– أما بالنسبة الينا ، فهي تعقّد القضية .

– لا اوافقك . دعني أفكر ؛ إنه يملك بيتاً أو بيتين في « كورنول » وآخر في « ويلز » بالقرب من « أبر جافني » وثالثـاً في منطقة البحيرات بالقرب من « كونيستن » ورابعاً في مكان قريب من « برمنغام » .. و ..

صرخ جراي فجأة :

– يا إلهي لماذا لم أفكر بهذا من قبل ؟ أكان علينا أن نسأل سيارات الأجرة التي تقف بالقرب من محطة « ساوث كنزنجتون » ... و ...

فقاطعه تسفاينغ ليسأل بدهشة :

– عمّ ؟

– اسمع ، لو انه اتصل بسيارة أجرة لسمعته المرأة العجوز إذ أن الهاتف يقع في الغرفة الأمامية ، كما تذكر ؛ وكما هي العادة عندما تطلب من أية سيارة أن تأتي لتأخذك من بيتك ، يسألونك دائماً عن المكان الذي تريد الذهاب اليه ، وعلى هذا ، فقد خرج تيوس وسار مسافة خمسين ياردة ليحضر سيارة أجرة من الموقف القريب .

فتحمّس جاردنر للفكرة عندما قال :

– هذا ما يسهّل القضية ، فسيارتي في الخارج ، لماذا لا نذهب ونسأل ؟

فسارع جراي يقول :

– أرجوك أن لا تزعج نفسك ، فيمكننا أن نأخذ سيارة أجرة أو باصاً .

– لا داعي للمناقشة ، فقد أستطيع مساعدتكما بهذه الطريقة بحيث أنني لم أستطع مساعدتكما بطرق أخرى .

وتقدّم أمامهما وهو يصرخ :

– مارغريت ، أخبري زوجتي بأننا لن نتأخر أكثر من عشر دقائق .

ثم وضع على رأسه قبعة مصنوعة من جلد الغزال وقال :

– هيا ، لنذهب الآن .

ولمح تسفايغ الإنطباع الذي رسم على وجه جراي وهم يخرجون الى الشارع العام ، إذ رفع عينيه الى السماء بتضرع وابتهال .

كانت سيارة جاردنر تقف بالقرب من البناية ، تحت لوحة صغيرة كتب عليها « ممنوع وقوف السيارات » ، وكانت من نوع « روفر ٩٠ » . وقد توقّع تسفايغ أن يرى سيارة حمراء مكشوفة ، إذ خيّل إليه ، أنها ستضفي احتراماً كبيراً على شخصيته المهلهلة التي لم يكن لها من أثر يذكر في بيته ، وقد تراكمت الثلوج فوق اللوح الزجاجي الأمامي مما دلّ على أنه لم يستعمل سيارته في ذلك اليوم ، ولكن محرّكها دار حين وُضع المفتاح . وبحركة عادية لمس جاردنر طرفي شاربيه كأنه يعدّهما للمطاردة ثم قال :

– لقد انتابني شعور جارف بأنني سأقضي عيد ميلاد مثيراً ، وأنا لن أخطىء أبداً .

انسابت السيارة فوق الشارع بهدوء ، بينما أخذت الماسحتان تعملان دون ضرر في إزالة الثلوج من على اللوح الزجاجي الأمامي . وساد صمت قطعه جراي بقوله حين أعلنت الساعة الواحدة :

– لو افترضنا بأنها أخذا سيارة الأجرة في الحادية عشرة والنصف ، فستعود في الثانية عشرة والنصف ، ولنفرض أن محطتها كانت « بادنجتون » أو

« سانت بانكروس » أو « فيكتوريا » ، فعلينا أن ننتظر إذا غادرت السيارة ذاتها الموقف في رحلة ثانية ، علينا أن نجد السائق أولاً .

وتوقفت سيارة جاردنر مقابل موقف السيارات حيث كانت ثلاث سيارات تنتظر هناك ، وما أن وقفوا حتى بدأت واحدة بالتحرك ، فقفز جراي واسرع نحوها ، وراقباه وهو يحدث السائق حديثاً قصيراً ، ثم أخرج من محفظته قطعة من النقود ناولها للسائق الذي إبتسم فجأة ، قال جاردنر :

– لقد اكتشف شيئاً .

وقد كان هذا واضحاً من الإبتسامة التي كست وجه جراي حين فتح باب السيارة ودلف إلى الداخل ليقول :

– الحظ معنا ، فقد نقلها ذلك السائق من البيت رقم ٧٤ بلهام بلاس في الحادية عشرة والنصف إلى محطة « كنجز كروس » ولم يعرف عن قطارها شيئاً ، مع ملاحظته بأنها لم يكونا على سرعة ، وقد جاءه الشاب إلى الموقف ، وكانت عيناه سوداوان وشعره أسود أيضاً .

فقال جاردنر :

– كنجز كروس ، هذا يعني أنها في طريقها إلى « بيرث » أو إلى « باري سانت أدموند » .

– وماذا عن « باري سانت أدموند » ؟

– لقد تذكرت الآن بأن فرجوسن يملك بيتاً هناك ؛ أوه ، كان علي أن أفكر في ذلك من قبل . وإذا كان في طريق عودته إلى اسكتلندا فهو سيتوقف هناك .

قال جراي :

– خطوتنا القادمة هي الإتصال بالمحطة لنعرف القطارات التي غادرتها فيما بين الثانية عشرة والواحدة .

– لا حاجة لذلك ، هيا نعود إلى البيت ، أعني بيتي ونبحث عن ذلك في دليل القطارات .

وأدار السيارة قبل البدء في مناقشة جديدة ، وحين خرجوا من السيارة بعد عدة دقائق همس جراي في اذن تسفايغ :

– لم أشارك في حياتي في قضية قتل مجنونة مثل هذه .

قال جاردنر : هذا عظيم فزوجتي في البيت الآن .

وقفت سيارة بيضاء مكشوفة حيث كانت الروفر ، وقال جراي :

– هل يعطونك مخالفات لعدم تقيدك بنظام وقوف السيارات ؟

فأجاب جاردنر بلطف :

– يجب أن أضع سيارتي في مكان ما ، وعلى كل حـال فصداقتي متينة مع الشرطة المحلية .

ثم توّجه بحديثه إلى البرفسور :

– سوف تسرّ زوجتي برؤيتك ، فهي واحـدة من المعجبين بك إعجاباً كبيراً .

فدمدم تسفايغ : إن هذا ليسعدني .

واجابه جاردنر بتودد :

– إن سعادتك لا تعادل نصف سعادتها .

وفي طريق العودة إلى البيت وجّه جاردنر إليها دعوة لتناول الغداء،فخيّل لتسفايغ أن نازعاً غريباً يلازم شخصية جاردنرويلتصق بها رغم مظهره المتقلب.

وما أن فتح الباب ودخلوا حتى إرتفع صوته ينادي زوجته :

– ناتاشا ، ناتاشا .

وتسلّل إلى مسامعهم صوت ناعم هادىء:

– لا تصرخ يا جوزف ، فهذا شيء لا يليق بك .

– آسف يا عزيزتي .

ولأول مرة منذ أن قابلاه ، انقلب إلى شاة صغيرة خانعة ، ووجد تسفايغ انه بدأ يحب صوت المرأة غير المرئية . وقال جاردنر مرة ثانية :

– خمني من أحضرت معي ؟

أجاب الصوت بسرعة :

– أنا أعرف يا جوزف .

ولاحظ تسفايغ أن الصوت مشبع بلكنة أجنبية خفيفة ، حيـنما تابعت لتقول :

– لقد أخبرتني مارغريت .

وبرزت المرأة من غرفة النوم . وكانت أصغر سناً مما توقعا ، فإن عمرها كان ما بين الخمسة وعشرين والأربعين عاماً ، وهي تحمل وجهاً روسياً تبرز منه عظام الخدين ، وكانت تسدل شعرها الأسود الطويـل فوق كتفيها ، ولم تصبغ وجهها بأي نوع من المساحيق ، الا لمسة خفيفة من أحمر الشفاه ، وقد تـمازجت صفرة وجهها مع شعرها الأسود الطويل وفستانها الأسود الصوفي فأضفت عليها مسحة من جمال رائع ، جعلت عينيها تبدوان كعيون الصينيات . وعندما اقتربت منها رآها تسفايغ عن قرب فبدا أنفها معوجاً بعض الشيء ، مع حـدّة بارزة في ذقنها ، مما أزال الإنطباع الأول البعيد عن جمالها الرائع . وقالت وهي تصافحه بطريقة فيها من الدلال الشيء الكثير :

– إنه لجميل منك أن تزورنا أيها البروفسور .

وقدّمها زوجها إلى جراي ، فقالت بسرعة :

– لنذهب ونشرب قدحاً من المشروب . فالطعام سيكون جاهزاً بعد عشر دقائق ولا شك أنكما تشعران بالبرد .

ثم التفت إلى تسفايغ :

– لا أستطيع أن اعبّر لك عن مدى سعادتي .

كان ترحيبها به حاراً ومشجّعاً وحتى ودّياً ، ولكنه لم يعجب به ، لأنه رغم بلوغه الستين ، ما زال يحلم كما كان في العشرين ، بالمرأة المثالية ذات الشعر الفاتح والعيون الزرقاء العميقة والمظهر الساذج البريء ، فثلاث من النساء عبرن حياته وامتزن بتلك الصفات . وكانت آخرهن احدى تلميذاته السويديات . ومع ذلك فرغبته في هذا النوع ما زالت قائمة وثابتة ، والمظهر البريء جدّ مهم بالنسبة له .

ولما كان هدفه الأول الأفكار ، فالنساء ذوات الشخصيات القوية المسيطرة يبعثن في نفسه الضجر ، ويشعر معهن بأن ذلك بديل غير عادل للعقل الخلاق .

أخذ جاردنر يبحث في دليل القطارات وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة ، بينما سمح الصديقان للسيدة بأن تضع مزيداً من الويسكي في قدحيهما ، وفجأة صرخ جاردنر :

– وجدتها ! فقطار نوريتش يغادر محطة كنجز كروس في الثانية عشرة والدقيقة العشرين ، وهناك قطار أدنبره الذي يغادر المحطة في الثانية والنصف ، وأنا أعتقد أنها ذهبا إلى نوريتش .

فسألته زوجته : هل ستذهب إلى نوريتش يا عزيزي ؟

كان صوتها رخيماً عذباً لا إستهجان فيه ، مما جعل جاردنر يجيب عليها وهو يصبّ لنفسه مزيداً من الويسكي :

– قد أفعل ذلك .

ثم تابع قائلاً :

– إن زوجتي وسيط ناجح ، ولو كان معنا أي شيء يخص نيومن لأخبرتنا حالاً إذا كان مجرماً أم لا .

– نيومن ؟ ما اسمه الأول ؟

– جوستاف .

مالت السيدة جاردنر بجسدها إلى الأمام لتحدّق في النار ، بينما قال الزوج :

– إنها تأخذ انطباعاتها من الأسماء ، ولكنها ليست دقيقة ، بالرغم من أنها كانت على صواب في عدد كبير من تنبؤاتها المباشرة .

تجاهلت وقالت بهدوء :

– نيومن لا يوحي إليّ بأي نوع من الإجرام ، لعل هذا مجرد اختلاط الأفكار ... ولكنني أرى إنساناً له علاقة ما بالأعصاب ، وربما بالدماغ .

ثم تطلعت إلى تسفايغ :

– عالم نفساني أو جراح دماغ .

فشعر تسفايغ بدهشة عارمة تثور في رأسه وهو يقول :

– هذه دقة مدهشة فقد كان والده جرّاح دماغ شهيراً ، ولعلك سمعت باسمه .

– هذا محتمل جداً ، فقد قضيت طفولتي متنقلة في أوروبا .

وهنا دخلت الفتاة الفرقة لتخبرهم بأن الغداء في إنتظارهم ، فقال جاردنر :

– أتودّان غسل أيديكما؟ هناك الحمام وفيه مغسلتان تستطيعان استخدامها معاً في وقت واحد .

سرّهما هذا الإقتراح فسوف يتحدثان بانفراد للحظات . قال تسفايغ وهو يغلق الباب بعناية بالغة :

– يجب أن نمنع صديقنا هذا من الإشتراك في هذه القضية .

وخلع جراي معطفه ، وأبى أن يتحدث بصوت منخفض :

– لا أستطيع الجزم بالحكم على شخصيته ، هل هو مخادع أم هوائي ، هل قلت بأنه كتب إليك رسالة غريبة ؟

– رسالة مجنونة ، فهو يعتقد أن على العالم اللاهوتي أن يكون خبيراً بشعائر السحر القديمة وبالأساطير أيضاً ، ولم أكلف نفسي عناء الشرح حين كتبت بأن إهتمامي بعلم اللاهوت نشأ من دراستي للغة .

ووقفا متجاورين ينظران بإعجاب إلى أعمدة الصابون البنفسجي ذات الرائحة المنعشة الغريبة . وسأل جراي دون مقدمات :

– ما رأيك في زوجته ؟

– غريبة ، فقد توقعت أن تكون غبية ذات شعر غير مسرح ، والغريب أيضاً : هل هي وسيط ؟

– ماذا تعني ؟

– هل هي من يشجع زوجها على صنع أفكاره ونظرياته ؟

– تعني هل تزوجته من أجل ماله ؟

– هذا ممكن ، وماذا عن جنسيتها ؟

– إنها روسية أو هنغارية ، مع أنها توحي إليّ بأنها دربت على أن تكون ممثلة أو عارضة أزياء .

– ممثلة ، إن صوتها يجلب لها ثروة كبيرة على الشاشة .

قال تسفايغ وهو يمسح يديه بالمنشفة :

– إن ما يقلقني صراحة هو مجيء جاردنر معنا إلى باري سانت أدموند .

فأجاب جراي : توقع هذا يا صديقي .

وعندما رجعا إلى غرفة الطعام رحّب بها جاردنر بحرارة صادقة، حتى أنها شعرا بالإثم لحديثها عنه ، واتجهت السيدة جاردنر نحو تسفايغ فأخذت يده بين يديها لتحتضنها بحب ثم قالت له بعذوبة حلوة :

– عزيزي أيها البروفسور ، أريدك أن تأتي معي للحظات ...

فإستجاب تسفايغ لهذا النداء ، مع ملاحظته أن الزوج مـا زال يتحدث بحماس بالغ مع جراي ، وسار مع السيدة في الممر المغطى بالسجاد الوثير ، شاعراً بأن يد السيدة تزداد برودة مع الوقت . ودفعت باباً ، فوجد نفسه في غرفة نومها ، وقد اعتراه انذار أشبه بالبهجة ، ورجعت إليه سنوات عمره الماضية ، فيدها ما زالت قابضة على يده ، وهي تقوده إلى غرفة نومها ، حيث شاهد الفراش وهو معرض للهواء النضر . وبسرعة استقرّت عيناه فوق قميصها الليلي الأسود المصنوع من النايلون .

قالت وهي تشير إلى رف الكتب :

– هناك أردتك أن تكون فوق مستوى أي كاتب ، فأنا أضع كتبك التي ترجمت بجانب فراشي ، لأنك رفيق ليلي كل ليلة . وحين نظر وجد كتبه جميعاً هناك ، وتسللت يدها لتستريح فوق ذراعه للحظة ثم قالت بعذوبتها الساحرة .

– هناك استثناء واحد، فكتابك المسمى « الطبيعة الخلاّقة للعمل الجنسي» أحتفظ به بالقرب من سريري .

فتصاعد الخجل والضيق إلى نفسه ، وأصابته حيرة ، فسعل وهو يقول :

– هذا الكتاب ألفته في بداية عهدي بالتأليف .

وأحس بأن عذره هذا زاده حرجاً عندما سمعها تقول :

– أنا أؤمن بأنه من أعمق كتبك وأجلها ، هل لك أن تتكرم ...

وأخذته من يده ، ساحبة إياه نحو السرير ، وللحظة ملعونة أخطأ فيا تقصد، وشعر كأنما قنبلة هائلة إنفجرت داخل رأسه ، وفكر ، ماذا يفعل ؟ ثم إنقلبت إليها وهي تتناول الكتاب وقلم الحبر ، فإرتجفت يده التي أرادها أن لا تخونه ، ونبتت على وجهها إبتسامة طفولية عابثة ، فترنح البروفسور ، وشخبط فوق كتابها بكلمات غير مقروءة ثم أرجعه إليها .

تناولت الكتاب دون أن تسترجع عينيها عن وجهه وقالت :

– إن زوجي يسخر من إعجابي بك الذي يشبه بجموح تلميذة مراهقة .

– إن هذا ليسرني .

وتاه سروراً بنفسه حينما لاحظ أن صوته يحمل النغمة اللائقة بها ، المشوب برقة جافة . وقالت :

– يجب أن نعود إليهما .

كانت كلماتها مصحوبة بالمعنى الذي يشبه همس من يعيش التجربة الجنسية ، ومن جديد إحتضنت يده لتخرجه من الغرفة وهي تهمس في أذنه :

– عندما يكون لديك متسع من الوقت سوف نجلس معاً وسوف توقّع على جميع كتبك .

فأجاب : « – كل ما نحتاجه هو الوقت » .

التفتت إليه بإبتسامة عذبة لتقول : – بل إلى الكثير من الوقت .

وفي عودتهما وجدا جاردنر الذي لم يشعر بغيابهما ، يشرح لجراي شيئاً عن الأساطير الأندونيسية بحماس كبير ، فهمست السيدة للبروفسور :

– يجب أن تجلس بجانبي .

وقادته كالطفل إلى كرسيه وهي قابضة على يده ، وقد أفعمته دهشة غريبة، فهي لم تأبه لوجود زوجها ، ولم تهتم إلاّ به وكأنه يملكها ، ففكر : « لعبة قديمة من ألعابها الناجحة ، فأنا آخر دمية لها » ...

وقد ساعدته هذه الفكرة ليغسل قضية حبها له ، فبدأ في شرب الحساء بعد أن عادت اليه لقته الهادئة ، وبعد أن لاحظ أن إنفعالاته الشابة هــذه تمت في خمس دقائق فقط في غرفة نومها و ... وفجأة جذبه صوت جاردنر وهو يقول:

– لقد شرحت القصـــة بإختصار لزوجتي ، فاقترحت أن نذهب إلى بارتي سانت أدموند بعد ظهر اليوم .

فقال جراي بجفاء ظاهر :

– أعتقد أن هذا ليس بالضروري .

فنظر جاردنر اليه بحدة وهو يقول :

– لماذا ؟

وتريث جراي قليلاً قبل أن يجيب :

– لا أريدك أن تشعر بأننا غير شاكرين لمساعدتك ولضيافتك الكريمة ، ولكنك تعرف أننا نلاحق قاتلاً وكلما كثر عددنا كلما ضؤلت الفرصة أمامنا .

– أنا لا أوافق هذا الرأي يا سير تشارلز ، ومهما يكن من أمر فأدلتــك تحتاج إلى اثبات ، ولو كانت محروسة لاتصلت بشرطة لندن وطلبت منهم المساعدة .

– لا ، فأنت لا تفكر مثلما أفكر أنا ، فالقضية ليست إيجاد المجرم والقبض عليه ، إنها ملاحقة محتال ... و ... وأعتقد أن البروفسور يؤيدني .

ولكن البروفسور لم يعقب بأية كلمة لانشغاله بطعامه ، وبتفكيره عن أن ناتاشا جاردنر ستكون معهم عندما ينطلقون في رحلتهم الطويلة المقبلة . وقالت السيدة جاردنر :

– أنت أيها السير لا تدري ما الذي ستفعله أمام هــذه القضية ، أعني أنك لن تجد بيت سير تيموثي الريفي ، وحتى ولو وجدته فــماذا ستفعل ؟ فأنت لا تعرفها ولو ذهب البروفسور لمقابلتها فسينتهي الأمر .

أحس تسفايغ بأن من الواجب عليه أن يقول شيئاً ما :

– أنا أعتقد بأنها على صواب يا تشارلز .

فأجاب جراي بروح مرحة :

– هذا صحيح فلم أفكر أبداً ما الذي سأفعله مقدماً ، اننا سنجد عــذراً ما لاستطلاع ما يجري هناك ، وقد لا يكون من الضروري الذهاب إلى البيت الريفي وقرع الباب ، بل سأكتفي بإلقــاء نظرة في الظلام ، والمهم أن نجعله يشعر بالمراقبة بينما نتصل بالإنتربول لنرى إن كان بوسعنا الحصول على أدلة كافية للقبض عليه .

فأخذت ناتاشا تقول :

– ولكن طريقتنا أسهل ، فعلى الطرف الآخر من الحقل يقع بيت ريفي آخر فكرنا مرة في استئجاره ، وهل هناك من سبب طبيعي آخر لي ولجوزف لندعي بأن استئجار البيت هو سبب حضورنا الى المنطقة . وسنخبرهما بأننا في طريق عودتنا من الشمال قررنا أن نستأجر البيت ، ولكننا لاحظنا دخاناً يتصاعد من بيت سير تيموثي ، فكان من الطبيعي ان نعرج لنزوره ، وإذا احتــاج الأمر فيمكننا استئجار البيت الريفي لعدة أسابيع ، وبهذا لن يجرؤ نيومن على القيام بأي عمل ونحن هناك ، وهو لن يشك أيضاً بأن الشرطة تطارده ، بينما نستطيع نحن أن نراجع سجله على مهل .

نظر تسفايغ إليها بإعجاب عميق ، فقد قطعت بفكرتها كل الطرق التي كان جراي يفكر بها ، وأوضحت أنها وزوجها حليفان مخلصان ، حتى أن جراي أحنى رأسه على مهل محدقاً في طعامه بتجهم عميق . ووجد أنه انقسم بــين غريزته القديمة التي حذرته من هذين الحليفين الجذابين الغامضين ، وبين إيمانــه بالخطة السهلة اللائقة أيضاً وقال تسفايغ بهدوء :

– قد تكون على حق في أهمية عدم معرفة جوستاف بأنه تحت المراقبة .

وتنبه جراي إلى أن الفتاة تقف في انتظار أخذ طبق الحساء ، فهو الوحيد الذي لم ينته بعد . ثم قال ضاحكاً :

– حسناً ، فنحن نرحب بمساعدتكما إن كنتما لا تتأثران بالضجر والضيق .

فأجاب جاردنر : – هذا رائع . لنحتفل بهذه المناسبة ونفتح زجاجة من

النبيذ . قال جراي : – لا شكراً فأنا أفضل السفر دون شراب لأحافظ على توازني .

ثم قالت السيدة لزوجها : – جوزف وأنت لن تشرب لأنك ستقود السيارة .

قال جراي : – يقود السيارة ؟ هل تفكرين بأننا سنذهب بالسيارة في مثل هذا الطقس البارد ؟

فأجاب جاردنر : – ولكن هذه هي الفكرة ، فإذا استطعنا اجتياز الطريق ووصلنا هناك قبلها فسوف ننجح في خطتنا وإلا فسوف نفشل ، سأتصل الآن بدائرة الإستعلامات لأستفسر عن حالة الطرق .

- ٩ -

صحا تسفايغ بعد إغفاءة دامت ثلاث ساعات ، لينظر من نافذة السيارة ويحدق في الظلام ، ثم ليسأل :

– أين نحن الآن ؟

أجاب جاردنر : – في مكان يُدعى سادبري ، وسوف نصل في أقل من نصف ساعة إذا بقيت الطريق سهلة .

قال جراي : – أنا أقترح أن نحجز مكاناً لنا في فندق قريب قبل القيام بأي عمل آخر :

فسأله تسفايغ : – هل تعتقد أنها فكرة حسنة ؟ لنفترض أنها في طريقها إلى اسكتلندا الآن ، ألا توافق أن من الأفضل أن نعود إلى لندن ؟

فلم يرق له أن يقضي ليلته في فندق غريب ، ولكن جاردنر قال له :

– لا أعتقد ذلك يا بروفسور فالطرق ستكسوها الثلوج خلال ساعات معدودات ، وأنا أفضل القيادة في النهار .

تطلع تسفايغ بكآبة في الثلوج التي تغطي الأرض وكبت تثاؤبه . والتفتت ناتاشا جاردنر إليه وقالت بابتسامة :

– لا تهتم بهذا كثيراً ، فأنت وأنا سنقضي الليل لنتحدث في زاوية دافئة ، سنتحدث عن كتبك .

فقال الزوج بلطف :

– لن تستأثري به لنفسك ، فأنا أريد التحدث إليه أيضاً .

فأجاب تسفايغ بدبلوماسية :

– يسعدني أن أتبادل حديث الفكر معكما .

ثم أغمض عينيه ثانية بعد أن وضع جلد الخروف فوق ركبتيه . وأثار هـذا الحب في نفسه نشوة بالفرح ، فشرد خياله في ذلك الوجه الدافيء القريب منه ، وقاده المطر الشتائي الناعم الى النوم مرة ثانية ، حتى أيقظه جاردنر بقوله :

– هذا هو البيت الريفي ومن الأفضل أن نعثر على فندق ما .

ومضت عدة دقائق ليقول بعدها :

– يا للعنة ! فقد عـــادت الثلوج تهطل بغزارة ، ولكن شكراً لله ، فنحن بالقرب من هدفنا .

قال جراي : – أنا جدّ فرح لعودة الثلوج وآمل أن تستمر .

– لماذا ؟

– لكي تزيل آثارنا ، فلن يمكننا الاقتراب من البيت دون أن نترك علامات فوق الأرض ، ولكن الثلوج سوف تتراكم فوقها .

وسارت السيارة بتمهل فوق منحدر مائل ، حتى أخذت دواليبها بالدوران الكسيح فوق الطريق المتجمدة وانتهت الى التوقف والشلل . فقال جاردنر :

– علينا أن نربط السلاسل بدواليب السيارة ، يا للعنة ! هذا فأل سيء !

– لماذا لا تدفعها الى أسفل المنحدر ونجرب الجـــانب الآخر من الطريق ؟ فالثلوج هناك أقل كثافة .

وكالفتاة الصغيرة قالت ناتاشا :

– أريد فنجان شاي .

فأجاب الزوج بلطف :

– حسناً يا عزيزتي .

ثم أتاح للسيارة أن تنساب الى أسفل التلة حيث كانت الطريق مغطـــاة بأغصان الأشجار المتشابكة التي ساعدت على منع الثلوج من التراكم فوق الأرض ، وانفضّ الضجر عن البروفسور ، فقـــد تضايق من فكرة المساعدة في وضع السلاسل على الدواليب مع أن الدنيا ظلام مغلف ببرد قـــارس ، وبدأ في إزالة

الضباب الذي علق بالزجاج الخلفي ، كي يرى جاردنر الطريق المتخلفة وراءه ، ثم وقفوا تحت الأشجـــار لكي توجّه السيارة الى الجـــانب الأيمن من الطريق ، وتندفع بكل سرعتها الى الأمام حتى تسلّقت القمة ، ممـــا أدخل الراحة الى قلب تسفايغ ، وجعل جاردنر يقول :

– لقد نجحنا ...

وفجأة صرخت زوجته :

– انتبه !

وبرزت سيارة أخرى قادمة في الاتجاه المعاكس وقد سلطت أضواءها عليهم خلال ستائر الثلوج الهابطة ، وتوقفت قلوبهم لحظة في انتظار التصادم المريـــع ، ولكن السيارتين مـــالتا ووقفتا على بعد شعيرات من بعضها ، فأنزل جـــاردنر زجاج نافذته ليصرخ :

– آسف أيها الصديق ، فلم أستطع الصعود من الجهة الثانية لكثافة الثلوج .

قال جراي : – نحن نرجع الى الوراء ، فكن على حذر .

وتأرجح نور السيارة الأمامي ليقع على سيارة أخرى قادمـــة ، بينما حاول جاردنر أن يوقفها ، وتبين لتسفايغ أنهـــا سيارة أجرة ، في حين أن ناتاشا صرخت قائلة :

– يا إلهي ! هذا تيم .

ورأى تسفايغ وجهاً أبيض يتطلع من النافذة الخلفية ، فقال جراي بلهجـــة آمر :

– أسرع الى الوراء حتى تتجاوزهم ، لا تدعهم يقفون بالقرب من سيارتنا .

ثم التفت الى صديقه قائلاً :

– وأنت يا كارل ، إخفض رأسك تحت مستوى النافذة في حـــالة تسليط أضواء سيارتها علينا !

فتبع تسفايغ في مكنه ، ملقياً برأسه على معطف جراي ، وقال جاردنر :

– لقد انتهت اللحظة الحرجة ، لأنهم استمروا في سيرهم .

سأله جراي : – هل يعرف سير تيموثي سيارتك ؟

– لا ، فلحسن الحظ أننا اشتريناها منذ شهور قليلة .

وبعد عشر دقائق توقفت السيارة بحمولتها بالقرب من فندق جورج باري سانت أدموند .

قال جراي : لقد نجحت خطتنا ، وأنا أعتقد أنهما أخذا الثاني وسوف يناما ليلتهما في الفندق .

فقالت ناتاشا : – لا أعتقد ذلك ، فتيم يخاف على صحته من البرد ، ولعله أرسل برقية للبواب ليجهّز له المكان .

– أين يعيش البواب ؟

– على بعد عشرين ميلاً في بيت تيم الآخر .

وسألهم موظف الفندق الواقف خلف طاولة كبيرة مرتفعة :

– هل ستقيمون هنا لمدة طويلة ؟

فأجاب جاردنر :

– ليلة واحدة ، وقد نقيم عدة ليال إذا إزداد تهاطل الثلوج .

واختار الصديقان غرفتين متجاورتين، أما عائلة جاردنر فقد إتخذت لنفسها غرفة واسعة بعيدة عنها .

قال الموظف : – هل أضع السيارة في الكاراج يا سيدي ؟

فأجاب جاردنر : لا أرجوك ، فقد أحتاج إليها ، ولكن قل لي هل هناك من يستطيع وضع السلاسل على الدواليب الخلفية ؟

– بكل تأكيد يا سيدي .

وعندما جلسوا لشرب الشاي في غرفة الجلوس اتضح لهم ، أنهم النزلاء الوحيدون في هذا الفندق المنعزل ، وتدفق الفرح إلى البروفسور وهو يتمتع بحرارة النار ، ويأكل بشهية سندويشات شرائح البقر اللذيذة ، وحين ابتعد النادل ليخرج من الغرفة سأل جاردنر :

– ما هي الخطوة التالية الآن ؟

أجابت ناتاشا : – خطوتي التالية أن أغرق في حمام ساخن وأغير ثيابي .

قال جراي : هناك شيء واحد يقلقني هو : هل سمع نيومن صوتك وأنت تعتذر من سائق السيارة الأخرى ؟

– لماذا ؟ وهل يؤثر ذلك ؟

– في حالة واحدة فقط ، وهي إذا رأى أكثر من اثنين في السيارة . والأمر الثاني أنه لن يمكنك الادعاء بأنك في طريقك من الشمال . .

وقف جاردنر ليستطلع رأي الخريطة المعلّقة على الحائط ، ثم قال:

– إن بإستطاعتي أن أقول إنني انحرفت عن طريقي ، وأخذت طريقاً آخر من كيمبردج نحو الجنوب ، وعلى كل حال فأنا أشك في معرفته لشخصيتي ، فالجو كان مظلماً ، مغبراً بالثلوج .

وسألت ناتاشا : – متى قررتم رؤية البيت ؟

فأجاب جراي : قد نذهب في الغد ولكن لا حاجة تدعوك المجيء معنا ، فكل ما نريده هو إلقاء نظرة فاحصة خارج البيت ، واقترح أن تأخذي حماماً دافئاً في هذه الحالة .

– لم أسافر كل هذه المسافة لأبقى وحيدة في غرفة الفندق . أنا أفضل المجيء معكم . فقال زوجها : – لماذا لا تبقين مع البروفسور ؟ فلا فائدة من حضور أحدكما .

إبتسم تسفايغ فقد دغدغته الفكرة ، ولاحظ جراي إبتسامته فقال بجفاء :

– أخاف أن نحتاج إليه لإثبات شخصية نيومن .

قالت ناتاشا : – إذن سنذهب جميعاً الآن ، ولكن يجب أن أعيد تسريح شعري وأغيّر جواربي لوجود ثقب صغير فيها .

قال زوجها : – آه ، ما من أحد سيلاحظها في هذا الظلام !

– سوف أراها أنا .

واقترب الرجال الثلاثة من النار حين تركت ناتاشا الغرفة ، فأشعل تسفايغ سيجاراً وبدأ الآخران في تدخين غليونيهما ، وأحس تسفايغ بفرح ولد مدرسة

صغير ، فقد أحيط بالدفء ، وشبعت معدته ، ورفرفت فوقه مغامرة المطاردة المجهولة ، وجلس ينظر إلى جدران غرفة الطعام المصنوعة من خشب السنديان المزينة بأوراق عيد الميلاد ، فشعر بالطمأنينة التي يحليها مجتمع الرجال، وفكر: « إن في مجتمع الرجال مودة خاصة عميقة إذا كان أعضاؤه يشتركون في هدف مشترك ، وتجد المرأة صعوبة في إدراك هذه المودة وتذوقها . ». وتطلع الى وجهي الرجلين المحدّقين في النار ، المستغرقين في أفكار عميقة ، فودّ لو أن ناتاشا بقيت في لندن ، ولكن ذكرى غرفة النوم تسلّطت على خياله ، فتصورها الآن تجلس على حافة السرير تشدّ على جواربها وتنظر إلى فخذيها ، حتى تدفّق احساسه بالنشوة ، وعاش لحظات تتنازعه سعادتان امتزجتا معاً ، ليرتدّا به إلى عهد صباه .

قال جراي وهو يرى الهواء يداعب ستائر النوافذ بالرغم من إغلاقها:

– يبدو أن الريح بدأت تعصف .

قال جاردنر : – وإذا بقيت على هذه الحالة ، فسوف تتكاثف الثلوج فوق البيت الريفي في الصباح .

– الأفضل أن نتحرك عندما تأتي زوجتك فأنا لا أحب أن أدفن في الثلوج.

– سوف تحضر بعد نصف ساعة ، فهي عادة تحتاج إلى ثلاثة أرباع الساعة .

– في هذه الحالة سأذهب لأنعش نفسي .

قال جاردنر حينما ذهب جراي :

– إن صديقك إنسان لطيف ، هل تعرفه منذ زمن بعيد ؟

– منذ عدة سنين ، فهو إنسان نبيل صادق .

وحدّثنا في صمت لمدة دقائق ، عاد بعدها تسقابيغ ليسأل بلطف :

– آسف لتطفلي. ولكن هل زوجتك روسية ؟

– نصف روسية ونصف هنغارية ، فعائلتها تملك مزرعة في منطقة تدعى « متسفلكا » .

– هل تقرأ كثيراً من الكتب ؟

فأجاب جاردنر بجفاء : – أوه ، إنها مثقفة تمتاز بموهبة فذة ، ولكنها مثل النساء المثقفات تُبهر بالأشياء بسهولة وبسرعة .

كان التعبير المرسوم على وجهه تعبيراً غريباً ، حتى أن تسقابيغ ألقى بعقب سيجاره في النار ، ووقف قائلاً :

– سأذهب لترتيب ملابسي .

– في هذه الحالة سأرى إذا كانت السلاسل قد وضعت على دواليب السيارة ...

وجاء جراي ليقول لصديقه الذي بدأ بغسل وجهه في الغرفة:

– لقد تساءلت كثيراً يا كارل في فكرة وجودك هنا دون أن يعرف نيومن، هل تعتقد أنها فكرة حسنة ؟

– قد يشتبه في الأمر ، ولكن ما هو تعليل وجودي هنا ؟

– من المحتمل أن تكون زوجة جاردنر قد ناقشت سير تيموثي بشأن كتبك، أو أنها ذكرت اسمك أمامه ، فمن الأفضل أن نقول إننا قضينا عيد الميلاد معها في شمال انكلترا .

– ولكن علينا أن نحدّد المكان ...

– سأقول أنني جئت إلى هنا لشراء البيت الريفي لأنني مهتم به ، وفي هذه الحالة تبدو قصتنا معقولة ، وستكون مصادفة عادية أن تقابل نيومن .

– لعلّك على حق ، فلنسأل الآخرين عن رأيها في هذه القصة .

- ١٠ -

قال موظف الفندق : – هل أنتم ذاهبون الآن ؟

فأجاب جاردنر : – أوه ، أعتقد أن من المستحسن أن تذهب الآن خوفاً من كثافة الثلوج بعد مدة من الزمن .

– أرجو أن لا تذهبوا بعيداً يا سيدي ، فرياح مثل هذه تحمل بطياتها تدافقاً ثلجياً يغطي المنطقة كلها .

ورجع جاردنر إلى الثلاثة المنتظرين في غرفة الطعام ، وقد بدأت حبات الثلج العالقة على معطفه بالذوبان، ثم قال لهم :

– الجو مرعب في الخارج ، ولا أدرك هل هناك فائدة من خروجنا الآن ؟ على كل حال يمكننا أن نحاول .

فقالت ناتاشا : – طبعاً علينا أن نحاول .

ثم قذفت بالويسكي داخل حلقها فاحمرّت وجنتاها ، ونظر جراي إلى ساعته ليقول :

– سيكون العشاء جاهزاً بعد ساعة ، والأفضل أن ننطلق الآن ، وإن كانت الطرق سيئة جداً فسنرجع حالاً ، كم يبعد هذا المكان ؟

– خمسة أميال تقريباً .

شدّت ناتاشا قبعة صوفية حمراء فوق رأسها ، وأنزلتها حتى غطّت أذنيها ، فلاحظها تسفايغ وإبتسم لها فقالت :

– سأهجر فتنة الانوثة في سبيل الدفء .

– إنك تبدين رائعة .

قالت : – تقدموا ايها السادة ، فالليل ينتظر .

لمح تسفايغ تعبيراً ينم عن الضيق ، إرتسم على وجه جراي الذي فكر بأن هذه المرأة تنظر إلى القضية نظرتها إلى نزهة ليلية مرحة ، ثم عادت لتقول من جديد :

– تعال أيها البروفسور ، وخذني إلى السيارة .

وتلقفت يده بين يديها ، وهزّ زوجها رأسه عندما رآها مع البروفسور ، فقال جراي لجاردنر :

– إنها تعيش حالة سارة .

فأجاب جاردنر : – إنها تتيه إعجاباً بتسفايغ وتعتبره أعظم مفكر معاصر ، يعيش فوق الأرض ، وهي لا تستطيع ان تكفّ عن دلالها وغنجها وكأنها تلميذة شقية .

– هل تمانع في هذا ؟

شيء ما اخبره بأن جاردنر لا يعارض أسئلة مثل هذه .

أجاب جاردنر : – يا السماء ، طبعاً أنا لا أمانع ، وأرجو أن لا يمانع هو .

فقال جراي بإبتسامة : – انا واثق من أنه لن يمانع .

وحين خرج تسفايغ تلتصق به ناتاشا أغلق الباب الخارجي للفندق، ووجدا أنهما يسبحان في ظلام حاد ، مع إغراء شهي بالعودة الى الداخل ، خاصة وقد هبّت رياح ثلجية لسعت وجهيهما وأوقفتهما عن الحركة ، ثم إزدادا التصاقاً ببعضهما ، فقال جاردنر : – السيارة تقف بالقرب من الرصيف .

ولكنهما لم يريا السيارة الواقفة على بعد عشرين ياردة منهما ، حتى وصلا اليها، وبسرعة أدخلت ناتاشا جسدها في المقعد الخلفي حين هبت رياح قارسة جعلت الثلج يتسلل حلقها الى السيارة ، وإصطكت أسنانها وهي تصرخ :

– أغلق الباب بسرعة . التفت الزوج لينظف الزجاج الأمامي من الثلوج المتجمدة، وتعثّر قليلاً، وبدأ يمسحها بقفازه، الاّ أن الثلوج تراكمت على الزجاج متوجة بطبقة من الجليد ، وهنا قالت ناتاشا بعتاب :

– كان عليك ان تحمي السيارة قبل مجيئنا .

لم يقل زوجها شيئاً ، بل عمل في إدارة المحرك حتى سخن هيكل السيارة نوعاً ما وزادت الرؤيا إلى أربع ياردات من خلال الزجاج الأمامي ، فقال جاردنر :

– ليلة رائعة مناسبة لقاتل .

ولم يسمع تعليقاً من أحد ، وانسابت السيارة فوق الثلوج ، وأغرقت الرياح صوت المحرك ، حتى وصلوا الى شوارع المدينة ، فسارت السيارة بسرعة خمسة أميال في الساعة . أما تسفايغ فلم ير شيئاً رغم إنارة الضوء الأمامي ، وبدأ جاردنر يجد طريقه الى هدفهم ، ثم قال بعد مضي ربع ساعة :

– نحن الآن في الطرق الرئيسي ، والحالة ليست سيئة كما ظننت .

فقالت زوجته : – إنها مخيفة .

ولفظت كلمة « مخيفة » بلهجة غريبة زادتها خوفاً ، حتى أن زوجها قال ليدخل الأمن إلى نفسها :

– لا يا عزيزتي، فالريح تحمل الثلوج الى الضفاف تاركة الطريق خالية نسبياً.

وعندما ارتفعت حرارة السيارة تناولت ناتاشا يد البروفسور وبدأت تضغط عليها ، لتطرد إرتعاشاتها الجسدية ، ولتقاوم البرد الشديد، وأباح تسفايغ لنفسه أن يعيش أحلام يقظة وردية دون ان يخلل بجاذبيته الجنسية،فهو ما زال يحمل وجهاً وسيماً ، أضفت عليه السنون لمسات سحرية من الرجولة الوقورة ، ولكن صوته القريب من أصوات النساء لن يستطيع أن يعكر صفاء إمرأة ، او يحرك عاطفتها ، ثم إن قامته قصيرة جداً ، ولعله يصلح لأن يكون أباً لها ، فهي تبحث عن الأب ، وزوجها يكبرها بعشرة أعوام او أكثر ، وتسفايغ يكبر الزوج بخمسة عشر عاماً ، وهو الفيلسوف المفكر ، التي حاولت اتخاذه كمرشد لأفكارها ، ولهذا كله لم يدخل عنصر الجنس في هذه المنافسة ، فقد خلت نظرة الزوج من الغيرة ، ثم إن دور الأب الروحي يعني الألفة الشفافة والمودة ، والإتصالات الساذجة البريئة، أما الإتصال الجنسي العلني فيبدو منبوذاً لا يطاق

في حالة كهذه ! وتسفايغ نفسه يثور غضباً عندما يسمع بأن التقاليد الفرنسية تسمح بقيام العملية الجنسية في الهواء الطلق ، دون الإحتماء بجدران غرفة ما .

واتجهت السيارة الى الشمال قاطعة طريقها خلال الثلوج المتراكمة فقال جراي :

– لقد استفدنا من وجود السلاسل ، إذ لولاها لانزلقت السيارة في كل مكان.

قالت ناتاشا بتبرم :

– يبدو أنها طريق طويلة .

– ميلان ونصل الى هناك .

فقال جراي : – سوف نحاول أن نرسل عيوننا إلى البيت من خلال النوافذ ، فلا فائدة من زيارتها هذه الليلة ، لأن الزيارة ستثير شكوكها في مثل هذا الجو .

– افرض بأن الرؤيا كانت متعسرة من خلال النوافذ .

– لا أدري ، وسنفكر في حل .

– وافرض أننا لم نتمكن من العودة إلى الفندق ، فماذا سنفعل ؟ هل نسأل تيم أن يوجد لنا غرفة المبيت فيها ؟

– علينا أن نجد المكان أولاً فأنا لا أستطيع الرؤية .

أوقف جاردنر سيارته ثم أنزل زجاج النافذة وهو يقول :

– أعتقد أن البيت على بعد عشرين ياردة فقط ، وفي هذه الحالة سوف نخرج من السيارة ونبدأ بالمسير .

وغاصت أرجلهم في بحيرات الثلوج العميقة ، وحاولوا الهرب من لسعات الهواء بالإختباء خلف السيارة ، حينما صرخ جاردنر :

– اتبعوني متماسكي الأيدي ، وإجتنبوا جانب الطريق ، فهناك حفرة .

تعسّر على تسفايغ أن يرى بداية الطريق ونهايتها ، أو أن يرى الحفرة التي حذّرهم منها جاردنر ، فقد كانت الأرض كلها سهلاً أبيض واسعاً تنبت فوقه بعض الشجيرات المبعثرة ، وبعض الأسيجة الحادة الخطرة ، وامتدت الطريق تقريباً في كل إتجاه ، ووجد يد ناتاشا فتعلق بها ، ثم سار يتبع صوت جاردنر ،

إذ إستحال عليه أن يرى شيئاً . وعندما رفع وجهه قليلاً ، لطمته الثلوج فوق عينيه ، ومضت لحظات عمياء سمع بعدها صراخ جراي :

علينا أن نشابك أيدينا كالسلسلة وإلا فسوف نفقد طريقنا .

وساروا متشابكي الأيدي لمدة خمس دقائق ، عاد بعدها جراي للصراخ :

– هل أنت واثق من أننا نسير في الاتجاه الصحيح ؟

صرخ جاردنر : – لا .

ثم توقف ليلتفت حوله الآخرون الذين سمعوه يقول: –هل ترى ذلك الضوء؟

أجاب جراي : – نعم ..

وأشار إلى اليمين .. وهنا قالت ناناشا :

– أنا واثقة من أننا بالقرب من البيت ، فأنا أذكر هذه الأشجار !

قال الزوج : – ماذا نفعل الآن ؟

فصرخت زوجته : – سنلقي نظرة ثم نعود إلى الفندق ، فأنا جائعة .

قال الزوج : – هيا لنذهب معاً يا ناناشا ، التصقي بي .

كادت الثلوج أن تكف عن الهبوط من سقف السماء، وظلت الرياح متمردة لم تستطع قسوة الليل أن تروضها ، وأحس تسفايغ بأنه يسير بلا ملابس رغم معطفه الثقيل . ثم قال جراي :

– تعال يا كارل لنبحث خلف هذا المكان .

ماتت خيالات عائلة جاردنر ، مخلفة آثاراً فوق الثلوج الكثيفة ، ولم يعد باستطاعتهما أن يريا شيئاً ، فتسلقا قاناً خشبياً ثم إجتازا زاوية من الحقل فوجدا البيت الريفي أمامهما .

همس جراي لصديقه :

– تعال من الناحية الأخرى ، فأنا لا أريد أن نترك آثاراً واضحة .

وتسلقا شيئاً هو أقرب إلى أسلاك كوخ الدجاج ، ثم اندفعا بين أشجار التفاح التي خدشت أغصانها وجه تسفايغ فلم يدر إن جرحته أم لا ، فوجهه أصبح متجمداً كالثلوج التي تغطي الأرض ، وفجأة زلت قدمه فاصطدم بشيء

معدني أحدث صوتاً ، فقال جراي :

– انتبه يا كارل ، فهذه صفيحة القاذورات .

وما أن نطق بهذه الكلمات حتى فتح الباب وفرش الأرض شعاع ضوئي حاد ، وصرخ صوت :

– من هناك ؟

اختبأا وراء شجرة ، وهمس تسفايغ :

– هذا صوت جوستاف .

وتعال صوت جاردنر من الجهة الشمالية ليقول بصوت مرتفع :

– مرحباً .

وراقبا جاردنر وزوجته وهما يجتازان ممر الحديقة، فصرخ الرجل مرة ثانية:

– من هذا ؟

أجابه جاردنر بصوت مرتفع :

– هل سير تيموثي هنا ؟

– نعم ، من أنت ؟

– اسمي جوزف جاردنر .

علا صوت من جوف البيت :

– مرحباً بك ، تفضل .

ثم أغلق الباب بعد أن أصبحت عائلة جاردنر في الداخل ، ووقف جراي قائلاً :

– تعال يا كارل .

– إلى أين ؟

– إلى السيارة ، فلا فائدة من انتظارنا هنا .

وبعد خمس دقائق تكوما داخل السيارة التي أدير محركها ، فأحس تسفايغ بالدفء يتسلل إليه من جديد ، ثم قال لصديقه معتذراً عن تعثره بصفيحة القاذورات :

– آسف يا جراي ، فقد كانت مطمورة .

– لا بأس ، آمل أن تنقلب الأمور إلى خير ، خاصة بعد أن دخلت عائلة جاردنر البيت .

– هل تظن أنه من الأفضل لو اقتربنا من البيت بواسطة السيارة ؟

– لا ، فقد يسمع نيومن صوت المحرّك إذ أن حاسته السمعية قوية جداً ، فقد خرج ليتحرى أمر غطاء صفيحة القاذورات .

عاد الدفء متباطئاً إلى أيديها وأرجلها فقال جراي :

– لقد بدا الرجل العجوز في صحة جيدة .

جلسا صامتين يفكران في هذه المطاردة الخاطئة ، إذ أن تسفايغ لم يستطع أن ينسى قول جاردنر و بأن سير تيموثي لا يعاني من مرض جسدي ، ولقد جاءت كلمات جاردنر لتدلّل على أن جوستاف ليس بالقاتل ، ولكنه أبى الإعتراف بسحر جاردنر وبتمثاله «السلق» وطريقته في قراءة الرموز الغامضة .

وهب* صوت جراي ساحباً إياه من تعثره الفكري :

– عادت الثلوج الى التساقط من جديد ، آمل أن لا يطيلا إقامتهما ، والا أصبحت طريقنا شائكة .

– ألم يكن من الأفضل ان تذهب معهم !

– لا ، لم يحن الوقت بعد، وإذا تأخرنا فسوف نذهب ونطرق الباب مدّعين بأن جاردنر تركنا في السيارة . لنمهلهم عشر دقائق فقط .

وادار الماسحتين لتنظيف الزجاج الأمامي ، فحملت حركتها الدقيقة تسفايغ الى النوم ، وأعاده الى اليقظة صوت جاردنر الذي قال :

– نأسف لتأخيرنا الطويل .

فسأله جراي : – هل اكتشفت شيئاً ؟

– سأخبرك بكل شيء بعد لحظات .

وجد بعض الصعوبة في إدارة محرك السيارة ، وكانت الطريق ضيقة، مغطاة بالثلوج ، وقالت ناتاشا :

– أعطني سيجارة ، فقد أشعرني ذلك الرجل بالغربة .

قاد جاردنر سيارته بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة رغم كثافة الثلوج ، وقد أحدودب ظهره وهو يحدّق من خلال الزجاج الأمامي ليرى طريقه ، وأشعل تسفايغ سيجارة ناتاشا ولاحظ لون وجنتيها ، ولم يقل أحدهم شيئاً حتى وصلوا إلى الطريق الرئيسي ، وهنا سأل جراي :

– هل أخبرته بأن تسفايغ معنا ؟

أجابت ناتاشا : – لا فقد قلنا لها بأن صديقين ينتظران في السيارة ولعلهما ذهبا إلى الفندق ، وكم سررت لعدم طرقكما الباب .

– وكيف فسرتما وجودكما هناك في مثل هذه الساعة من الليل ؟

– ادّعت ناتاشا بأن حاستها السادسة أوحت إليها بوجود شيء في البيت الريفي ، ولا أعتقد بأن نيومن قد صدّق كلماتها .

– وهل لاحظت شيئاً غير عادي في البيت ؟

– ليس تماماً ، وسأخبرك بكل شيء حالما نصل الفندق .

استغرقت طريق عودتهم إلى الفندق أقل من ربع ساعة ، كانت خلالها ناتاشا تدخن بشراهة وبعمق محدقة في اللاشيء . وقد أدرك تسفايغ ما أصابها من توتر نفسي لم تتوقعه حينما ذهبت لرؤية تيموثي . وقد تأخروا قليلاً عن موعد تناول طعام العشاء ، ولدى دخولهم غمرت الفرحة وجه موظف الفندق القلق ، حتى أنه قال عندما بلغوا طاولته :

– شكراً لله ، فقد أكلني الخوف من أن الثلوج قد حاصرتكم ومنعتكم من العودة ، هل لكم أن تذهبوا إلى غرفة الطعام ؟

ظهرت الغرفة خالية الا من رجلين جلسا في الزاوية ، وجلس الرجال الثلاثة حول مائدة كبيرة ، وبسرعة تقدّم النادل ووضع الحساء أمامهم ، فقال جاردنر :

– لنبدأ بالأكل ، فناتاشا تأخذ وقتاً طويلاً في تغيير ملابسها .

ثم بدأ يقصّ عليهم ما حدث في البيت الريفي بين كل ملعقة حساء وأخرى؛

– حين سمعنا صوت غطاء صحيفة القاذورات ، رأيت من الأفضل أن أعلن عن وجودنا ، إذ كان يكفي خروجه حتى يجدنا، ثم أخبرتها بالقصة التي فكترنا بها ، من أننا أمضينا عيد الميلاد في كمبريدج ، وبدا كل شيء يسير طبيعياً ، حتى أن « تيم » إبتهج لرؤيتنا ، وسألنـــا أن نتناول العشاء فإعتذرنا بحجة أنكم في انتظارنا في الفندق ، وقد شربنا بعض الويسكي وبدا نيومن لطيفاً ودوداً ....

ودخلت ناتاشا الغرفة فإلتقطت كلمات زوجها الأخيرة لتقول :

– ولكن لم يعجبني . ثم إنضمت الى مجموعتهم الصغيرة بعد أن ارتدت ثوباً رائعاً بسيطاً ، وسأل جراي :

– هل أقلقه وجودكم أو زيارتكم ؟ هل ظهر لكم كإنسان مجرم أو محتـــال ؟

فأجابت بسخرية : – إنه من النــــوع القوي الأعصاب ، المتمالك لعواطفه .

قال الزوج : – أنا أعرف ما الذي تعنيه ، فأنا لم أشعر بميل نحوه ، فهـــو متكبر .

– وماذا عن سير تيموثي ؟ هل كان يبدو سعيداً ؟!

أجابت ناتاشا وهي سارحة في البعيد :

– في غاية السعادة ... ولكن ...

وقاطعها جاردنر قائلاً :

– لم أره في كل حياتي كما بدا آنذاك ؛ كان سعيداً ، ولكن هناك أمراً غريباً ، فعندما قلت لها إن حماسة زوجتي السادسة انبأتها عن وجود « تيم » في البيت الريفي ، ادعيت بأنني اتصلت هاتفياً ببيته في لندن لأتأكد من صاحبة البيت عن مكانه ، وهنا ظهر الإضطراب على وجه « تيم » وحركاته ، وأذكر أن ناتاشا قالت لنيومن « لا شك إنك طبيب قدير جداً » وأذكر أن نيومن أجابها بسرعة « عفواً يا سيدتي فأنا لست بالطبيب ، أنا مجرد سكرتير خاص » فوجدت نفسي أقول : « ولكن صاحبة البيت ذكرت على الهاتف أنك طبيب . »

« فتدخل « تيم » مقاطعاً : « آه هـــذه غلطتي أنا ، فقد كنا نتحدث عن الأطباء فالتبس عليها الأمر وتهيأ لها أنه طبيب، ثم أقفلنا الموضوع . »

تقدّم النادل من مائدتهم ليضع أطباق العشاء الرئيسي ، تتوسطها زجاجة نبيذ معتق ، وعند الإنتهاء داهم تسفايبغ الدفء والنعاس كعادته ، وقال كلماته الجديدة :

– هذا صحيح ، فإن لم يكن جوستاف طبيباً فلمَ يدّعي بهذا ؟

أجاب جراي : – ولكن صاحبة البيت كانت واثقة من أنه كان طبيب سير تيموثي ، وأنا أعتقد أن لديه أسباباً تجعله يمتنع عن تعاطي مهنة الطب .

سأل تسفايبغ : – هل أخبركم سير تيموثي لماذا جاء إلى هنا ؟

– لقد إدّعى أنه يريد كتابة مذكراته في هذا المكان المنعزل .

– هل قال لكما من قبل إنه يريد كتابة مذكراته ؟

– أبداً ، وأنا لم أصدّقه لأنه من أقل الناس إهتماماً بالأدب .

– هل شعرت بأن نيومن هو الذي أجبره على المجيء هنا ؟

– لا ، أبداً ، كل ما شعرت به أن « تيم » يثق بنيومن ثقة كبيرة .

التفت جراي الى ناتاشا ليسأل :

– ما هو انطباعك عن نيومن يا مسز جاردنر ؟

– أنا ... لا أدري .. فحين دخلت البيت ورأيته خيّل لي لأول وهلة أننا مخطئون في حقه ، فقد بدا أصغر عمراً من أن يوجد في هايدلبرغ عام ١٩٣٠ ، ولما دقّقت النظر في وجهه وجدت أنني أخطأت فهو من الشباب الذين يعيشون لهدف واحد ، رجل يملك عقلاً يعمل لأجل خطة واحدة .

– أهو محتال ؟

– لا . بل واحد من المثاليين .

فضحك تسفايبغ لصديقه وعلامات الانتصار على وجهه :

– هذا ما قلته لك ، إنه لا يظهر كالمجرمين .

– لماذا ؟

– أنا أوافق على أنـــه ليس من المجرمين ولكنه من النوع الذي يهتمّ بالنتائج أكثر من اهتمامه بالوسائل ، وهو يقوم بالجريمة لتحقيق غايته .

فقال جراي بتصميم : – في سبيل المال ؟

– نعم ، إذا كان المال ضرورياً لتحقيق غايته .

كان جاردنر يرمق زوجته بإعجاب تم حتى أنه قال لها :

– أنا أؤمن بآراء ناتاشا ، فهي تصل إلى أعماق من تتحدث معه .

– هل توافقها الرأي بالنسبة لنيومن ؟

– أعتقد ذلك ، فقد بدا عادياً ، ذكياً ، بل حادّ الذكاء ولا يحمل نزعة إنسانية .

وسأل جراي ناتاشا : – هـل تظنين أن نيومن يشكل خطراً ، مهما كان نوعه ، على سير تيموثي ؟

– لا .. آه أعتقد ذلك فأنا ...

توقفت قليلاً لتبحث عن الكلمات المناسبة :

– .. فأنا لا أوافق على رأينا فيه ..

– وما هو رأينا فيه ؟.

– أعني أنــه محتال لا يأبه لضمير ولا لخلق . رجـل لا يؤمن بالشعور الإنساني ، هذا رأينا فيه ، وأنت تعرف مـا الذي أعنيه يا سير تشارلز ، أعني ذلك النوع من القتلة ، من الناس ، الإنسان المراهق الذي يعيش في مجتمع إنساني.

– أنا أعرف ما تعنين ، ولكن هل أنت واثقة من أنه ليس كذلك ؟

– تمام الثقة ، فلو كان قـاتلاً لكان من نوع هتلر . إنسان يؤمن بأن القتل وسيلة للنهاية .

كاد تسفايغ يختنق بجرعة نبيذ كبيرة قذفها في حلقه ، عندما قال :

– هـذا مستحيل ، فلقد نسيت أن جوستاف يهودي 'عذّب أيام النازيّة ، وهتلر كان متعصباً آمن لغبائــه بتفاهات اعتبرها فلسفية ، وجوستاف نفسه لم يقبل بهذه التفاهات ..

فقال جاردنر مصحّحاً : – لا أعتقد أن هذا ما عنته بالتحديد ، فإن مـا قصدته هو أن المثاليين مسئولون عن الضحايا ، ضحايا المجتمع أكثر من جميع

المجرمين في التاريخ .

– هذا صحيح ، ولكن ما هو مثال جوستاف ؟

– حين عرفته في هايدلبرغ كان يعيش تحت سيطرة فكرته المجنونة ، وهي في أن يصبح سيد المجرمين ، وهذه بالطبع فكرة إنسان مراهق .

قال جراي وهو يصبّ مزيداً من النبيذ :

– ما زلنا في الظلام لم نتقدّم إلاّ خطوة واحـدة ، وهي أن نيومن يفضّل أن يلقّب بسكرتير ، لا بطبيب .

– أظنّ أنه يستعمل العلاج النفساني ، وأغلب الظن أنــه لا يحمل شهادة طبيب نفساني .

– ليس ذلك عملاً غير مشروع إذا لم يتضمّن ادّعاءات كاذبـة ، فماذا يخاف ؟

– قد يكون لديه الكثير من الأسباب .

قال جاردنر : – لا يمكنني التفكير إلاّ في سبب واحد .

لم يجب تسفايغ لأنه عرف ما الذي عنـاه جاردنر فأبى أن يسمعه ، وأشار الى النادل ليطلب زجاجة نبيذ ثانية .

قال جراي : – بودي لو أرى البيت الريفي .

فسألت ناتاشا : – وماذا ستجد هناك ؟

– أولاً لأرى إن كان يعالجه بطريقة نفسانية كما قال البروفسور ..

– هل تعتقد أن نيومن يعطي « تيم » دواءً مخدراً ؟

فقال جاردنر قاطعاً إجابة جراي :

– هذا بعيد جداً ، ومع أنني لا أعرف الكثير عن المخدرات ، إلاّ أن « تيم » بدا في صحة جيدة ، وقد كان عادياً في تصرفاته .

قال تسفايغ : – في هذه الحالة ستعود إلى لندن .

فقال جاردنر : – أنا أوافق .

تطلع الثلاثة الى جراي الذي هزّ رأسه بالنفي ثم قال :

— لا أوافق على هذه الفكرة ، عند أنت وزوجتك وسأبقى هنا مع
البروفسور ، فلن تقوما بأي عمل ذي أهمية .
— وما الذي قررت فعله ؟
— أريد أن أراقب البيت ؛أم تقل بأن هناك بيتاً آخر فكرت في استئجاره
مرة ؟ كم يبعد هذا البيت ؟
— يبعد خمسين ياردة فقط .
— هل يمكن رؤية بيت سير تيموثي من نوافذه ؟
— نعم ، ولكن ما الغاية من ذلك ؟
— لا بد أنها سيغادران البيت في بعض الأحيان، وأود أن أذهب لأتفحص
محتوياته .
— لن يكون هذا سهلاً ، فالبستاني يعيش على بعد عشر ياردات وسوف
يراك .
شعر جراي بأنه مُحاصر ، فألقى قطعة من السكر في فنجان القهوة ثم قال:
— إذن أنا أقترح أن نحذّر سير تيموثي من نيومن الذي قد يكون قاتلاً .
فسأل جاردنر : — كيف ؟
فنظر جراي إلى صديقه تسفاينغ ليسأله :
— هل تقبل القيام بهذه المهمة ؟
أجاب تسفاينغ بحذر : — طبعاً ، ولكن هل أنت واثق من ضرورة هذا
العمل ؟ فلن يكون الأمر سهلاً ، وهذا يتطلب مني أن أنفرد بسير تيموثي أو
أن أكتب إليه رسالة .
— أو بكل بساطة ان تزوره مع جاردنر وان تتحدث إليه أمام نيومن إذا
اضطررت إلى ذلك .
قال تسفاينغ بفتور : لا داعي لإرتكاب هذه الخطيئة .
— هذا إذا قررنا الذهاب إلى لندن وترك الاثنين وحيدين هنا .
غابت نظرات تسفاينغ في قدحه الخالية ثم قال :

— أريد الحديث إلى جوستاف فقط .
— قد يقضي هذا على كل شيء .
— أعرف ذلك ، ولكنك تطلب مني تنفيذ عمل بناء على أن الرجل يقتل
في سبيل المال وأنا أجد في هذا صعوبة كبيرة .
قال جراي بأسف : — حسناً ، لننسى الأمر ، وسأبقى هنا لمراقبتها .
ثم التفت إلى جاردنر ليقول :
— وإذا استطعت ترتيب أمر البيت فسأذهب إليه في الغد .
فقالت ناتاشا : — ولكن البيت خال من الأثاث ، ومن كل وسائل التدفئة .
— أستطيع أن أشعل ناراً صغيرة فيه .
قال جاردنر : — في هذه الحالة سوف أشارك في المراقبة معك .
قالت ناتاشا : — الأفضل أن تذهب جيماً .
— سوف نقرّر هذا فيما بعد ، والخطوة التالية هي معرفة استئجار البيت ،
هل يمكنك الإتصال بصاحبه الآن ؟
— إذا أردتني أن أفعل ذلك .
ذهب جاردنر ليتصل هاتفياً بصاحب البيت، علماً الثلاثة يطبق عليهم
صمت ميت ، فأراد البروفسور تسفاينغ أن يدحر هذا الصمت بأن قدّم لها
مزيداً من النبيذ ، ولكنها رفضا فقذف بالبقية في قدحه ، وأخذ يشرب كي
يهزم ضيقه الذي هاجمه منذ عودتهم من رحلة الليل في سبيل زيارة سير تيموثي ،
ولم يغيّر النبيذ شيئاً ، ففي القصة شيء ما ، إنها غاية في التعقيد ، وغاية في
البساطة . . .
وهنا اقترحت السيدة جاردنر فكرة :
— لماذا لا نطلب من الشرطة المحلية زيارة البيت ورؤية أوراق نيومن
الشخصية ؟ وفي هذه الحالة سيجد نيومن أن الشرطة تهتم به وهذا ما سيجعله
يتوقف عن خطته .
أضاء السرور وجه جراي حينما قال :

– هذه فكرة جيدة ، فباستطاعة رئيس الشرطة الإدّعاء بأنه يجري تحرياته العادية للإطمئنان فقط .

سأل تسفايغ : – ما الغاية من وراء هذا التصرف ؟

– تفتيت أعصاب نيومن .

قالت ناتاشا : – أؤمن بأن زيارتنا المفاجئة لها قد أدّت هذه المهمّة .

– هذا ما أتمنّاه : أريده أن يعيش في حذر وشكّ .

عاد جاردنر وهو يفرك يديه غبطة وفرحاً :

– والآن يا عزيزتي حصلنا على بيت لقضاء أشهر الصيف .

– هل اقترحت شراء البيت ؟

– طبعاً فلقد فكّرت بهذا منذ زمن بعيد ، بالإضافة الى أنني لم أجد عذراً آخر للانتقال إليه في الغد ، وعلى كل حال فقد انتهى الأمر ، وسوف يذهب صاحبه في الصباح ليشعل النار في المدفأة وليعيد ترتيب الأثاث ! آه لا تقلقي فلم يكن ثمّة مرتقعاً .

ضحك جراي وهو يقول :

– إنك تؤدي أعمالك على خير وجه .

– لم أجد سبيلاً آخر للانتقال الى البيت ، لنشرب زجاجة براندي احتفالاً بهذا .

اعتذرت ناتاشا وهي تتثاءب :

– أودّ العودة الى الفراش ، فأنا أحلم بالنوم .

فقال الزوج: – هذه فكرة رائعة لأنني أريد الاستيقاظ في السابعة صباحاً ، وسوف أخبر الموظف ليوقظني في السادسة والنصف .

قالت ناتاشا في دلال : – ولكنني سأنام حتى التاسعة .

– حسناً سأذهب مع جراي لإعداد المكان وبعدها سأعود لآخذكِ هناك .

وربت على كتف جراي وهو يقول : – سنأخذ معنا زجاجة من البراندي ، هل تشرب شيئاً الآن ؟

أجاب جراي : – يجب أن أتصل برئيس الشرطة المحلية .

– لماذا بحق السماء ؟

قالت ناتاشا وهي تبتسم :

– ليطلب منه أن يجهّز رجلاً لإيقاظ نيومن في الصباح الباكر .

- ١١ -

في الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي تناول البروفسور تسفايغ وناتاشا جاردنر طعام الفطور ثم توجها لرؤية البلدة الصغيرة ، بعد أن توارت غيوم السماء وهدأت العاصفة ، وأخذت الثلوج بالذوبان ، خالقة نسيماً منعشاً يحمل رائحة الربيع في داخله ، فأحس كلاهما بالراحة بعد تعب ليلة الأمس ، كما ماتت أحاسيس تسفايغ بالضيق والتشاؤم .

لم تعد ناتاشا تتصرف بدلال أو بحماقة ، بل إن حركاتها ونظراتها الباعثة على الود قد إختفت . قد يكون مرد ذلك عدم وجود زوجها التي أرادت أن تثير غيرته ، ولم يصدق البروفسور تسفايغ أنه قد قابل هذه المرأة منذ أربع وعشرين ساعة فقط ، لأنها أشعرته بأنهما صديقان حميمان منذ سنين طويلة .

وفي العاشرة اتصل الزوج بهما هاتفياً ليخبرهما بأنه وجراي قد استقرا في البيت ، وقد يمضي بقية اليوم هناك ، فالدلائل تشير إلى أن سكان البيت المجاور سيتجهون إلى الخارج للتمتع بأشعة الشمس الدافئة ، وهذا ما سيفسح له ولجراي ، مجالاً لزيارة البيت المجاور وتفتيشه ، كما نصح زوجته أن تذهب برفقة البروفسور لرؤية آثار الكنيستين اللتين بنيتا في القرن الخامس عشر .

قرّر الإثنان أن يعملا بنصيحة جاردنر للتمتع برؤية الآثار ، وهكذا أخذا دليلاً من الفندق وتجولا فوق الثلوج طيلة الصباح ، ثم ذهبا لرؤية الكنيستين ، واستمتعا بكل هدوء عندما كان الحارس يشرح لهما عن تاريخ الملك أدموند والملك سيجبرت ، حتى أنهما دهشا حين وجدا أنهما يعيشان في القرن العشرين .

وهناك أيضاً دقت ساعة الكنيسة دقاتها القديمة فعلما أن لديهما عشر دقائق

فقط ليسيرا مسافة ميلين ويصلا إلى الفندق في موعد الغداء .

سألت ناتاشا الموظف القابع خلف الطاولة :

– هل من رسالة هاتفية لي ؟

– لا يا سيدتي ، ولكن هناك رجلاً في انتظارك .

– رجل ؟

بدت على وجهها الحيرة وهي تقول :

– أين هو ؟

– أعتقد أنه في غرفة الانتظار .

فقالت للبروفسور : – من الأفضل أن تذهب أنت إلى غرفة الطعام ، قد يكون هذا الرجل رسولاً يحمل رسالة شفوية من جوزف .

– سوف انتظر .

عندما قال هذه الكلمة لم يكن يفكر إلاّ في الصعود المبهج معها بواسطة المصعد الكهربائي ، والطرق على باب غرفتها بعد دقائق ليرى إن كانت مستعدة أم لا .

سألت الموظف : حسناً ، هل يمكنك أن تدلني عليه ؟

وظهرت غرفة الإنتظار خالية تماماً ، مما حدا بالموظف الى ان يقول :

– هذا غريب ! لعله ذهب ثانية .

وفي لحظة نهض رجل من على كنبة ذات مسند مرتفع كانت قد أبعدت عن الباب ، ليقول :

– صباح الخير مسز جاردنر ...

ثم انتقل بعينيه إلى تسفايغ الواقف وراءها :

– صباح الخير بروفسور .

ولم تظهر ناتاشا علامة استغراب واحدة وهي تقول :

– آه .. هذا أنت .

والتفتت إلى البروفسور لتقول :

ــ أظنك لا تعرف السيد نيومن . إنه سكرتير سير تيموثي فرجوسن .

فأجاب نيومن : ــ نحن صديقان قديمان فقد كان البروفسور أستاذي .

ثم تابع حديثه مع تسفايغ :

ــ لا تبدو عليك الدهشة لرؤيتي .

وتمنى تسفايغ لو استطاع أن يسيطر على أعصابه مثل ناتاشا ، فقد شعر بأن وجهه احمر من المفاجأة ، ولم يدر للحظة ما يقول ، ثم تلعثم :

ــ مندهش ، إنني كالمذهول ، ماذا تفعل هنا ؟

وتقدّم نحو نيومن ماداً يده للمصافحة ، ولكن نيومن نظر إليها بإبتسامة مسلية ، ثم صافحها بسرعة لكي يفلتها فوراً .

وقال نيومن لناتاشا : ــ آسف لزيارتي غير اللائقةهذه ولكنني أردت الحديث إليك وإلى زوجك .

ــ آسفة ، لزوجي في البيت الريفي ...

توقفت قليلاً لتجد كلماتها ، وتابع تسفايغ الجملة لنفسه ، كي يتجسّس عليك ، وعادت لتقول :

ــ ألم تقابله وأنت في طريقك إلى هنا ؟

ــ لا ، لسوء الحظ ، ولو عرفت هذا لوفرت على نفسي هذه الرحلة ، لقد سلكت طريقاً آخر ، وما دمت هنا الآن والوقت متأخر فهل لك بقبول تناول الغداء معي ؟

كان يوّجه حديثه مباشرة الى السيدة جاردز ، متجاهلاً وجود البروفسور تسفايغ في المكان ، وهذا ما جعل تسفايغ يقف صامتاً إذ أحاقه الموقف فبدا محدّقاً في وجه نيومن بكل حب ، لقد كانت المقابلة فجائية وقد حدثت دون مقدمات ، وهو الذي عاش أيامه الأخيرة يفكر في لقاء نيومن ، بالإضافة الى أن الرجل الذي يحدّث ناتاشا بأدب بالغ ، لم يكن جوستاف نيومن الذي رسمته أفكاره ، فالملامح الجسدية لم تتغيّر ، ولكن هذه الثقة الصلدة التي تشبه صخرة ثقيلة ترتكز على محور ما ، لم يكن ليتوقّعها البروفسور . أما ناتاشا فقد

ـمرت في مكانها تراقب نيومن والضيق يعلو وجهها ، فهي لم تنجذب الى طريقته المتعجرفة في الحديث ، وقد انطلق صوتها مهذباً بارداً وهي تقول لنيومن :

ــ آسفة ، فأنا مرتبطة بموعد آخر للغداء مع البروفسور .

واتخذ صوته طابع الجدّية المتأرجح بين الاحترام وعدم الاهتمام حينما قال :

ــ يا للأسف .

ولاحظ تسفايغ بأن لهجة نيومن تنعدم فيها اللكنة الألمانية ، فقد كان يشبه في حديثه المحامي الإنكليزي الشاب الذي يتحدّث مع موكله العشرين في ذلك اليوم ، مغلقاً ضجره بستائر سميكة من الأدب الشفّاف سعياً وراء فائدة .

وقالت ناتاشا وهي تنظر الى ساعتها :

ــ آه ! لقد تأخرنا عن موعد الغداء .

ــ وهل تعتبرينني متطفلاً إذا سألت شرف الانضمام الى مائدتك ؟

شعرت بنشوة امرأة تنتصر وهي تنظر الى تسفايغ بعينين مُشحنتا بالسكينة والهدوء ، فقد جعلت نيومن يسألها معروفاً ، ومع هذا صممت على أن تستغلّ هذه الفرصة فقالت :

ــ إذا لم يعترض البروفسور تسفايغ .

وبطنّت كلماتها معنى إذا كان لدى تسفايغ أي اعتراض فعلى نيومن أن يأكل وحيداً ، وقصدت أيضاً أن للبروفسور تسفايغ مكاناً ، وهذه كانت طريقتها في إكراه نيومن على الاعتراف بوجود تسفايغ الذي غفل عن ملاحظة الفرصة المعطاة حينما قال :

ــ طبعاً ، فأنا لا أمانع .

وبإنتهاء كلماته أدرك من حركة شفتيها أنها أعطت شيئاً من غضبها لإجابته الساذجة ، فقالت غير عابئة بها :

ــ في هذه الحالة سأذهب إلى غرفتي لدقائق ، فربما كنتما تودان الجلوس حول الطاولة الآن .

وقبل أن تذهب قالت للبروفسور :

— أريدك أن تطلب قدحاً من الشيري لي .

إبتسم نيومن لأستاذه القديم بطريقة إجتماعية تستعمل في الصالونات المهذّبة التي تسيطر على الناس الآخرين وتخطّط لهم حياتهم . وقال بطريقته هذه :

— إن سروري غير متوقع لوجودك هنا ، هيا لنذهب الى غرفة الطعام .

وفتح الباب كي يمر البروفسور ، ثم قال :

— إنني جائع ، هل شاهدت البلدة ؟

— نعم .. لا .. أقصد الكنيسة .

— يجب أن أراها قبل أن أنصرف .

دخلا غرفة الطعام كرجلين يعرفان بعضهما معرفة سطحية ولا يجدان ما يتحدثان به عن الماضي أو الحاضر ، ثم تقدّم النادل نحوهما فقال نيومن :

— سآخذ مارتيني ، هل لك أن تشاركني ؟

فوافق البروفسور ، ليعود نيومن الى النادل :

— احضر لنا قدحين من المارتيني وقدحاً من الشيري .

وما أن إبتعد عنهما النادل حتى قال تسفايغ :

— إنك تتكلم الإنكليزية كأبنائها .

وأراد من مديحه هذا أن يفكّ الحصار الذي تحصّن خلفه نيومن ، لينطلقا معاً في حديث طويل ، ولكن نيومن اكتفى بأن قال بصوت جاف جداً :

— إن لغتك الإنكليزية لرائعة .

وسرح بعينيه بعيداً ومتجاهلاً قائمة الطعام المفتوحة أمام وجهه ، ولا شك أنه أراد أستاذه القديم أن يدرك أنه ما زال غريباً عنه ، فلو أن تحفظه كان بداعي الخجل لحاول إخفاءه بالإنشغال بقراءة قائمة الطعام ، وهنا سأل تسفايغ أول سؤال وجده في عقله :

— هل تحمل جواز سفر ألمانيا ؟

فنظر إليه نيومن ببرود حاد وهو يقول :

— نعم .

ثم أشاح بوجهه عن تسفايغ كأنما يعاقبه للسؤال الوقح ، ولكنه عاد ليقول :

— الحقيقة أن ضابطاً من الشرطة المحلية زارني وطلب رؤية جوازي وأوراقي ، وقد كان مهتماً جداً بوجودي هنا .

فقال البروفسور : — حقاً !

وبسرعة أخذ قائمة الطعام ليخفي وجهه خلفها ، وليدّعي بأنه يقرأ أسماء المأكولات ، بينما راح يقذف نفسه بأسئلة عديدة : أين ذهب جراي وجاردنر ؟ هل تجنّبهما نيومن ؟ هل بدأ يشك في أنه مراقب ؟ هل علم سير تيموثي بزيارة الضابط ؟ ثم سمع نيومن يقول :

— سوف أجرب المحار .

فقال تسفايغ سأجرب المحار أنا أيضاً .

وسيطرت لحظات من الصمت الثقيل فوق المكان ، لتهزّ تسفايغ مشعرة إياه بالخطأ الذي إرتكبه ، حتى أنه إنتفض وهو يقرأ القائمة ولم يجد المحار من ذكر ، فقال :

— إن قائمة الطعام التي معي لم تذكر المحار .

ولم يشك البروفسور للحظة بأن الإبتسامة التي ارتسمت على وجه نيومن كانت إبتسامة عادية ، لأنه سمع صوته الساخر يقول :

— آه ، لقد إرتكبت خطأ .

ومع أن الحادثة كانت بسيطة لا تذكر ، إلاّ أنها استقرت بعمق لتخرّب في داخل تسفايغ الذي أحس بأن نيومن كان يراقبه ليعرف إذا كان يقرأ القائمة حقاً ، أم أنه يقتنص وقتاً زمنيّاً ليساعده في التفكير ، كما وأن البروفسور أصيب بوخزات وهمية من الألم والخوف لأن نيومن قد يستطيع قراءة ما يطوف في أفكاره . وبحضور ناتاشا وإنضمامها إلى المائدة رانت عليه طمأنينة مؤقتة .

وتنقلت ناتاشا بعينيها فوق وجهيهما فلاحظت الضيق العميق المرتسم على وجه تسفايغ ، والذي لم يفارقه منذ أن غادرت الغرفة ، فقالت بصوت تعمّدت فيه البساطة والحيوية :

– أعتقد أنكما تحدّثتما عن الماضي.

إبتسم نيومن وهو يقول :

– لم نتحدّث بعد ، مع أنني على ثقة من أننــا لا نملك الكثير من الأشياء لنتحدّث عنها .

إتّسعت حدقتا عينيها وهي تقول :

– حقاً ! ولكن لماذا ؟

– إن أعمالي ليست ذات أهمية حين أقارنهــا بأعمال البروفسور تسفايغ .

فتساءل تسفايغ في نفسه : هل هذه لحة متأخرة للإعتراف بإنتاجي ، حتى أنه سأل نيومن بفرح :

– هل قرأت شيئاً من كتبي الجديدة ؟

– القليل منها ، وشاهدتك على شاشة التلفزيون .

لم تكن إبتسامته هازئة صريحة هذه المرة ، مع أنها كانت تحمـل معنى ما . أما ناتاشا فقد فرشت إبتسامة حلوة زادتها جاذبية وهي تقول :

هل لك أن تخبرنا عن أعمالك التي قمت بها منذ أن كنت طالبـــاً تستمع لمحاضرات البروفسور تسفايغ ؟

فرفع نيومن قدح المارتيني وهو يقول بحذر تام :

– ولماذا أضجرك يا سيدتي بأخباري ؟

صمتت ناتاشا عندما جاء النادل ليأخذ طلباتهم ، وقفزت الفرصة لتسفايغ ليراقب عن كثب وجه نيومن النضر الذي لم يتغيّر قط ، فالملامح لم يطرأ عليها إلاّ تغيّر طفيف ، فما زال فمه حسّاساً ، يتربع في وجه تعلوه جبهة لم تدركها خيوط الزمن . وقد كانت العينان متقلبتين كما شاهدهما في مجموعة الصور النائمة في شقته في لندن . وكان الخطان حول الفم لا أثر للوهن أو التخاذل فيهما ؛ وجه متكبر نضر لا وجه رجل في منتصف العمر ، وجه يعشق تسفايغ رؤيته ويحسّ بالألم يمزّق نفسه من برودته المتعمدة .

وسألته ناتاشا عن طبيعة عمله مع سير تيموثي فبيّن لها بأن عمله ينحصر في

مساعدة سير تيموثي على كتابة سيرة حياته وعلى تنظيم أوراق عائلته العريقة منذ أن حلّوا في « بيرث » ، الى أيام سير تيموثي . وبدت الفكرة واضحة معقولة حين سألته ناتاشا المزيد من التفاصيل عن أوراق العائلة ، فقدّم لها قصة عن أحد أجداد سير تيموثي الذي عاش في العصر الإليزابثي ، والذي كان يكتب زاوية يوميات ناجحة في صحيفة عادية ، وقدّم قصة أخرى عن جدّ آخر اهتم بمراسلة « كريفي » والدكتور « بيرني » ، وقد أسبغ هذا الوصف على جوّ عمل نيومن وضوحاً ، وجعل ناتاشا تؤمن بأن هـــذه التفاصيل الزمنية البعيدة يصعب اختراعها من قبل نيومن .

وران صمت قصير حين بدأوا يتناول الطعام ، ثم ألقت ناتاشا سؤالاً فجائياً :

– لماذا لم تفاجأ حين رأيت البروفسور تسفايغ منذ لحظات ؟ هـــل كنت تعلم بوجوده هنا من قبل ؟

فمضغ نيومن قطعة من الخبز قبل أن يجيب بهدوء :

– لقد عودت نفسي على أن لا تفاجأ أبداً ، ثم إن سير تيموثي ذكر لي بأن كاتبك المفضّل هو تسفايغ فاستنتجت معرفتك به .

كان كلامه هذا ينمّ عن قلة احترام ، دون أن يكون ظاهر الوقاحـــة . فإشارته الى تسفايغ دون ذكر لقبه العلمي أمر غير ذي بال ، إذ ما من إنسان يذكر لقب بروفسور أمام اسم « شوبنهور » أو « نيتشه » ، ولكنه ذكر أن تسفايغ هو « كاتبها المفضّل » ومعنى هذا أن ناتاشا هاوية ثقافة فقط .

احتفظ نيومن بإبتسامته الهادئة رغم كل شيء ، كأنما رغبته الوحيدة هي أن يمر الوقت دون أن يطرده الآخران من على المائدة . وقـــد سألته ناتاشا باقتضاب :

– لماذا طلبت رؤيتي ؟

فألقى نيومن ملعقة الحساء لحظة ثم قال :

– بخصوص سير تيموثي ، إذ أن الأمر دقيق للغايـــة وأنا أفضل الحديث عنه معك ومع زوجك أيضاً .

ـ لا أظنّ أحداً يرضى بأن تتحدّث أنت عن سير تيموثي دون حضوره هو ، وخاصة إذا علمنا أنك غريب نسبياً .

ـ كنت أعرف مقدّماً شعورك هذا ، ولكن كل شيء سوف يتغيّر عندما أبيّن الملابسات .

فهزت كتفيها وهي تقول :

ـ إذن ، فأفضل وقت لرؤيتنا معاً هو بعد العشاء هذه الليلة .

ـ ألا يأتي زوجك للغداء ؟

ـ لا ، فقد ذهب ليرى البيت الريفي الذي اشتريناه .

ـ آ ، أرى ذلك .

كان الصوت اليتيم هو صوت الملاعق وهي تغرف في أطباق الحساء ، فقد كان من العسير متابعة الحديث دون تعثر ، مع أن تيومن ظهر بوجه عادي لا أثر للإنزعاج فيه ، ولما أحضر النادل زجاجة النبيذ ، شرب قدحه وهو ساه يحدّق في وجوه الآخرين حول الطاولة الرتيبة ، ولهذا سألت ناتاشا :

ـ أين عرف أحدكما الآخر ؟

حاولت متعمدة أن ترجع بالحديث عن ماضي تيومن ، وهذا ما حدث ، فقد أجاب تسفايغ :

كان والد جوستاف أعز صديق لي في هايدلبرغ ، وكنت أنا أستاذ جوستاف في مادة الفلسفة .

تلك أول مرة استعمل فيها تسفايغ اسم تيومن الأول ، فاستغلّت ناتاشا هذه الفرصة لتقود الحديث :

ـ اذن فانتما تعرفان بعضكما تمام المعرفة .

أجاب تيومن بنغمة بعيدة عن التعليق :

ـ لا بأس بمعرفتنا .

ـ ولكن ألم يكن ذلك منذ زمن بعيد ، أعني في أواخر ١٩٢٠ ؟

قال تيومن : ـ نعم .

فقالت مبتسمة لتسفايغ :

ـ يبدو في هذه الحالة أن لديكما القليل ليقوله أحدكما للآخر .

فرارم الصمت من جديد ليستقرّ هناك معهم بعد كلمات ناتاشا التي أجابت بتسفايغ أن يطيل النظر في وجه تيومن ، راغباً في معرفة جوابه وقد تنهّد تيومن وهو يقول :

ـ عزيزتي السيدة جاردنر ، لقد أنعمت علي حين قبلت أن أنضم إلى مائدتك الآن ، ولكن هناك بعض المواضيع التي لا أحب الخوض فيها ، فأنت من المعجبين بإنتاج البروفسور تسفايغ ، وأنا لا يمكنني مشاركتك هذا الشعور ، ولهذا أود أن أحتفظ برأيي لنفسي .

قالت ناتاشا : ـ هذا غير معقول ، فأنت حر تماماً في قول ما تريد وأنا واثقة من عدم اعتراض البروفسور تسفايغ .

قال تسفايغ : ـ لا أبداً .

فسألت ناتاشا بتحدٍ : ـ هل قرأت الكثير من كتبه ؟

احتفظ تيومن بإبتسامته وهو يقول :

ـ ما يكفي لاستيعاب الأفكار الرئيسية .

ـ وهل تعترض على الأفكار الرئيسية ؟

جاء النادل بالأطعمة فتجاهل تيومن رؤية شوكته وسكينه محدقاً في اللاشيء كأنما يريد تسوية أمور أكثر أهمية ، وأخيراً أجاب بهدوء :

ـ تسألينني أن أكون صريحاً ، حسناً مع رجائي أن لا تغضبي . لقد أنتقد كثير من الفلاسفة والفنانين الألمان لبقائهم في ألمانيا وتأييدهم للنازية مثل هيدجر ، وفضل آخرون مغادرة البلاد ليجنوا ثمار تضحياتهم ... و ..

حاول تسفايغ مقاطعته قائلاً :

ـ ولكن يا عزيزي جوستاف ...

ـ اسمح لي أن أتابع حديثي ، لأنك كنت من الذين غادروا إلى أمريكا ، وبرزت لتصبح مثالاً للإنسانية ، لهذا لم يستغرب الكثيرون حين نهضت صباحاً

لتعلن مسيحيتك ، ولتعلن بأنك اخترت المسيحية ديناً ، ولكنني تذكرت حديثك لوالدي ذات مساء ، فقد كنت تقول له بأن المجنون فقط أو الخبيث أو الضعيف من يصبح مسيحياً في عصرنا هذا .

لم يحاول نيومن أن يخفي العداء البغيض المرتسم في عينيه وهو يتابع قوله :

– أقررت قولك آنذاك وما زلت أؤيده . وهنالك شيء واحد أود معرفته ، أي الثلاثة أصبحت ؟

أبعد نيومن عينيه عن تسفايغ ليقطع قطعة اللحم بهدوء غريب ، وغرق تسفايغ في مقعده لا يجد كلمات ما ، فالإهانة قاسية أذهلته بادىء الأمر ، ثم أخذت مشاعره ترتدّ الى طبيعتها فأحسّ بالدم يصعد الى وجهه ، وزاد من غضبه علامات اللامبالاة التي طبعت وجه نيومن وهو يقطع قطعة اللحم ، فالرجل قد صرّح ببساطة بأنه إما أن يكون مجنوناً وإما خبيثاً، وإما ضعيفاً . ولم يكن تسفايغ بالمخدوع وهو الذي تعوّد تبادل الاحترام مع تلميذه السابق ، وهنا قفزت الى عقله فكرة « أمن الخير أن تصبح مسيحياً أم أن تصبح مجرماً »؟

قالت ناتاشا وهي مأخوذة بكلمات نيومن ، وقبل أن يستطيع تسفايغ صفّ أفكاره في كلمات : « هل هناك من ضرورة في أن تكون فظّاً » ؟ رفع نيومن وجهه فإذا بقسوة حادّة تظهر فوق ابتسامته وهو يقول :

– إن بروفسور تسفايغ يدرك ما أعني .

فقال تسفايغ : – على النقيض من ذلك . . .

ولاحظ ما أصاب صوته من اختناق مرتعش فتابع :

– أنا لم أستطع فهمك بأيّة طريقة .

أجاب نيومن مبتسماً :

– إذن فالأفضل أن لا أضيف شيئاً .

وعاد ليمضغ لقمات طعامه وكأنما استولى هذا العمل على كل انتباهه ، فقالت ناتاشا :

– إن ما قلت الآن قد جاء متأخراً بعض الشيء .

لم يغضب تسفايغ لشعوره بأن نيومن أراد أن يمتحن إخلاصه بهذه الطريقة الاستفزازية التي لم تترك مجالاً لجواب حقيقي معقول ، أراد أن يغضبه فأصابته وخزات خوف وهيبة تحوّلت الى ثورة من غضب أجفلته من الحديث حتى لا تقوده نفسه الى ما لا يجب قوله ، وتساءل وهو يتأمّل رغوة الجعة التي علت قدحه « هل كان هدف نيومن استفزازي ؟ » ، وجاهد حتى تناول القدح ليأخذ منه جرعة كبيرة ، وليحدّق في سطح الجعة سامحاً لعقله أن يهدأ ويعود الى طبيعته ليفكر في نيومن الذي حافظ على سخطه على إنتاج تسفايغ الذي نشر منذ ١٩٣٠ ، ولكن هذا غير صحيح !!

وأهملت المحادثة لفترة قصيرة ، قال بعدها تسفايغ بصوت اتخذ طابع المنطق والصداقة والاهتمام :

– إن شعورك لجامح يا جوستاف ، ولكن هل تعتبر مسيحيتي عملاً شنيعاً حقاً ؟

قال نيومن والكراهية تتفجّر في عينيه :

– في حالتك نعم ، ومع ذلك فليست بأسوأ من أن يصبح هيدجر نازياً .

فقال تسفايغ بعد أن سيطر على صوته وحركاته :

– ولكن هيدجر أنكر إيمانه بالنازية وانتسابه إليها ، ومع ذلك فهل تساوي بين عقيدة تقوم على قوة الجنس الأقوى ، وأخرى تقوم على الحب ؟

فأجاب نيومن بتأنٍ : – في الحالتين باع الإنسان إخلاصه من أجل سلامته ، فأنت من قال لنا مرّة أن على الإنسان ألاّ يتعامل مع الأغبياء أو الجبناء ، وقبل هذا كله ألاّ يتعامل مع الرجال الذين أخضعوا عقولهم لخرافة أو عاطفة أو غلس ، وأنت من قال لنا أن نتجاهل هؤلاء الرجال ونسير في طريقنا .

– وهل سرت أنت في طريقك .

– يخيّل لي ذلك ، ولكن ليست هذه هي المشكلة الآن .

– بل ، فإنها مشكلتنا الآن . . .

واستطاع أن يلمح نظرات الإنذار التي شعّت من عينيّ ناتاشا ، ولكنه تابع

حديثه :

- أنا لا أعتقد أن النسوية ضعف دائم رغم اعترافي بإقرارها في بعض النواحي التي ليست مهمة ، هل توافق على هذا الرأي ؟

أجاب تيومن ببرود متعمد :

- ما زلت أقول بأن هذا الحديث لا يدخل في مناقشتنا الحالية . واهتزت رقبة ناتاشا وهي تقول :

- وهل تضع أنت القوانين هنا ؟

- أنا أعني أننا لا نتحدث عن النسوية، بل حديثنا يتناول الجبن والنذالة .

قالت وهي تنظر إلى طعامها :

- هل لك أن تبيّن لماذا تتعمد جرح الآخرين ؟ فابتسم وهو يقول :

- أنا آسف ، فلم أفكر في خوض حادثة كهذه ، ولكنك طلبت مني أن أكون صريحاً .

- لا فظاً قاسياً .

فبدا على وجهه الإعتذار وهو يقول :

- أود أن أبين أن كتابات تسفايغ تستهوي عقول الناس ، وأن لشخصيته التلفزيونية شهرة واسعة ، وأنا أعرف أنك واحدة من المعجبين به ، وقد قيل لي أيضاً أن نوادي نسائية عديدة تعتبره فيلسوفاً عظيماً ، ولكن لكوني رجلاً لا إمرأة ، فمن حقي أن أنتقد أفكاره وآراءه .

انتشر الغضب على وجه ناتاشا التي بدت مغتاظة وأصغر عمراً أيضاً ، وتلاحقت كلماتها وهي تقول :

- إما أن تغادر هذه الغرفة يا سيد تيومن وإما أن أغادرها أنا .

فابتسم تيومن لكلماتها وكأنه يستمع إلى طفل يحتج ، ثم قال :

- يؤسفني ذلك ، ولكن البروفسور تسفايغ سيخبرك بأنني ما قصدت الإساءة .

ثم رجع إلى طعامه وكأن الأمر قد انتهى ، وتابعت ناتاشا لحديثها المتواصل

فيه ، وهي تؤمن بأن تصرفاتها كانت صبيانية لأنها توقعت منه أن يغادر المكان أو يعتذر ، ولكنه بدلاً من ذلك عاملها كطفل مدلـّل ، وإذا أخذت اعتذاره المبطن بالإحتقار تكون كمن رضي بالتأنيب ، وإذا استمرت في المكابرة فسوف تظهر كمن أصابته نوبة هستيرية ، وشعر تسفايغ بأن عليه أن يدافع عن ناتاشا فقال :

- لا أرى ضرورة لوقاحتك مع السيدة جاردنر .

- إذا أتبعت إصراري بأنني أحاول أن أكون وقحاً فليس باستطاعتي عمل أي شيء حيال ذلك .

وختم صمت جديد أعطاهم الفرصة لتناول الطعام ، وإنتهت ناتاشا من مضغ آخر لقمة من قطعة اللحم ، ثم هبّت واقفة لتقول :

- أنا ذاهبة إلى غرفتي .

وانطلقت في سيرها قبل أن يستطيع أحدهما الرد عليها ، وعاد تيومن إلى طعامه مرة أخرى ، ثم قال :

- آسف ، فقد أسأت إلى واحدة من معجباتك .

وهنا أحس تسفايغ بأنه لا يستطيع السيطرة على نفسه ، ولا يستطيع أيضاً متابعة لعبة التخفي فقال :

- لا أفهم سبباً لإصرارك على الغداء معنا إلا إذا أردت فرصة لتكون سيئاً ، وقد كان تصرفك سيئاً للغاية ...

سعل النادل بالقرب من مائدتهما ثم سأل بأدب :

- هل سترجع السيدة يا سيدي ؟

وكان مجرد التفكير في قضاء دقائق عشر مع تيومن بغيضاً إلى نفسه ، وقد تمنى لو يقف ويغادر المكان لولا تطفله وحبه لمرقة ترايا جوستاف ، لذا قال :

- قهوة مع القليل من البراندي إذا سمحت .

قال تيومن : - سآخذ الطلب نفسه .

إنتهى من طعامه فأخذ النادل الأطباق وإبتعد . وقال تسفايغ :

– لماذا جئت إلى هنا ؟
– دفعني تطفلي .
– لتجد ماذا ؟
فأجاب نيومن بلطف :
– اسمح لي أن أوجّه هذا السؤال إليك . ماذا تفعل هنا ؟
تنهّد تسفايغ وهو ينظر إلى أظافره القلقة التي تحتاج إلى طلاء ، وشعر بالاشمئزاز من هذه المراوغة مع إدراكه بأن النتائج ستكون قاسية لو تحدّث معه بصراحة ، وأخيراً أجاب :
– أعتقد بأننا نتحدّث عن أمرين متناقضين .
– حقاً . هل تفسّر ماذا تقصد ؟
– حسناً ، أنا أشتبه في أن حضورك إلى هذا الفندق إنما هو للوصول على بعض المعلومات . الآن قل لي ماذا تريد أن تعرف .
تطلع نيومن إلى محتويات المكان وقد إرتسم على وجهه تعبير تجريدي ، ثم إبتسم قائلاً :
– كلماتك جيدة ولكنني لا أعرف كيف أجيب ، دعنا نقول ، لنبدأ أولاً ، بالسبب الذي جعلك تدعو نفسك مسيحياً .
فوجيء تسفايغ للحظة فلم يتوقع سؤالاً كهذا ، وهزّ كتفيه وهو يقول :
– حسناً ، إذا كنت جاداً . . .
ووجد صعوبة في الاستمرار في الحديث ، فنغمة صوته كانت مرتعشة غير صادقة ، وقد تنفّس بعمق محاولاً نسيان وجود نيومن معه ، ثم تابع حديثه :
– مثلي كمثل الكثيرين من الشباب الذين قرأوا نيتشه وآمنوا بأفكاره ، وبدأت بإعتبار المسيحية خرافة دعا إليها الضعفاء ، وركّزت في كتبي الأولى على مشكلة وضع الإنسان في العالم ، من أنه يفتقر إلى الحرية لعجزه ، وحاولت خلق فلسفة الحرية التي تستند على قابلية الإنسان في إتخاذ رأي منفصل بعيداً عن آلامه الشخصية ، وأنا أعتقد أن هذه الكتب أثّرت على أفكارك ، أليس

كذلك ؟ ثم تقدّمت النازية فرأيت أصدقائي يضطهدون ورأيت ما حدث لصديقك جورجي . . .
راقب وجه نيومن عندما نطق بإسم صديقه ، ولكن الوجه التجريدي لم ترتجف فيه عضلة واحدة ، وتوقف تسفايغ عن الحديث ساعة جاء النادل بالقهوة ، ثم تابع حديثه بصوت هادىء متّزن :
– إن كل العوامل السابقة جعلتني أحسّ بأن الجنس البشري يتّجه نحو الجنون . وذات يوم بينما كنت على ظهر الباخرة المتّجهة الى نيويورك فوجئت بالجواب يتطاول أمامي . . .
تطلّع نيومن إليه ولكنه لم يستطع أن يقرأ ما يجول في عقله ، وتابع قائلاً :
– تأكّدت أنه ما من فيلسوف أتى بشيء عظيم لتغيير الجنس البشري ، ولا حتى سقراط بقانونه المعروف « اعرف نفسك » ، إن أولئك الذين غيّروا وجه التاريخ « تاريخ الإنسان الروحي » هم المتّقدون الدينيّون . وفجأة سطعت الحقيقة الضخمة أمام عينيّ وهي أنه ما من بشر جاء بعقيدة عظيمة الأهمية كالمسيح عندما قال « أحبب جارك كما تحب نفسك » . وقد تقول أنت إن هذا ردة فعل على القسوة النازية ، وأنا لا أنكر ذلك ولكنها تبقى الحقيقة الضخمة .
ماتت نظرات الاهتمام في عينيّ نيومن وأشاح بوجهه بعيداً ، وتابع تسفايغ حديثه :
– وبعد ذلك حدثت أشياء عديدة كانت تؤيّد هذا الرأي ، فقد سيطرت عليّ فكرة فقدان الإنسان لحريته ، وعلمت أن هذا تعبير آخر عن الخطيئة الأولى تنطبق على عذابات الإنسان وخضوعه الذليل أمام الألم والموت . . .
ومن غير أن ينظر نيومن إليه قال :
– والفداء أيضاً .
– لم يكن ذلك عسيراً ، فلم أقبل فكرة الفداء ، إذ من الواضح أنه ما من إنسان يفتدي آخر ، إننا سجناء في سجن معتّم أقفاه نحن وعلى كل منا أن ينقذ نفسه . ومع ذلك فقد ظهر لي فجأة أن المسيح وأحاديثه عن الحب قد ركّزا أو؟

كبيراً في تاريخ الإنسان ، هل تفهمني؟ منذ ذهب المسيح والحب أساس قوي فعّال في تاريخ الإنسانية .

– رغم النازية ؟

– رغم النازيّة ، فلو أنك تصوّرت تاريخ البشرية بلا مسيح فلن يكون هناك سوى النازية . إن قانون الإنسان الطبيعي هو المصلحة الشخصية ، والمصلحة الشخصية تقود الى المادّية والخراب الا إذا غيّرها العقل ، فمقابل كل سقراطي يسعى وراء معرفة نفسه ، ملايين من الساعين خلف مصالحهم من أتباع جورنج وهملر ، وبهذا آمنت أن الجنس البشري لا ينقذه الا العقل ، واتنابني الخوف واليأس حينما شاهدت كيف يتحطم العقل بسهولة على يد متعصب ، وثبت لي أن الحب وحده يقوى على أن يقف في وجه الوحشية والغباء البشري ، والمسيح قد أعطى المحتوى والمثال لفكرة الحب وصنع منها قوة التاريخ . وهل تنكر أنت لقبه بالمخلّص ؟

أجاب نيومن بلطف : – مخلّص ربما ، ولكن ابن الله ؟

– ألسنا جميعاً أبناء الله ؟

– آه إنك تراوغ ، فالمسيحي يؤمن بأن المسيح إبن الله ولا يشاركه في هذه الصفة أحد من الناس .

قال تسفايغ بلا مبالاة : – حسناً ، ففي هذه الحالة أنا لست مسيحياً .

– آ ، أرى ذلك الآن .

إبتسم تسفايغ وهو يرشف قهوته ، فقد تسللت الثقة الى نفسه فحاول إجبار نيومن على النظر اليه وهو يقول :

– هناك شيء آخر دعاني إلى مراجعة موقفي ، فبعد أسابيع قليلة من وصولي الى أمريكا وصلتني رسالة من والدك يخبرني فيها أن صديقه جرهارت سيفرت قد انتحر في سويسرا حينما كنت معه .

عندما سمع نيومن هذا الإسم ألصق على وجهه إبتسامة باهتة .. وتابع تسفايغ :

– وتذكرت احاديثك من أنك ستصبح سيد المجرمين وتساءلت عما إذا كان موته إنتحاراً حقيقة ..

فأجاب نيومن : – فهمت ..

كانت كلمته لا تحمل شيئاً وغير مبالية ، كأنه كان يستمع الى إيضاح لا أهمية له .

وإستمر تسفايغ في شرب قهوته الباردة مفكراً في الوقت ذاته لدفع نيومن الى الحديث ، ومعجباً أيضاً بثبات أعصاب نيومن ، فهو لم يفصح عن صراع داخلي أو حتى عن إهتمام بالحديث ، فشعر تسفايغ من جديد بإختراق هذه الحواجز وبالرغبة في حب هذا الإنسان المتطلع إلى ساعته والمشير الى النادل .

قال نيومن : – هل لي في قائمة الحساب من فضلك ؟

قال تسفايغ : – إنك ضيفي .

– هذا كرم منك ، ولكنني لا أطمع في قبول هذه الدعوة .

هزّ نيومن رأسه نحو النادل الذي إبتعد مغادراً وتابع :

– أخاف أن أكون ضيفاً غير مرغوب فيه .

أجاب تسفايغ بغيظ : – جوستاف ، لماذا لا تجيبني ؟ لماذا انضممت إلينا للغداء ثم رفضت الحديث ؟ ما الذي تحاول إخفاءه ؟

وعندما نظر إلى وجهه رأى رعشة من غيظ دفين ترفرف في عين أستاذه فقال :

– ليس عندي ما أخفيه .

ثم تابع حديثه : – فتّش ما استطعت ، فلن تجد شيئاً.

فقال تسفايغ بغضب : – ولماذا تعاملني كعدو ؟

انطلقت نغمة سخرية من صوته وهو يجيب :

– أعتقد أنك تعرف الجواب على ذلك .

– ولكن بحق السماء ...

انقطع تسفايغ عن الكلام لعودة النادل ، ووضع نيومن جنيهين على صحن

صغير ثم أرجع محفظته الى جيبه الداخلي وهو يقول :

ـ أشكرك للسماح لي بالإنضمام اليكما ، وآسف لإضطرار السيدة جاردنر للإنسحاب .

ونهض واقفاً وبدأ يدفع كرسيه إلى الأمام بإتجاه المائدة ، فقال تسفايغ :

ـ اسمع يا جوستاف ، إذا سمحت ...

توقف نيومن بأدب ، وتابع البروفسور :

ـ أريد أن أحدثك بصراحة ، ولكنني أجد أن ذلك مستحيل .. أتمنى لو أستطيع إقناعك بأنني أريد أن أكون صديقك في هذا الأمر .

ـ وهل السيدة جاردنر صديقتي أيضاً ؟

ـ عرفت السيدة جاردنر منذ أربع وعشرين ساعة فقط . إنها ليست أكثر من أحد المعارف .

ـ لا شك في أن ذلك سوف يضايقها ويزعجها لو سمعت كلامك هذا .

ـ لماذا تشعر بالعداء نحوها ؟ ما الذي فعلته ؟

فأجاب نيومن بهدوء : ـ لا شيء ، وإذا ظهرت مني وقاحة تجاهها فذلك لاهتمامي بما فعلته بك .

دهش تسفايغ لحظة ثم سأل : ـ ماذا ؟

انحنى نيومن نحو المائدة وهو يقول :

ـ لقد شرحت لي كيف أصبحت مسيحياً ولكنك لم تشرح عن التوبة الأخرى ، وأظنك تعرف ما الذي أعنيه ، فالسيدة جاردنر مثال لتلك التوبة وهي امرأة جذابة ومعجبة بإنتاجك وبك أيضاً وعندها الرغبة في التضحية بكل شيء ...

ـ أتحاول الإقتراح بأن ...

ـ أنا لا أقترح شيئاً،ولا شك أن العلاقة سوف تتطور إلى صداقة افلاطونية مخلصة ، فسوف تعبدك ، وستكون ضيف الشرف في كل حفلاتها ، وستقرأ كل كتبك من جديد وتوصي الاصدقاء والصديقات بها ، ولكن أتعتقد أنها تعي

كلمة واحدة مما قرأت ؟

وأراد أن يغضب ، فلم يستطع لأنه أراد تصديق ما قاله نيومن ، فهزّ كتفيه قائلاً :

ـ حسناً ! لنفرض أنك على صواب فأي علاقة لما قلت بآرائي ؟ أنا رجل عجوز أشعر أحياناً بأنني لم أبدأ عملي بعد ، وكل ما كتبته ليس إلاّ إعداداً للعمل الحقيقي ، وإذا أرادت السيدة جاردنر أن تخصّني بصداقتها فلماذا لا أقبلها ؟

ـ وزوجها كذلك ؟

ـ ما الذي تقوله ؟

سمح لضيفه أن يحوم فوق وجهه وهو يستمع الى نيومن الذي قال :

ـ زوجها هو جوزف جاردنر أليس كذلك ؟ مؤلّف الكتب الغريبة المختلفة .

ـ لا أعرف هذا لأنني لم أقرأها .

ـ إنه يتمتع بشهرة واسعة في ألمانيا ، فالألمان يحبون الأفكار الغريبة ... ولعلكما تقومان بكتابة كتاب معاً ، وأنا واثق من أنه سينال شهرة عظيمة .

ـ إذا أردت أن أقوم بهذا ، فلن أسألك الرأي .

ـ أنا واثق من ذلك .

تهيأ نيومن للسير فقال تسفايغ :

ـ أليس لديك شيء آخر تقوله لي ؟

ـ لا شيء يزيد من إزعاجك أيها البروفسور ، ولكنني سأقول لك شيئاً واحداً ..

توقّفت نظرات تسفايغ بالقرب من عيني نيومن الذي تابع قائلاً :

ـ كان جرهارت يعاني من سرطان في العمود الفقري عندما انتحر .

ثم التقط قائمة الأسعار التي دفعها ودسّها في جيبه وهو يقول :

ـ أتمنى لك يوماً سعيداً .

انحنى له ثم سار ، فتطلّع إليه تسفايغ وهو يبتعد عن المائدة وأغرته نفسه بالقبض على ذراعه وسؤاله سؤالاً آخر ، ولكن نظرة النادل المتطفّلة منعته من ذلك . ووقف حينما رأى نيومن عند باب الفندق وغادر المكان ليطرق باب ناتاشا جاردنر ، ولما لم يسمع جواباً دخل الغرفة ، فوجدها تراقب الطريق من خلال نافذتها ، وعندما التفتت إليه لاحظ أنها لم تضع أي نوع من المساحيق على وجهها ، وبدت أطراف عينيها حمراء فقال :

– هل كنت تبكين ؟

– لا لشيء ، فصفاقة بعض الناس تضايقني دائماً ولا أستطيع السيطرة على شعوري حتى أن الرغبة تدفعني لقتلهم . . .

وابتسمت حينما أضافت سائلة : – ماذا حدث ؟

– عندما غادرتِ أنت حدّثتني نفسي أن ألحق بك ، ولا أدري ، إن كنت على صواب في بقائي معه .

– لماذا ؟

– حاولت دفعه الى الحديث ولكنه تحصّن بستار كثيف ، فما كان مني إلاّ أن أخبرته عن شكوكي حول قتله جرهارت سيفرت ، أول رجل عجوز . . .

– هل دافع عن نفسه ؟

– لم يقل شيئاً ولكنه قبل أن يفارقني قال « كان جرهارت يعاني من مرض السرطان عندما أقدم على الانتحار . »

– هل تصدقه ؟

– لا أدري ، إنه يعلم بمطاردتنا له ، ويعرف أيضاً عن مؤلفات زوجك ، وأظنّ أن فرجوسن حدّثه بذلك ولكنني لم أفهمه حين قال أن بإمكاني البحث ما شئت ، ولكنني لن أعثر على شيء .

– ماذا قلت له ؟

– لم أزد عن شكوكي حول جرهارت إذ قضيت معظم الوقت أحدّثه عن

المسيحية ، وأردته أن يتحدّث عن نفسه ولكنه استمع إليّ دون أن يبوح بما عنده .

مشت ناتاشا نحو المرآة وقالت حينما طالعت وجهها :

– أبدو بشعة جداً ، فمنذ سنين لم أشعر بالغضب والحنق ، وهو أحد الرجال القلائل الذين قابلتهم ولا عمل لهم إلاّ الاستفزاز .

– يخيّل لي أنه اندفع في استفزازه ليجعلنا نفرغ ما عندنا من معلومات .

وضعت قليلاً من حمرة الشفاه ثم قالت :

– لن يجرؤ بعد الآن على أن يفعل شيئاً لتم ، فقد اتضح له أننا نعرف شيئاً .

– أرجو أن تكوني على صواب .

– هل ذهبت الشرطة لرؤيته في الصباح ؟

– نعم ، فقد تكلم عن زيارتهم له .

– إذن ، فهذا يفسر سبب حضوره الفندق ، وأنا أعتقد أنه شاهد جوزف وسير تشارلز وهما في طريقهما إلى البيت الريفي ، ووجدها فرصة لكي يتحرى عندنا .

– ولكن كيف يمكنه الحضور إلى هنا دون أن يراه جوزف أو سير تشارلز ؟

– هذا سهل للغاية ، فقد اتخذ الطريق الواقعة خلف البيت .

أخافها رنين الهاتف فقالت « أظنه من جوزف » فهزّ تسفايغ رأسه فرحاً إذ اختلط صوتها بنغمة الاستياء ، وأخذت السماعة ثم قالت :

– إنه لك من لندن .

– لي ؟

وتناول السماعة منها ليصرخ :

– تسفايغ يتكلم .

– بروفسور تسفايغ أنا كولبرايت .

– من ؟
– كولبرايت ، الا تذكرني ؟ لقد تقابلنا منذ عدة أيام في بيتي .
– آ ، أنا أذكرك .
– حاولت الإتصال هاتفياً بسير تشارلز وعلمت من السيدة زوجته أنه معكم .
– هل وجدت شيئاً ؟
– لا ، لقد قابلت رجلاً يعرف سكرتير بالسكين وقال إنه سيتعرف عليه أينما كان ، هل يمكنك أن ترسل صورة لنيومن ؟
– هذا مستحيل ، فالصورة في بيتي في لندن ، على كل حال ما اسم الرجل ؟
– اسمه سامز ومهنته مصوّر وهو الذي التقط تلك الصورة للسكرتير .
– هل بينت له بأن نيومن قد حلق لحيته الآن ؟
– نعم ، ومع هذا فهو يعتقد بأنه يستطيع التعرف عليه كيفما كان ، وما علينا إلاّ أن نجرب ، وبهذه المناسبة هل حدث شيء جديد معكم ؟

فشرح البروفسور حديثه مع نيومن وقت الغداء باختصار ، فقال كولبرايت :
– من الأفضل مراقبته جيداً ، فهو زبون زلق !

ووعد تسفايغ أن يتصل به حينما يعود جراي إلى الفندق ، ووضع السماعة والتفت ليرى ناتاشا مستلقية على السرير مغمضة العينين فسألها :
– ما الذي عناه عندما قال « زبون زلق » ؟
– شخص يصعب القبض عليه .
– آه ! لقد قال إن جوستاف زلق .

واتخذ مجلسه بالقرب منها ليتابع كلامه :
– أعتقد أنه مخطيء ، فهناك شيء غير زلق في جوستاف ..
– ماذا تقصد ؟

أجاب بهدوء : – يصعب علي التفسير ، ولكنه كالرجل الذي يعي مقدرته العقلية ، فحينما تحدثت معه اليوم شعرت بأنه يخفي شيئاً عني .. ومع ذلك فلم يكن يخفي شيئاً يخفيه المجرم عــادة ، بل إنه سخر مني بطريقة أو بأخرى

طيلة الوقت .
– أعتقد أنني فهمت ما الذي تعنيه .
– حقاً ، ومع ذلك فقد أثار غضبك .
– أثار غضبي لأنه رغب في الإهانة فكأنه يتكلم وبيده عصا .

حاول أن يسرد عليهـا رأي نيومن في صداقتها ولكنه أحجم عن ذلك ووجد نفسه يقول لها :
– لم أعرف أن مؤلفات زوجك تتمتع بشهرة كبيرة في ألمانيا .
– أوه طبعاً ، فقد ترجمت إلى جميع اللغات .
– هل هي تثير إهتمامك ؟

أعتقد ذلك ولكن ... لا أعرف إذا كان جاداً أم لا ، وهذا لا يعني بـأنه غير صادق مع نفسه ، إنه شديد الحماسة ويسمح للأشياء بالسيطرة عليه ، ولطالما طلبت منه أن يعيد قراءة أعمالك بعمق .
– لماذا ؟
– أوه .. أريده أن يعود إلى الأرض .. لا .. لا أعني ذلك حقاً .. بل أريده أن يكون أكثر جدية .

كانت تنظر إليه نظرات غريبة وقد عقدت يديها خلف رأسها وهي تقول :
– لا أجد للأمر أهمية الآن ..

وتطلع اليها فإبتسمت بنعومة : – أعني – يمكنك أن تتحدث إليه عن كتبه .

تجمّع الظلام خارج النافذة ، فقال :
– يجب أن أترك غرفتك الآن .
– لماذا ؟ هل قرّرت أن تعمل شيئاً .
– أود أن أعود إلى كتابي الجديد الذي يدور حول كتاب هيدجر المسمّى « Sein und Zeit » .
– اذن لا تذهب . اعمل هنا فأنا أريد الراحة .

عاد من غرفته حاملاً بيده حقيبته ، وليجدها قد أضاءت نور المصباح الكبير ، وعلّقت ثوبها على ظهر الكرسي لتستلقي تحت ، اللحاف ، الذي كشف عن قدمها اليمنى المغطاة بالجوارب ، كانت أنفاسها هادئة منتظمة ، وأخرج البروفسور نسخة مليئة بالتعليقات من كتاب هيدجر ومخطوطته التي كُتبت بقلم حاد جداً .

فقرأ الصفحات الأخيرة حتى وصل إلى آخر فقرة :

« كيف يمكن أن يُقال ان للإنسان حرية مطلقة لا تعرف الحدود؟ وهو الذي لا يستطيع الطيران في الهواء ، ولا يستطيع قهر مرضه حتى ولو بنسيانه ، بل إنه لا يستطيع نسيان واجباته وعاداته بمجرد أن يدير لها ظهره ؟ إذن فكيف يمكن القول ان للإنسان حرية أكبر مما يعي ؟ »

سرّه سرور عادي، أدخل البهجة إلى نفسه ، وجعل عقله يقفز متقدّماً كحصان أطلق سراحه في مرج أخضر بعد شتاء طويل بارد، وقد تحقّق من أن الأيام الخمسة الماضية التي أبعدته عن مخطوطته قد عمّقت من إدراكه لمعضلات الحياة وجعلته أكثر استيعاباً لها . وفجأة ، قفز شيء ما إلى عقله ليوقفه : إن ناتاشا هناك مستلقية تحت الغطاء لا يغطي جسدها الا ثياب شفّافة رقيقة ـ وبعد لحظات مات هذا الشعور فكأنها في مدينة أخرى بعيدة فلو أبعدت غطاء السرير وبانت تقاطيع جسدها ، لأعاد الغطاء دون نظرة واحدة . وتابع عمله الفكري .

بدأ الكتابة دون توقف واضعاً المخطوطة بجانبه ، وحين أطلّ جاردنر من شق الباب ، بعد ساعة من الزمن كان البروفسور لا يزال مستمراً في كتاباته ، وناتاشا مستغرقة في نومها . أشار الى زوجها بالهدوء وأخذ أوراقه وخرج بصمت على رؤوس أصابعه ثم أغلق الباب بحرص شديد ليجد جراي في الجانب الآخر من الممر يطرق باب غرفته ، فسأل تسفايغ جاردنر :

ـ هل رأيته ؟

ـ نعم .

فتح لهما باب غرفته وأشار إليهما بالدخول مع رغبة في نفسه تمنعه من تغيير وجوده في غرفة ناتاشا إذ أحس بأن الزوج قد توقّع وجوده هناك ، فقال بسرعة :

ـ أين رأيته ؟

جلس جاردنر على حافة السرير ليقول :

ـ لقد زارنا منذ ساعة في البيت الريفي ليقول بأنه تحدث معك ، فما الذي قاله لك ؟

ـ لا شيء !

فانطلق جراي ليقول : ـ إنه شيطان محتال زارنا فجأة دون أن يكون لديّ متّسع من الزمن لكي أخفي المنظار ، ثم إنه تعلّل بأن زيارته فقط للتعرّف علينا وإخبارنا بقصة تناوله الغداء معكما ، هل قلت له مَنْ أنا ؟

ـ وماذا عنك ؟

ـ أعني مَنْ أنا ؟

ـ لا ، لماذا ؟

ـ لأنه يعرف ، والآن كيف عرف هذا الشيطان ؟

أجاب جاردنر بهدوء : ـ ليس ذلك بالأمر الصعب ، فأنا أعرف أنك صديق البروفسور تسفايغ قبل أن أقابلك .. ولا أدري كيف عرفت .. لعلّ السبب صحيفة يومية أو أي شيء آخر ..

قال جراي كمن وجد الجواب :

ـ أوه عرفت . إنه الرسم الكاريكاتوري اللعين الموجود في حانة النادي والذي نشرته إحدى الصحف الشهيرة .

قال جاردنر : ـ هذا صحيح ، فأنا ما زلت أذكر ذلك الرسم .

وقُرع الباب لتطل منه ناتاشا التعبة المتثائبة التي جعلت تسفايغ يعتقد بأنها لم تنم خلال الساعة الماضية . وقالت دون أن تنظر الى وجه معيّن :

ـ هل لي في سيجارة ؟ عم تتحدّثان ؟

– إننا نجمع المعلومات .

أخذت ناتاشا تتمطى وهي تدخن بشراهة كأنها لم تدخن أية سيجارة طيلة يومها ، وبدأ تسفايغ يلخص قصة المقابلة مع نيومن ، ثم ذكر حديثه الهاتفي مع كولبرايت من لندن .. فقال جراي :

– الوقت قد حان لاتخاذ خطوة عملية جديدة ؛ فإذا استطاع صديق كولبرايت الجزم بأن نيومن هو السكرتير في قضية بالسكين فسوف أتصل بدائرة اسكتلانديارد لمتابعة القضية .

ظهر القلق على وجه جاردنر الذي قال :

– ما زلت قلقاً من هذه الناحية ، أنه قد يغلبنا .

وأجاب جراي : – أعرف ذلك .

قالت ناتاشا : هناك عزاء واحد ، وهو أنه لن يجرؤ على إلحاق الأذى بنيم .

فأجاب جراي : – لا ، لن يفعل هذا .

وقد ألقى بكلماته دون تفكير ، محدقاً من خلال النافذة ، وأحس تسفايغ بأن السير في الغرفة يخفف من توتر الجو ، ومن اضطراب الآراء المتناقضة ، وأن عليه أن يقول عدة أشياء دفعة واحدة ، ولكنه قال :

– ذلك ليس بالأكيد .

فسأله جراي : – ما الذي كونته عنه ، هل بدا لك رجلاً عادياً ؟

– من أية ناحية ؟

– هل تظن أنه يسعى لإيذاء فرجوسن ... مدفوعاً بنوع من الشجاعة الظاهرة ؟

هل شعرت بأنه أراد رؤيتنا ليزيد من سخريته بنا ويهزأ منا ؟ . لقد رأيت مجرمين من هذا النوع .. وقد قبض عليهم لشعورهم بالثقة التامة التي تسهل القبض ، ولكنهم يقعون بعد القيام بالجريمة لا قبلها .

قالت ناتاشا : لا أوافق على هذا الرأي ، فلو كان مجرماً لما انتمى الى هذا النوع ، لأن إساءته المتعمدة كانت تهدف الى حصوله على شيء ما منا .

وجلسوا في صمت لحظات ، وبدت الغرفة قاتمة من الدخان المتطاير بين جدرانها وسقفها ، وقال جراي :

– هل تريد الاتصال بفرجوسن ؟

– لماذا ؟

– لأننا قمنا بما في استطاعتنا وجعلنا نيومن يحس بأننا نعرف شيئاً رغم شكي في معرفته مقدار ما نعرف ، وأمامنا الآن الانتظار ، هذا إذا أردت رؤية فرجوسن وحدثته بشكوكنا .

– وماذا ننتظر ؟

– قدوم كولبرايت مع صديقه المصور الذي يمكنه التعرف على نيومن ، سوف أتصل بكولبرايت الآن طالباً منه أخذ أول قطار قادم .

– أفرض أن نيومن قرر الهرب الليلة!

ونظر جاردنر إلى ساعته قائلاً :

– هناك طريقة واحدة لمراقبته : سيارات الأجرة ، إذ عليه أن يطلب سيارة لأخذه الى المحطة ، سأذهب الآن ، فقد اكتشف شيئاً .

فقالت ناتاشا : – أنا أشك في محاولته الفرار هذه الليلة ، لأن عمله هذا بمثابة اعترافه بالجرم .

فسألها زوجها : – هل تعتقدين أنه مجرم ؟

أغلقت عينيها وذهبت في غيبوبة الآمن مسحة تركيز علت وجهها ، ومضت لحظات ليقول جراي :

– أخاف أن يكون تخمين زوجتك لا يختلف عن ظنوننا .

فأجاب جاردنر دون أن يسحب عينيه عن زوجته :

– انها ذات رؤيا فجائية في معرفة الأشخاص أحياناً ، فهي وسيط كما تعلم .

فتحت عينيها ونظرت إليهما بدهشة كأنما تستغرب وجودهما في الغرفة حولها .. فتحمس الزوج قائلاً :

– حسناً ..

- لا أدري ، فلم أقابل شخصاً مثله في حياتي ، لقد حيّرني ..

فأجاب الزوج ضاحكاً : - هذا يعني أنه معقّد .

ووقف جراي ليقول : - سوف أتصل بكولبرايت .

فسأل تسفايغ : - لنفرض أنه لم يستطع احضار المصور معه ، فماذا نفعل؟

- في تلك الحالة ... لا أدري .. يمكنكم العودة الى لندن وقد أعود معكم . ولكنني أصرّ على بقاء شخص منا لمراقبة نيومن ، فهذا ضروري .

فاقترحت ناتاشا : - إن بإمكان جوزف البقاء هنـــا للمراقبة وسأعود بكم بواسطة السيارة الى لندن ..

فقزت عيون الجميع نحو جاردنر الذي قال بلا اهتمام : - سأفعل ما تريدون.

فردّ عليه جراي : - سأتحدث مع كولبرايت أولاً ...

وهنا قاطعه البروفسور : - هناك حلّ آخر .

- ما هو ؟ قل ..

- دعوني أذهب لرؤية جوستاف هذا المساء .

- وما الفائدة من رؤيته ؟

ألقى تسفايغ بعقب سيجارة بحركة دلّت على خوفه ثم قال : - قد تعطيت دليلاً مادّياً نرتكز عليه ، ولكن صريحين مع أنفسنا ، فهو يعلم اشتباهنا بأمره ولكنه يعرف أيضاً أننا نفتقر الى الدليل الذي يدينه .

- كيف تكون على ثقة من ذلك ؟

- لو كنّا نملك دليلاً لاستجوبته الشرطة بناء على هـــذا ، ولكننا لا نملك الدليل ، وماذا لو أن المصوّر أثبت لنـــا أن نيومن هو السكرتير في قضية مادستون ، ما الذي سنفعله بعد ذلك ؟

فأجاب جراي : - ولكن كيف تعرف أننا لن نجد دليلاً ؟ وعندما نطلب من الانتربول أن يواصل تحقيقاته فإننـا سنعرف ماذا فعل نيومن بعـــد قضيّة مادستون ، إنه قتل مــــا لا يقلّ عن إثني عشر رجلاً عجوزاً . علينا أن نكتشف هذه الأشياء .

- قد تكون صائباً ولكن ما زلت أقول أننـا لا نستند الى شيء ، إفرض أنني ذهبت لرؤيته وحيداً هذا المساء ...

- سيحاول الحصول على معلومات منك دون أن يعطيك شيئاً

- ولنفرض أنني أعطيته ما يريد من معلومات ، وإنني أخبرته بكل شيء..

- سيكون خارج البلاد في مساء الغد ..

- لن يستطيع أن يفلت من الشرطة إذا ما بدأت بمطاردته . ألا تظنّ أن هربه سيثبت جرمـــه ؟ وأين يمكنه الذهاب ؟ فالشرطة ستعرف بكل سهولة متى وكيف غادر البلاد .

سار جراي نحو الباب فكشفت خطواته عن جزعه الشديد . وقال لهم :

- سوف أتصل بكولبرايت أولاً ، ثم نناقش القضيّة .

- ١٢ -

تباطأ الليل في انقضائه فأحسّ تسفايغ بالرّعشة ، بينما وعـد كولبرايت بالاتصال بهم حالما يجد المصوّر . وبعد التاسعة أخبرهم هاتفياً أنه سيأتي برفقة المصوّر في ظهر اليوم التالي . وقد أمضوا ساعة قبل العشاء يشربون الجعـة في غرفة الجلوس مع أن تسفايغ لم يشعر برغبة في الشراب لسيطرة التعب والملل على حركاته ، فحاول أن ينزوي في غرفته لمتابعة الكتابـة ، ففشل لاهتزاز أفكاره وتفككها. وعند العشاء كرع زجاجة من النبيذ، ولسبب ما ، تراكم عليه التعب والضيق ، فلّ حديثهم المتواصل عن نيومن ، وصعب عليه أن يغيّر موضوع الحديث ، مع ملاحظته أن ناتاشا لم تتحدّث كثيراً أمام زوجها الذي اقترح أن يعود الى البيت الريفي كي يتأكّد من وجود نيومن هناك .

ازداد هطول الثلوج وتراكمها فوق الأشياء ، وهبّت الريح متواصلة فأحزن صفيرها الكئيب تسفايغ الذي جلس بإنحناء فوق مقعده ، حالماً بشقته الدافئة في لندن .

قال جاردنر : — إسمع يا كارل ، أرجو أن لا تمانع في مناداتك بإسم كارل ، إن لديّ نظريّة عن شخصيّة نيومن ، إنه ما أسميه « بالواهيا » .

— ماذا ؟

— واهيا ، هل تذكر رسالتي التي كتبتها اليك السنة الماضية ؟ لقد شرحت فيها هذه النظرية ...

فأجاب تسفايغ بضيق : — إن ذاكرتي تشكو من النسيان .

انه لا يذكر أنه قد قرأ السطر الأول والأخير من رسالة جاردنر المؤلفة من

عشرين صفحة . وقد تابع جاردنر الحديث :

— عندما زرت أفريقيا عام ١٩٣٨ ذهبت إلى رواندا بالقرب من بحيرة فكتوريا حيث وجدت أن معظم الناس هناك من « البتوس » يحكمهم فريق من العمالقة امتازوا بطول قاماتهم البالغة تسعة أقدام . انهم فريـق شاذ يُسمّون بالواهيا . ومهما يكن من أمر فهؤلاء الواهيا سفّاكون مجرمون ، وقد ثار الشعب هنـاك على مليكهم المسمّى « موزينجا » واختلط بهم ، وعرفت بأن الواهيا مجموعة بشرية غريبة ، إنهم عنصر من الدرجة الثالثة ...

— ماذا قلت ؟

— أنت تعرف عنصر العمالقة الذي سبق جنسنا البشري . لقد كتبت هـذا في رسالتي اليك : إن هؤلاء البشر يعتمدون في نظامهم الإجتماعي على الوحشية ، وهي ليست وحشية دينية بل إنها شيء حقيقي ، إنها السادية الدموية النقية بالرغم من أنهم أذكياء ، وأنا أعتقد أن آباءهم كانوا من العباقرة إذا قورنوا بنـا ، وهذا ما خطر لي حينما قابلت صديقك نيومن ...

— هل تعتقد بأن جوستاف نيومن سادي النّزعة ؟

— ليس تماماً ، هؤلاء الناس يختلفون عنـا بالتفكير ، فهم ينظرون الينا كمجموعة من « باهوز » ، آه .. لا زالا هناك .

واجتازوا كيرفيلد حتى وصلوا إلى المنحدر الذي يقود الى البيت الريفي . كانت أضواء بيت فرجوسن مشعّة مرئيّة . وقال جاردنر :

— من المستحسن أن نذهب الى أسفل لنتأكد .

رأى تسفايغ خيال نيومن وهم يخترقون الطريق ، فقال جاردنر :

— سأبتعد بالسيارة بعض الشيء كي لا أثير شكوكهم ، لإيماني بأننا لا نتعامل مع مجرم بسيط ، ومثالاً على هـذا فإن ناتاشا التي تستطيع أن تعرف المجرم لم تستطع أن تغوص في أعماق نيومن .. إن هذا الشاب يحيرني .

وأراد تسفايغ أن يتكلّم ، أن يقول شيئاً :

— لنفرض أنك على حق فيما يتعلق بنيومن ، فكيف تعلّل مولد « واهيـي » ،

من أبوين يهوديين ؟

– هذا أمر في غاية البساطة ، فاليهود أنفسهم اختلطوا بعنصر من الدرجة الثالثة . وإنــك لتجد في التوراة الكثير من الشواهد على العنصر العملاق ، ولا شك أن « جوليات » واحد منهم وحشيون أيضاً ، وهذه هي نتيجة التزاوج بين جنسين مختلفين كما ترى .

بعد عشرين دقيقة عادوا إلى الفندق ، وعاد جاردنر الى الحــديث بحماسة بالغة شارحاً نظرياته الغريبة عن الكوارث الكونية ، وعن اكتشافه الجديــد الذي يبرهن عن التقارب بـين اللغتين الولشية والعبرية . وتابع جراي وناتاشا رشف قهوتها ، ولكن جراي هبّ واقفاً ، فقال له جاردنر :

– لا تذهب ، فهذه الأمور تهمك يا سير تشارلز . إنها من اختصاص عــلم الحبر مع أنها تقع على نطاق واسع ، وبعض الشواهد دفن لملايين من السنين .

أصغى البروفسور تسفايــغ بدهشة لأحاديث جاردنر الملونة بالمآخــذ المديدة .. وأخيراً وقف جراي مرة ثانية ليقول :

– أخشى ان أقول إن نظرياتك فوق مستوى عقلي العادي ، سأذهب للنوم الآن .

وتوقع تسفايغ من ناتاشا ان تستأذن في الذهاب إلى غرفتها لكونهـا لم تلق إهتماماً لنظريات زوجهـا ، ولكنها أشعلت سيجارة ثانيــة وبدأت تحدّق في أظافرها الطويلة ، ثم مضت عشر دقائق أخرى غادر بعدها جاردنر الغرفة .

فسألت ناتاشا : قل لي الحق ، هل هي تافهة ؛ نظرياته ، كما تبدو لي ؟

فأجاب تسفايغ وقد سرّه أن يلتقط الفرصة ليعبّر عن شعوره :

– دعني أكون صريحاً معك : إن زوجك ذو عقل مشوّش غير منظم ...

وتوقف لكي ينظر إلى الباب خوفاً من عودة جاردنر ثم تابع قائلاً :

– لا يمكننا البدء بمناقشة جديــة وأنا لا أكنّ إحتراماً للتقاليد الجامعية ولكنها على الأقل تضمن وجود لغة مشتركة ومفاهيم مشتركة . أما زوجك فهو لا يتمتع بأية موهبة . إنه يذكّرني بعالم الآثار « ادوارد توسون » ... هــل

سمعت بهذا الإسم ؟ لقد كان توســون رجلاً شجاعاً ذا بصيرة حــادة وكانت لأبحاثه قيمة بالغة ، لكنه لم يكن ناقلاً أميناً في اكتشافاته ، فقد كان يتمتع بخيال واسع وأنا واثق من أن زوجك قد يصبح عالم آثار ...

وكفّ عن الحديث لشعوره بالحرج ولاحساسه بقرب عـودة جاردنر إلى الغرفة ، لكنه ما أن تأكد انها لا تزالان وحيدين حتى سألها :

– هل تدركين ؟

– تمام الإدراك .

وابتسمت بغرابة وهي تسأل :

– هل تعني أن جوزف معتوه أو يحمل أفكاراً مجنونة ؟

– أنا ...

– اسمع ، لا تحتر كذلك معي ، فأنا أحتملها .. تحدّث بصراحة !

وتنفّس بعمق : – حسناً ، دعيني أصوغها بهذه الطريقة : إن أكثر زملائي لن يترددوا في دعوته بهذا الإسم ..

– لكنك تختلف عن زملائك . هل تجد شيئاً مهماً في نظرياته ؟

وتلوى تسفايغ متمنياً لو يطل جاردنر فجأة حتى لا يجيب على سؤالها ، ولما لم يجد سوى الصمت الذي طال ، قال بغضب :

– يجب أن أكون صريحاً معك فأنا ... لا أوافق على جميع ما قاله لنا .

وأحسّ بالراحة تسري في جسده بعد إجابته التي اعتبرها موفقة ، ولكن ناتاشا عادت لتقول مرة ثانية :

– هل أنت واثق من أنه لا يستنــد إلى أفكار مهمة ؟ لطالما قال لي أن نظرياته سوف تهزّ العالم الجامعي .. هل تعتبر هذا مجرد حلم ؟

فأجاب تسفايغ دون أن يشعر بالإحراج :

– نعم إنه ذلك .

– هل أنت على ثقة تامة ؟

وأراد أن يكبت شعور الملل الذي نبع من وجودها معه ، فقد ظهر جهلها

واضحاً بآراء زوجها التافهة ، وقال :

– يجب أن أبيّن لك بأن زوجك لن يجد من علماء الجنس البشري من يهتم بنظرياته ولو للحظة واحدة ، وأنا لا أقول بأنه على خطأ ، فكل ما أعرفه أن بعض آرائه قد تكون صحيحة لكنه إذا ما وقف وسط جمهـــور من الأساتذة ليشرح لهم نظرياته فسوف يوافق الجميع على منحه شهادة معتوه .

– فهمت ذلك الآن ، شكراً لك .

وجلسا بصمت يدخنان وينتظران عودة جاردنر ، ثم قالت ناتاشا :

– هل لي بسؤال آخر : هل ستحاول إجتنابنا إذا ما عدنا إلى لندن ؟

وفهم ما الذي عنته فقال :

– أنا أكره تجنبك ، ولكن إذا أردت أن أكون صديقاً لزوجك ، فعلي أن أخبره بالحقيقة وإلاّ فسأجد صداقته أمراً صعباً .

– إذن لماذا لا تخبره الآن .. عند عودته ؟

اختلج شيء ما في وجهه وسرى في جسده فشعر بالإنفعال وهو يقول :

– لا ، لن أخبره الليلة ، فنحن نحتاج إلى وقت طويل .

وكأنما أزيح عن صدر تسفايغ عبء ثقيل بعودة جاردنر إلى الغرفة ، ورغم ذلك فقد كانت بداية كلماته :

– لقد كتبت رسالة طويلة إلى مارغريت ميـــد عن نظريتي في تثليث الذكر ...

فقاطعته ناتاشا بصوت حاد :

– يمكنك اخبار كارل بهذا في وقت آخر ، فأنا أعتقد بأنه متعب .

– هل أنت متعب ؟ أنا آسف ، سأختصر الشرح رغم إيمـــاني بأن النظرية سوف تجذبك وتسحرك .

وأصغى تسفايغ بضيق كأنما سجن داخـــل جدران ثلجية ، ثم رغب في إشعال سيجار ، ولكنه غيّر رأيه لشعوره بجفاف في حلقه ؛ وجلس هناك يهزّ رأسه ويهمهم بين لحظة وأخرى ليوهمه بإستماعه ، فإنه لم يكن راغباً في إظهار

ميله في الصمت ، وبرز سؤال ظلّ يتردّد في عقله طيلة مدة الشرح « بحق السماء ما علاقة هذا كله بآرائي ؟ »

وأخيراً حلّت الفرصة التي حلم بها حين قال جاردنر :

– لقد كتبت مقالاً عن تفسيري للإنسان الحجري في مالكولا ، هل لـك أن تلقي نظرة عليه ؟ إنه في غرفتي الآن .. هل أحضره ؟

قالت ناتاشا بغضب هادئ :

– لماذا لا تجعله يقرأه في ليلة أخرى ؟ فأنا أشعر بأنه متعب جداً .

وسرّ تسفايغ بالنغمة الهادئة المهتمّة المناسبة التي حدثت بها زوجهـــا ، وخاصة عندما سمع جاردنر يقول :

– هذه فكرة رائعة .. لا بد أنك متعب .

وقف البروفسور ليقول بهدوء :

– أنا أعجب من أمر نفسي ، فأنا أصاب بالتعب بسهولة حينما أبتعد عن بيتي .

– هذا صحيح ! وسوف يتسع أمامنا المجال في المستقبل لنناقش هذه الأمور في لندن ، وبهذه المناسبة فسوف نقيم حفـــلة في العاشر من هذا الشهر إذا كنت تهتمّ بالحضور ...

قالت ناتاشا بحدّة : – سله في وقت آخر ..

قال تسفايغ : – إذا كنت في لندن فسوف يسعدني المجيء الى الحفـــلة ، والآن أرجو معذرتي فسوف أتبع جراي وأذهب لأنام .

وما أن صعدت قدماه الدرجات المغطاة بالسجّاد الكثيف حتى هنّأ نفسه على تلصه ! فمن السهل جداً الإدعاء بأنه سيذهب الى أكسفورد في العاشر من الشهر . ولكن ماذا عن ناتاشا ونظراتها ؟ لقد أحسّ بالخيبة إذ ان الأمر لم يكن يتعدّى نظرة واحدة منها تشرح فيها بأنها تعرف أن السمك الكبير يجب العناية بـــه بإهتمام . وما أن دخل غرفته حتى فتح النافذة ليغيّر الجو الدخاني القديم . واتكأ هناك ، فريح الليل الباردة ستهدأ من حدّة أعصابه ، وتسلّل الظلام الى الغرفة المجاورة حيث ينام صديقه جراي . وخفت الريح وبهت صفيرها ، ثم انعكس

ضوء القمر على الثلج المتراكم في الشارع المهجور . وحمل إليه شيء ما في أعالي السطوح القريبة ، المضاءة بنور القمر ، شعور اللافردية والحرية ، الحرية النابعة من إضطراب عقلي هام يعيش على حافة وجدانه ، ثم سمع صوت عائلة جاردنر في الممر الطويل وصوت انغلاق باب غرفتها . وتناول معطفه بدافع نفسي حاد وانطلق خارج غرفته وإبتعد بخفة حتى لا يسمعه أحد من مجموعته وتنهال عليه الأسئلة عن عدم وجوده في الفراش ، ثم إتجه الى الطابق السفلي عن طريق سلم الخدم ، واستطاع أن يعرف لماذا اندفع الى الليل فهو لم يشعر بالراحة مطلقاً وهو يفكر بأن نيوس عدو أصيل وبأن جاردنر صديق حميم . وسار على مهل مثبتاً عينيه على الأرض ، شاعراً بأنه لم يعش مثل هذا الصراع الحاد منذ سنين عديدة . وزاد شعوره حدة رؤية الشوارع الخالية من الناس بالرغم من أن الوقت لم يكن يتعدى منتصف الليل . ثم خيل إليه ان الرياح تأتي من سماء مهجورة لتمر على أرض جرداء . كانت الرياح كحيوان ضخم ينطلق من داخله ، مثل لعنة تنصب فوق الإنسان ، لعنة الطليق على السجين ، على الإنسان المختنق بفوقية الشخصية . لم يحمل إليه تفكيره وسيره أي شعور بالراحة بل عمق إحساسه في معرفة التهمة مما جعله يندفع صارخاً بحنق : « لمَ حدثت جراي ؟ » وأخيراً تخفف من عبث التأنيب الذاتي حين وجد نفسه يقف بالقرب من محطة القطار حيث وقفت سيارة أجرة يتيمة فانطلق بلا تفكير وبلا محاسبة للدوافع النفسية التي تتحرك في داخله ليقول للسائق الذي جلس بهدوء يدخن سيجارة رفيعة :

– هل يمكنك أخذي الى كركفيلد ؟

– آسف يا سيدي ، فأنا بإنتظار القطار القادم ، وبإستطاعتك أن تحصل على سيارة أخرى اذا اتصلت هاتفياً . . .

– شكراً لك .

عادت قدماه في اتجاه الفندق بعد ان انتفت الرغبة الجامحة في التحدث الى جوستاف وكأنها لم تكن ، ووجد ان الأمر كله عبارة عن هراء . فقد وعد

جراي بألا يتحدث الى نيوس حتى يأتي كوليرايت بصحبة المصور . ومع ذلك فقد شعر بأنه لو اخذ سيارة لتنطلق به بإتجاه البيت الريفي فسوف يتلاشى تفكيره الحالي بكل شيء حتى بصديقه جراي . وأصابته دهشة عندما تأكد من انه يفرق بقدر بين جراي وجاردنر .

أعلنت الساعة الثانية عشرة حينما صعد الى الطابق العلوي خالياً من شعوره المتعب ، وراغباً في قدح كبير من النبيذ المعتق ، أو بقدح من الجعة الألمانية البيضاء التي توضع في كأس كبيرة مدورة كعادتهم عندما يقدمونها في حانته المفضلة في هايدلبرغ أو في تلك القرية الصغيرة الهادئة الواقعة عند ملتقى الراين والموزيل ، حيث يمكن للإنسان أن يحصل على نصف زجاجة شهية بما يقارب السنة بنسات . وتساءل عن إمكانية إحضار زجاجة من النبيذ الى غرفته ، وما أن سار في الممر متجهاً نحو غرفته حتى خرجت ناتاشا من الحمام مرتدية معطفاً ليلياً مزركشاً باللون الأخضر ، فقال تسفاييغ بلهجة اعتذار :

– ذهبت لاستنشاق الهواء النقي .

ووقف بالقرب من غرفته يبحث في جيوبه عن مفتاح الحجرة عندما قالت ناتاشا :

– حسناً ، سأدخل لنتحدث .

– الآن ! وماذا عن زوجك ؟

– إنه نائم .

– في هذه الحالة تسعدني صحبتك .

كان شعرها المبلول قد تهدل فوق كتفيها ليضيف عليها مظهر فتاة مدرسة ، وحملت منشفة الحمام بيد مسترخية تعلقت بها حقيبة مصنوعة من البلاستيك وضعت فيها بعض الأشياء التي تستعملها في الحمام . كانت الغرفة باردة جداً ، فقد ترك النافذة مشرعة عند خروجه ، واختفت رائحة السجاير القديمة . واقترب البروفسور من النافذة ليغلقها وليغلق الستائر فسألته ناتاشا :

– ألديك أي مشروب ؟

– يؤسفني أن أقول لا .

– عندي بعض الويسكي ، هل أحضره ؟

– ألن يستيقظ زوجك ؟

– هذا غير مهم .

وعندما خرجت وقف أمام المرآة ومسح أسفل ذقنه بباطن يده ، ثم تمعّن في وجهه المسنّ الذي بادله النظرات وفكّر : « لا غرابـة في تفكيرها بك كأب » ولدى عودتها قالت :

– لا يزال صاحياً ، ولكنه لا يريد الويسكي .

وانتزعت صمّامة الزجاجة وغسل تسفايغ قدحين ثم وضعها على الطاولة وهو يسأل :

– أين تفضلين الجلوس ؟

– في السرير ، فقدماي باردتان .

وخلعت الخفين وإندست تحت الغطاء ثم قالت :

– آه ، هذا رائع .. فقد وضعوا زجاجة الماء الساخن .

وضعت الوسادة خلف ظهرهـا ، وصبّ البروفسور الويسكي في القدحين ثم سأل :

– ماء ؟

– الكثير منه إذا سمحت .

قال وهو يناولها القدح :

– لنفرض أن جوزف جاء ليسأل عنك .

– لن يمانع ، ولن يأتي على كل حال .

– هل يثق بك ؟

– أعتقد أنه يثق بك أنت .

– هل تلبسين شيئاً تحت معطفك هذا ؟

– طبعاً لا ، فقد خرجت لتوي من الحمام .

– هل يمانع في وجودك في غرفة رجل آخر ؟

– طبعاً يمانع ، ولكنه يثق بك ، وكل تفكيره الآن يتعلق بنظريته حول قبائل بني اسرائيل التائهة وعدم تعليقك عليها .

– هه ، مم ، من .

وشدّ حزام معطفه الليلي ووضع قدميه في خفين ثم استراح فوق الأريكة الواسعة . وأعجب بمذاق الويسكي فشرب قدحه في جرعتين ، ثم قالت فاشا :

– ما سبب قلقك هذه الليلة ؟

– هل لاحظت ذلك ؟

– نعم ، فقد كان ظاهراً في حركاتك .

ونهض واقفاً بعد ان أراح قدحه على ذراع الأريكة ، إذ اعتراه فرح داخلي لم يسببه الويسكي أو رؤيـة وجهها الجذاب المتطلّع اليه من على السرير، بل كان السبب الحنان الذي شعر به نحوها ، او حب السيطرة ، او الثقة التامة بإمكانية الحديث معها ونسيانه شعوره الجسدي السابق وتألق الشعور الأبوي في نفسه . وقال :

– أنا قلق على جوستاف .

– لماذا ؟

– أشعر كأننا ...

إبتسمت وهي تقول : – قطط تصطاد فأراً .

– بطريقة ما نعم، أشعر وكأنني حين بدأت كل هذا قمت بعمل لم أقـدّر عواقبه .

– الا زلت تشعر بهذا رغم مقابلتك له اليوم ؟

– نعم ، وحتى بعد اليوم .

– لكن لماذا؟ إن الإنطباع الذي خلّفه في نفسي هو أنه رجل صغير ساخر غير مرغوب فيه . وأنا غير متحيّزة بسبب وقاحته معي . وإنما هذا الانطباع جاءني حينما اظهر أدباً بالغاً في الليلة الماضية .

– أنت لا تدركين يا ناتاشا ، فما زلت شابة صغيرة .

– ماذا ؟ انا في الثانية والثلاثين .

– اعني أنك لا تدركين القوة التي جعلت من جوستاف رجلاً ...

وهزّ كتفيه كأنما يلقي عنهما عبئاً اثقلهما وليفكر في الكلمة الثانية التي يصف بها نيومن ، ثم قال :

– وجعلت منه رجلاً مدمّراً . يجب ان تعرفي ماذا حدث في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى ، فقد خيّل لنا أن العالم يدخل ابواب عصر جديد يرفرف فوق مدنه السلام ، وقد أحيينا السلام لرؤيتنا أنقاض أوروبا حولنا ؛ وكان هذا الضمان الوحيد بأن لا يبدأ أحد القادة حرباً أخرى ، وكلنا آمن بحتمية كتمثال جديد رائع لعالمنا يرمز الى التعقل والتعاون ، ففُتحت جامعات جديدة في هامبورغ وفرانكفورت ، وذهب صديقي أرنست كسيرر ليدرس في هامبورغ وبقيت أنا في فرانكفورت قبل أن أنتقل الى هايدلبرغ . لقد آمن كسيرر بما آمنت به ، بالمستقبل الجديد الذي يضمّ في طياته الحكمة والنور ...

كان جالساً بالقرب من المدفأة مسنداً ظهره الى الحائط ، ثم إقترب ليأخذ قدحه من على ذراع الأريكة ووضعه بجانبه . وشعر بأن الدافع الغامض الذي يغلي في داخله مثل دينامو ليشرح لها حالة ألمانيا ، هو الذي حملها على مشاركته مخاوفه ، ولكي تفهم ما يريد قوله ، تابع قائلاً :

– لا بد وأن تدركي أن التفاؤل الذي غمرنا لم يكن من عادة الفلاسفة .. لقد اتضح لنا أن الأشياء تتطور إلى الأفضل ، وبدأت المسألة تتعمّق حينما حرم كسيرر اليهودي من منصبه الجامعي بسبب جنسه . وهناك شعرنا بأن البشرية تنقسم إلى جنسين متميّزين كالبقر والخيل : في الجانب الأول الحمقى القساة بشهواتهم وتعصبهم ، وفي الجانب الآخر المثقفون العقلاء . وتساءلنا قبل عام ١٩١٤ : هل يُقتل المثقفون في يوم قادم بواسطة ثورة عارمة يشعلها القساة ؟ ثم أصابنا اليأس من الجنس البشري لما بدا عليه من قسوة بغيضة حمقاء ، وتساءلنا من جديد عن طريق الخلاص وآمنت بأنني لو كنت إلهاً لأفنيت الجنس البشري

بأجمعه . ثم جاءت الحرب وكأنما أخرج كل خرابها إنساناً نظيفاً طهر من ذنوبه ، وما زلت أذكر ليلة قضيتها في برلين مع كسيرر حدثني فيها عن رأيه في النماذج المثالية وعن اعتقاده بأنها المدخل الجديد للفلسفة او الجسر بين الفن والعلم . لقد تحدثنا الليل بطوله ، ورأى كل منا اوروبا الحالية ، اثينا القديمة ولكنها بلا قتلة وبلا جبناء وبلا فساد او قوميات صغيرة ؛ وآمن هوسرل وجسبر وانا ونيومن الأب بهذه الفكرة ، بل فكر بعضنا ان هذه الحرب إن هي الا نهاية الصراع بين القوميات في سبيل إنعاش الروح الإنسانية ، وإن عصور النور ستأتي لتغمر عالمنا بالحب والسلام . وفجأة جاء هتلر على غير توقع ، وشبنجلر برسالته التي تضمّ المدنية الغربية بالزوال لأن المدنيات كالورود لا بد وان تموت .

لقد خيّم الظلام مرة ثانية فوق رؤوس الناس ولم نكن لنصدّق الظلام ، فماذا عن إيماننا ؟ هل كانت أحلامنا أوهاماً صبيانية كأحلام فتاة مراهقة برجلها الصغير ؟ وكما ترين فلم يحطّمنا الأمر ، فقد أضاء في نفوسنا بصيص من أمل ، وكنا ، جسبر وكسيرر وبارث وأنا . أما الشباب مثل جوستاف فقد آمنوا بأن العالم يسير إلى طريق الحكمة والسلام والتفاؤل ، وفجأة أصيبوا بإنهيار آمالهم وشعروا بأنهم خُدعوا مرتين على يد العسكريين وعلى يد أساتذتهم . هل تدركين الآن لماذا تحوّل بعضهم إلى مدمّرين قساة ؟ ولماذا حاولوا بكل قوة اقتلاع معتقداتهم من جذورها ؟

أرمأت ناتاشا بهدوء وهي تقول :

– عرفت الآن كيف ينقلب الإنسان إلى مجرم عتاف .

– لا أعرف من أنا حتى أحكم ، فصراعي كان شاقاً ، وقد خُيّل لي أن الحب والشفقة هما القيم الوحيدة التي تنقذ عالمنا ، ومع هذا فأنا لا أثق بالحب والشفقة ، ولعل رجالاً مثل جوستاف كفروا بها أيضاً وحاولوا كبتها ، وأعرف أيضاً أن طلبة من طلابي انضموا إلى الحزب النازي وأصبح بعضهم قادة قساة قتلوا كثيراً من الناس ، واتهمني آخرون باليهودية التي أنا منها براء ، وكتب آخر كتاباً صغيراً تحدّث فيه عن يهوديتي ، وهذا غير صحيح .

– أخبرني يا كارل : هل ذهبت الى نورمبرغ للدفاع عن تلميذك القاتل ؟ أعني الذي أصبح من القادة القساة الذين قتلوا كثيراً من الناس ؟

– طبعاً لا .

– اذن لماذا تشعر بالشفقة نحو جوستاف نيومن ؟

– آه . .

ابتسم لها وذهب ليضع مزيداً من الويسكي في قدحه ثم تابع :

– الجواب على سؤالك ليس بالشيء السهل ، ولكنني سأحاول . فعندما استمعت الى زوجك وهو يتحدث عن نظرياته حول قبائل بني إسرائيل التائهة ، وحول عبادة الهنود المذكر ، شعرت كما كنت أشعر حين أستمع الى نازي يقتبس من محاورات ألفرد روزنبرغ لإثبات انتماء اليهود والزنوج الى جنس منحط كالقردة .

أرعبتها كلماته فقالت بارتعاش :

– الى هذه الدرجة من الانحطاط ؟

– أرجوك أن تغفري صراحتي ، فأنا لا أحدثك بوصفك السيدة جاردنر .

– وأنا لا أصغي إليك بوصفي السيدة جاردنر .

– هذا رائع ، فأنا لا أنسب إلى زوجك درجة العتوه التي وصل إليها شترتشر وروزنبرغ ؛ فنظرياته لا تقود الى معسكرات للإفناء ، ومع ذلك فقد اعتراني فجأة سؤال يقول : بأي القيم أطارد أنا جوستاف نيومن ؟ ولو أن العالم حقاً منقسم الى جنسين، القساة والفلاسفة ، فأنا أرى أن من حق الفيلسوف أن يحكم على القساة الذين يرتكبون الجريمة . ولكن لا دليل يدين جوستاف بالجريمة .

توقف قليلاً ليلقي بجرعة من الويسكي في حلقه ، وحين تطلع إليها مرة ثانية ابتسم وهو يقول :

– وزوجك وسير تشارلز ليسا من الفلاسفة .

وسألت : – وما الذي تريد أن تقوم به ؟

– لقد أردت أن أتحدث مع جوستاف قبل حضور كولبرايت ومصوره ، أردت أن أعطيه فرصة لإجابتي بصراحة ، فأنت تذكرين أنه منذ سنين عديدة جاء ليخبرني عن فكرته الجنونية عندما أراد أن يصبح سيد المجرمين ، ولم ينظر إليّ كعدو في تلك الليلة ، أما اليوم فقد عاملني كعدو ، أو لعل هذا خطئي أنا .

– بالرغم من أنه قد يكون مجرماً !

– نعم ، فإذا قبض على جوستاف وقدم للمحاكمة ثم أعدم ، فسوف ادرك ضرورة عملي هذا كما ادركت الضرورة هذه حين اعدم هرمان دنك في نرمبرغ. ومع هذا فأنا احس دوماً وبطريقة ما ان جزءاً من الجرم يقع عليّ انا اذ فشلت خطواته كإنسان . . .

– اذن لماذا لا تذهب صباح الغد ؟

– حاولت أن أراه الليلة وسألت السائق أن يأخذني الى البيت الريفي ، لحسن الحظ فقد كانت السيارة محجوزة .

– أتريدني أن أحملك اليه في سيارتي ؟

– لا يا عزيزتي ، ليس الآن .

وفجأة ألقت الغطاء بعيداً عن جسدها ونزلت من على السرير لتسير اليه حافية القدمين وتقول :

– انني لم أكن افهمك تماماً ، لكنني بدأت .

– هل يهم هذا ؟

– أوه نعم فهذا مهم .

ووقفت بجانبه لتنحني الى الأمام وتعرض يديها للدفء المنبعث من المدفأة . وكشفت بطريقتها هذه عن تكوين صدرها الصغير الشهي . ولكنه أحس بأن حركتها هذه لم تكن صبيانية مقصودة . ولم تدرك للحظة شيئاً عن عريها حتى أنها قالت :

– انك تشعرني فجأة بغبائي .

- غباءك !

- لا لم أقصد ذلك ، أعني انك تشعرني بأنني رخيصة كأنما كنت ألقي بنفسي عليك خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية .

فقال بإبتهاج : - ولكن هل فعلت هذا ؟

- نعم وبطريقة ما ، فان كل النساء يملكنها ، الغريزة الحيوانية ، الرغبة في الإدّعاء ، لكنك فجأة تشعرني ... أوه انا لا استطيع التوضيح ، كأنني ابحث عن منجم ذهب ، فأنا لا افهم فلسفتك على حقيقتها مع انني اود ذلك ، ولكن عقلي لا يستطيع استيعابها، وانت الآن تشعرني ... وكأنني فتاة مدللة رخيصة وصغيرة ايضاً . وصدمته كلماتها فصرخ قائلاً :

- لا وحق السماء !

وخفضت عينيها فلاحظت عري صدرها ، ثم أسرعت في تغطيته حين قال :

- عزيزتي ناتاشا ، صدقيني إذا قلت ... بأنني تمتعت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية اكثر مما أستطيع اخبارك به ، فأنا لا أرفض قط عنايتك الخاصة بي ، ولا أعتقد ان زوجك نفسه يعترض على ذلك .

- طبعاً لا .

- إذن استمري في عنايتك بي .

- هل تعني ما تقول ؟

- طبعاً .

وسمح لها بأن تحتضن يده ولكنه ارتعش حين قرّبتها إلى فمها وقبّلتها ..

قال : - لا ، لا .

فأجابت بإبتسامة عذبة : - حسناً ..

ثم إقتربت منه لتقبله من جانب فمه ، وقالت وهي تضحك :

- أوه إنك حاد الذقن ، كثير الشوك .

وبحركة لاشعورية وجد نفسه ينظر في المرآة من أعلى رأسها متطلعاً الى وجهه المسن ومفكراً في داخله :

- لم يبق من عمري الا عشر سنوات او أكثر .

قالت : - من الأفضل ان أذهب الآن وأدعك تنام .

وأراد منعها ولكنه لم يجد جدوى في ذلك فقال :

- نعم فأنا اشعر بالتعب الآن ، شكراً لك على الويسكي .

- سأترك الزجاجة هنا ؛ تصبح على خير يا كارل .

- تصبحين على خير يا ناتاشا .

وأزاح الستائر بعد ان أغلقت الباب خلفها، ناظراً الى الشارع ثانية ، فالتهب وجهه وذبلت عيناه مما دفعه ليحدق طويلاً في وجهه ، ناظراً الى المرآة قبل استلقائه على الفراش ، ثم قال لنفسه :

- أيها الرجل العجوز الأحمق .

وشعر بدفء جسدها الذي تركته في الفراش فترك نفسه تحلم بقربها حتى انقلب شعور الدفء والدعة الى نوم عميق .

قال جراي وهم حول مائدة الفطور في صباح اليوم التالي :

- من الأفضل أن نعود الى البيت الريفي اليوم .

وسألت ناتاشا : - هل هناك من فائدة ؟

فأجاب جاردنر : - أعتقد ذلك ، فهو بيتنا ايضاً ، هل تودّين رؤيته ؟

إبتسمت قائلة : - لا ، ليس في مثل هذا البرد القارس وليس بدون أثاث .

- يجب ان نذهب الى هناك ، فإذا لم نذهب فسوف يؤيد هذا شكوكه من أننا تجسسنا عليه بالأمس .

كان الجو بارداً جداً وقد امتزج بياضه بسواده ، وتنبأت التقارير الجوية بمزيد من الثلج ، قالت ناتاشا وهم يندفعون نحو البيت الريفي بالسيارة :

- بدأت امقت هذه المنطقة ، وسوف أبتهج فرحاً حين اعود الى لندن

- سنعود في مساء هذا اليوم ، الا اذا اعترضتنا الثلوج .

كانت غرفة الجلوس رطبة باردة فاقت برودتها الريح الشرقية السارحة في خارج البيت ، وكانت جدران البيت بيضاء سميكة ، أما أبوابه فكانت قصيرة

ومنخفضة ، وقد غطيت أرض غرفـــة الجلوس بحصير غليظ مصنوع من شجر جوز الهند . ووجدت ناتاشا كرسياً فجلست عليه وقد تكوّمت بشكل يـدل على البؤس والكآبة . وبحث جراي بعينيه عن قطع من الحطب فوجد في أسفل الحديقة جذع شجرة منخوراً ، فذهب لإحضاره ، وحـــين شطره جاردنر إلى نصفين بضربة من فأس حادّة ، تسرّبت منه فرقة من الخنافس الصغيرة وبدأت تتجوّل في المكان

تعاون الرجال على حمـــل القطع الكبيرة من الحطب ووضعوهـا في مدفأة غرفة الجلوس الكبيرة ، ثم صبّوا فوقها قليلاً من البرافين لتشتعل النـــار بقوّة حادّة جعلتهم يقفون بعيداً عن المدفأة .

قال جراي وهو يراقب البيت الآخر :

– ليست هناك علامة دخان واحدة تتصاعد من مدخنة البيت ، أظن أنهما يفضّلان استعمال المدفأة الكهربائية .

دبّت الحيوية من جديد في جسد ناتاشا من تأثير الدفء فذهبت الى الغرفـة المجاورة ، ثم صرخت :

– هل تركنا هذا الباب مفتوحاً ؟

فأجاب جاردنر : – لا قفل فيه ، ولكن سقّاطة الباب وضعت على الجانب الآخر ، لذا فأنت لا تستطيعين فتحه .

– حسناً ، ليرفع أحدٌ السقّاطة .

تقدّم جراي وجاردنر لينظرا ، وكانت السقّاطة الخشبية موضوعـــة في مكانها بحيث يمكن أن يفتح الباب من الخارج بالدّفع . وقال جراي :

– شخص ما كان هنا ، لقد عاينت هذا الباب بالأمس قبل ذهابنا ، هـــل ترى أيّة بصمات ؟

وتطلّع جاردنر الى الممرّ الواقع خارج الباب ثم قال :

– لا أرى شيئاً هنا ، لكنه إذا سار محاذياً البيت استطـاع تجنّب الثلج ، أنظر .

كانت رفوف البيت الناتئة من على الجدران قـد منعت الثلوج من أن تتراكم في الممرّ المحيط بالبيت ، وحاول جراي دفع سقّاطة الباب ، لكنه قال :

– إنها جدّ قاسية ، وأغلب الظنّ أنـه أغلق الباب بشدّة حينما ترك المكان متخيّلاً أن السقّاطة عادت الى موضعها . أنظر هناك آثار سكّين على الباب .

قال جاردنر : – على كل حال لم يجد شيئاً وإنني لأتساءل : عمّ تراه قـــد بحث هنا ؟

– من المؤكد أن هذا الرجـل لا يسمح للحشيش بالنمـــو تحت قدميه إنه لشيطان ...

وأجاب جاردنر : – آمل أن أرى بيتهما الريفي ، أود أن أعرف محتوياته .

رتّب تسفايغ فوق الطاولة ليراجع مخطوطته الجديدة، فقد تبين له أن زيارة البيت الريفي مضيعة للوقت ولم يرغب أن يقترح بقاءه في الفنـــدق مع ناتاشا ، ولهذا صمّم على أن يستغل وقته في مراجعة ما كتب ، ثم قال وهو يبتسم .

– أغلب الظن أن جوستاف في غرفتك ، في الفندق يراجع أوراقك هـذه اللحظة .

– لا بأس في ذلك فليس لديّ ما أخفيه .

تمركز جاردنر بالقرب من النافذة يراقب البيت الآخر من خـلال منظاره ، وقال فجأة :

– يا إلهي !

– ماذا حدث ؟

– اللعنة : هناك سيارة أجرة تقف أمـام البيت ، هل تظن بأنهما ذاهبان ؟

فأسرع أربعتهم ليحدّقوا في البعيد ، وقال جراي :

– إن هما تركا المكان ، فلن نسلم من غضب كرليرايت .

قال جاردنر : – سأتبعهما إلى المحطة لأكتشف وجهتهما .

واختطف جراي المنظار ليراقب عملية السفر :

– أعتقد أنهما لم ينويا أخذ الحقائب ، إذ أن السائق يجلس في سيارته ولو

قررا أخذها لساعدهما على اخراجها .

ـ إذن بحق الشيطان ماذا يقصدان ؟

أجاب جراي : ـ ها هما يخرجان بلا حقائب .

ـ هذا رائع ، فسوف أذهب لألقي نظرة على البيت .

عاد جراي ليلقي بمزيد من الحطب في المدفأة وليقول :

ـ أنا لا أفهمه جيداً ، فهو يعرف أننـــا في البيت فهناك السيارة التي تقف خارج البيت ، وهناك الدخان المتصاعد من المدخنة ، وهو يعرف أننا سنحاول أن نفتش البيت !!

قال جاردنر : ـ تعالي يا ناتاشا لنذهب ونحاول التحدث معها .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ أريد أن أتأكد من سلامة تيم .

واندفعا من البيت دون أن يغلقا الباب ، فوقف تسفايغ وجراي يراقبانها من خلال النافذة ، وما أن اقتربت سيارة الأجرة منها حـــتى أشار جاردنر للسائق فأوقف السيارة ، ثم أنزل زجاج النافذة الخلفية ليطل منها وجه رجـل عجوز نادى بصوت مرح :

ـ مرحباً يا جو ، أيها الشيطان الماكر ، ماذا تفعل هنا ؟

قال تسفايغ لصديقه جراي : ـ إن سير فرجوسن يبدو في صحة جيدة .

استند جاردنر على حافة السيارة ليتحدث مع تيم لحظات حيّـــاه بعدها لتتابع السيارة طريقهـا ، وبسرعة رجعت ناتاشا إلى الغرفة لتقترب من الدفء ثم قالت :

ـ لقد بدا لي في صحة جيدة ، وقد أخبرنا بأنها يقصدان بلدة باري سانت أدموند لشراء بعض الحاجيات .

وتبعها الزوج ليقول : ـ كل شيء ظهر في رداء البراءة . إنهما ذاهبان للشراء ولتناول الغداء ، هل نذهب لنرى البيت الآن ؟

أجاب جراي : ـ خير الأمور أن تذهب وحدك .

قال تسفايغ : ـ سأذهب أنا أيضاً .

فنظرت إليه كل العيون هناك وقالوا بصوت واحد :

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب معين ، إنني أريد أن أرى محتويات جوستاف .

قال جاردنر : ـ ما زلت أذكر أن الأبواب مغلقة بواسطة أقفـــال متينة ولكن لنجرب ، هيا نذهب الآن .

قـال جراي : ـ إذا رأيت سيارتها وهي تعود فسوف أنفخ بوق السيارة ولكنكما لن تجدا وقتاً كبيراً للفرار ، ولهـذا عليكما تطريز قصة تبرّر وجودكما هناك .

وسارا على مهل في منتصف الطريق كي لا يتركا آثاراً ، وقال جاردنر :

ـ لن أصاب بالدهشة لو رجع صاحبنا فجـأة مدّعياً نسيانـه بعض الأشياء وليقبض علينا في البيت .

وانطلق في ضحكة عالية وهو يتابع :

ـ تصوّر عناوين الصحف ، كلماتها العريضة ، إلقـاء القبض على بروفسور مشهور لسطوه على منزل منعزل .

كان مبنياً على بعد خمسين ياردة من بيت فرجوسن ، بيتٌ ريفي كان الدخان يتصاعد من مدخنته ، وقد قال جاردنر وهو يشير إليه :

ـ هنا يعيش من يتولّى رعاية بيت تيم ، وأنا أخشى أن يرانا ولكن لحسن الحظ فأنا أعرفه جيداً وإن دعت الضرورة فأنا أستطيع أن أجعله يصمت .

كان الممر الذي يقع أمام الباب الخارجي قد نظّف جيداً وجمعت الثلوج على طرفيه . اقترب جاردنر من البوابة فدفعها بيده ثم قال :

ـ كأنه أرادنا أن لا نترك آثاراً ، هذا رائع .

ووقفنا بالقرب من النافذة ليتابع جاردنر حديثه :

ـ لنجرّب الأبواب ، فأنا لا أعتقد أنهما أغفلا إقفالها ..

فتح الباب الخارجي حين دفعه جاردنر بيده دفعة خفيفة ، فنظر الاثنان

الى الغرفة بعيون متفحّصة ، وطرق جاردنر على الباب وهو يصرخ :

– أهناك أحد في البيت ؟

ولما لم يسمعا جواباً ، دخلا البيت بعد أن نفضا الثلوج عن حذائيهما ثم مسحا أقدامها بعناية بواسطة الممسحة الموجودة على عتبة الباب .

وقال جاردنر : – هذا ما يزعجني ، فالأمور تبدو سهلة للغاية .

وجد تسفايغ نفسه في غرفة جلوس مريحة دافئة أشعلت فيها المدفأة الكهربائية ، وشعرت قدماه بالراحة حين لمستا السجادة الرمادية الوثيرة ، وتعجّب من الأثاث الثمين الذي فرشت فيه الغرفة ، فقد كانت المفروشات حديثة ومرتفعة الثمن . وقال تسفايغ :

– دعنا نبحث في الطابق العلوي أولاً ، علينا الإسراع خوفاً من أن يرانا أحد .

وكان الطابق العلوي يضم غرفتين متقابلتين ، فقال جاردنر :

– لنتقاسم العمل ، إبحث في واحدة ، وسأبحث في الأخرى .

وتأكد تسفايغ من أنه في غرفة سبتيموني فرجوسن ، فهناك عقب سيجار في المطفأة وزجاجة من الويسكي بالقرب من السرير ، وحقيبة جلدية نقش عليها حرفان « ت . ف » ، وبسرعة فتح الحقيبة ملقياً نظرة على محتوياتها المكونة من قميص متسخ وحافظتين للورق . فألقاها لكي يبحث في الأدراج وهو يكبت استياءه . وصرخ جاردنر :

– هل وجدت شيئاً ؟

فأجابه بصوت مرتفع : – لا شيء حتى الآن .

ووقعت يده صدفة على صندوق خشبي وضع في مؤخرة الدرج ، ففتحه ليجد حقنة جلدية ، ونادى جاردنر ثم فتحها وقربها من أنفه فلم يجد لها رائحة مميّزة ، فقال جاردنر :

– هذا مثير ، لكنها لا تشير إلى أي دليل . هل وجدت حبوباً أو كبسولات !

– لا ، فقد غصت في جميع الأدراج .

وفتح جاردنر الخزانة وعبث في محتوياتها ثم قال :

– لا شيء هنا على الاطلاق . . . لا شيء كما ترى .

وتسلل تسفايغ الى غرفة النوم المجاورة التي تشبه الأولى الا أنها أقل راحة ، وكانت تحتوي على حقيبة ومنامتين فقط ، ولولا هذه الأشياء لخلت الغرفة تماماً ، وفتح الخزانة فوجد بدلة واحدة وحذائين . ولما أغلق بابها علقت البدلة فاضطر الى فتحها ثانية وبعنف ، وما أن فعل ذلك حتى تدحرج شيء ما من أعلى الخزانة ليقع خلفها ، فتطلع تسفايغ إليه فوجده كتاباً ، ثم أزاح الخزانة الصغيرة الى الأمام ليصل إليه . كان عنوان الكتاب قد كتب باللغة الألمانية « جريمة التنويم المغناطيسي واكتشافها » ، وقذف به على السرير ليتناول كرسياً قريباً ويبحث محتويات سطح الخزانة ، فوجد كتاباً آخر وعدة مجلات من أعداد مجلة « علم الجريمة » التي تصدر بالألمانية ، وكانت التواريخ ترجع الى ١٩٣٦ و ١٩٣٨ ، أما الكتاب الآخر فقد كان بعنوان « التحليل النفسي لسوء التصرف والرذيلة والجريمة » .

دخل جاردنر الحجرة :

– مرحباً ، ماذا وجدت هنا ؟

فناوله الكتاب : – عن التنويم المغناطيسي .

– أين وجدته ؟

– على سطح الخزانة .

– حسناً . .

فتح الغلاف فوجد التوقيع التالي : ج . بيومن ، كوبنهاجن عام ١٩٥٨ .

أشار جاردنر الى المجلات متسائلاً :

– ما هذه المجلات ؟

– أعتقد أنها من نشرات معهد علم النفس الجنائي ، لقد وجدت هذا الكتاب أيضاً .

– ما اسمه ؟ فأنا لا أعرف الألمانية .

– « جريمة التنويم المغناطيسي وأكتشافها » .

– أنا لم أفهم بعد !

وهنا جلس جاردنر على حافة السرير يتصفح الكتاب .

– ولكن هذا الكتاب قديم جداً ؛ فلقد طبع عام ١٨٨٩ .

فأجاب تسفايغ : – هذا صحيح ؛ لأننـــا نعلم أن ارتكاب جريمة بواسطة التنويم المغناطيسي أمر مستحيل .

– في هذه الحالة ... ما فائدة هذه الكتب لنيومن ؟

– علينا أن نسأل سؤالاً آخر : لماذا احتفظ بها على سطح الخزانة ؟

– هل تظن أنه أراد إخفاءها ، ولكن لماذا يفعل ذلك ؟

وتصفح تسفايغ المجلات ثم قال :

– آه . أنظر إنها تحتوي على مقالات بقلمه .

– وما هي الموضوعات ؟

– ما زلت أحاول معرفة ذلك .

وسمعا صوت سيارة في الخارج فهرع كلاهمـــا الى النافذة للاستطلاع . كانت سيارة البريد تقف أمام البيت المجاور ، فقال جاردنر :

– لو عادا في هذه اللحظة لقبض علينا ، إذ لا مخرج لنا دون أن يرانا أحد .

– هل تظن بأن علينا أن نرحل الآن ؟

– هذه فكرة جيدة .

– حسناً ، إسمح لي بعدة دقائق لأقرأ المقالات .

– حسناً ، سألقي نظرة على الطابق الأرضي .

ولما عـــاد جاردنر الى الغرفـــــة بعد عشر دقائق وجد تسفايغ مستمراً في مطالعته ، فقال :

– هل وجدت شيئاً مهماً ؟

– في غاية الأهمية ، إنه مثير حقاً .

– أهو ضروري ؟ يجب أن نغادر البيت الآن .

– يمكنني أن أراجعهـــا في المتحف البريطاني أو في معهد علم النفس . أنا على استعداد للذهاب الآن .

أعاد تسفايغ الكتب والمجلات الى مكانها بينما سوّى جاردنر غطاء السرير .

وسأل تسفايغ : – هل وجدت شيئاً في الطابق الأرضي ؟

فناوله انبوبة زجاجية ثم قال :

– هذه فقط وجدتها في سلة المهملات ، أغلب الظن أنها المواد المستعملة في الحقنة ، إنها فارغة كما ترى ولكن صيدليـــاً ذكياً يستطيع اخبارنا بمحتوياتها .

تطلع من النافذة ليرى المكان :

– ما من أحد هنا ، هيا لنذهب .

– من المؤسف حقاً أن نذهب الآن ، فكم وددت لو أمضيت عدة ساعات هنا مطالعاً هذه المواضيع بتمعن .

لم يقل جاردنر شيئاً حتى خرجا إلى الطريق العام ، فسأل :

– لماذا قلت إن المواضيع مهمة ؟

– لأن مقال جوستاف يتحدث عن رجـــل سيطر على عصابة من المجرمين بواسطة التنويم المغناطيسي،وقد وقعت هذه الحادثة في سالا بالسويد عام١٩٣٦. وكتب أيضاً في عدد آخر مقالاً عن حادثة إجرامية مغناطيسية وقعت حوادثها في هايدلبرغ في العـــام ذاته وكانت ضحيتها إمرأة نومت مغناطيسياً دون أن تعلم ، ثم تحولت إلى لصة ، فمومس محترفة ...

– هل أنت متأكد من أن هذا ممكن ؟ فالقصص تبدو لي خرافية .

– يجب أن أعترف بأنني وجدتها غير معقولة ، ولكن المجلة الناشرة أمينة وشهيرة أيضاً .

وسارا في صمت لحظات ثم قال جاردنر : هل هذا ممكن ؟

– يبدو أنه ممكن !

– لم أقصد ذلك ، فأنت تعرف ما أعني .

– أعرف ذلك فأنا أتساءل كثيراً منذ أن قرأت المقالين .

ولدى بلوغها البيت إبتدرها جراي بسؤاله :

– هل أصبتما شيئاً جديداً ؟

– لا ندري بعد .

وضع جاردنر الانبوبة على الطاولة وهو يقول :

– وجدت هذه في سلة المهملات وقد لا تكون شيئاً مهماً .

قالت ناتاشا : – أنت تعرف أنه اعتاد على أن يحقن بعض المواد لنقص في الهرمونات .

– أعلم ذلك .. هناك شيء آخر ..

قال تسفايغ : – وجدت كتباً ومجلات في غرفة جوستاف تبحث كلها في الجريمة والتنويم المغناطيسي ، وقد كتب جوستاف نفسه عدة مقالات حول هذا الموضوع .

وتوجه جاردنر بالسؤال إلى جراي :

– خلال عملك الطويل في شعبة الجنايات ، هل عالجت قضية تتعلق بالتنويم المغناطيسي ؟

– مرة واحدة فقط ، وهي قضية طبيب حاول مضاجعة احدى مريضاته بالتنويم المغناطيسي . وقد كان دفاعه بأن المريضة أرادت أن يضاجعها لأنك لا تستطيع أن تجبر شخصاً منوماً على القيام بما لا يريد وهو صاح .

– هذا ما قلته أيضاً .

قال تسفايغ : – أما مقال جوستاف فهو يشرح كيف استطاع رجل السيطرة على عصابة من المجرمين بواسطة التنويم المغناطيسي . كان الرجل المسيطر على علاقة جنسية مع أحد أفراد العصابة، وكما تعلمون فالشذوذ الجنسي يعاقب عليه القانون في السويد، لهذا خاف الرجل أن يتحدث غلامه عن علاقتهما فنومه لكي يقتل نفسه ، ويمكننا الحصول على ملف هذه الحادثة من شرطة سالا بكل سهولة .

قال جاردنر : أنا لم أفهم شيئاً ، أعطني قليلاً من الويسكي يا ناتاشا ، فأنا أحتاجه .

فقال جراي : – أظن أننا جميعاً نحتاج الى الويسكي .

أخذت ناتاشا سلة صغيرة كانت قد أحضرتها معها من الفندق ، لتخرج منها زجاجة الويسكي وأربعة أقداح . وصبت قليلاً من المشروب وناولته لزوجها الذي جرعه دفعة واحدة . وقال جراي :

– إسمعوا علينا أن نتروّى إذ يبدو لي الموضوع غير معقول ، أو؟ لا يمكن لأحد ما أن يقوم بتنويم أي شخص دون إرادته ، وهي من الأمور المعروفة منذ زمن طويل .

قال جاردنر : – قضية « سفنجالي » والقضايا الأخرى .

– أنا لا أعرف الكثير في علم النفس ، لكنني ما زلت أذكر الأقوال التي قيلت في محاكمة « مارشمونت » . إن الرجل الذي اغتصب المرأة المنومة حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر لأن المحكمة لم تنظر اليها كقضية إغتصاب ، وبعبارة أخرى فالمرأة هذه سواء أكانت منومة أم صاحية، فقد أرادت منه أن يغتصبها أو يعتدي عليها لأنها سمحت له بتنويمها حتى تجد عذراً مناسباً لخيانة زوجها .

والآن لا تقولا لي بأن رجلاً يُنوَّم لكي يقتل نفسه .

أجاب جاردنر : – الا إذا أراد الإنتحار .

قال تسفايغ : – هذا صحيح ، فقد نقض فرويد نظرية تنويم رجل لا يرغب في التنويم . أما في القضايا التي ذكرها جوستاف فأنا غير واثق من رغبة الوسطاء ، والرجل الذي ينتحر يتلقى « سلسلة طويلة من الاقتراحات » ، هذه هي الكلمات التي استعملها جوستاف في مقاله، وأنا أشك في أن منوماً مغناطيسياً يقف على المسرح يستطيع أن يقنع شخصاً ما بالإنتحار أمام جمهور من المتفرجين ولكنه لو عاش مع ضحيته على إتصال وثيق فسوف يمكنه مركزه من القيام « بسلسلة طويلة من الاقتراحات » ، وخاصة عندما تثق الضحية به .

إنتفض جاردنر واقفاً والكي يقول بشكل مثير :

– يا إلهي إن هذا ممكن حدوثه ، ولهـــذا لم يقبل تيومن بتعريفه بلقب دكتور تم .

فقال جراي بصبر : – نحن نسمح للأفكار أن تستولي علينا ، فكل ما وجدناه هو بعض الكتب والمجلات التي تتعلق بالجريمة والتنويم المغناطيسي ونحن نعلم أيضاً اهتمام تيومن بعلم النفس والجريمة ولكن هـــذا لا يثبت ارتكابه جرائم عديدة بواسطة التنويم .

ثم التفت الى تسفايغ ليسأله :

– هـــل قرأت في مقالاته إذا قـــام هو نفسه بإجراء بعض الاختبارات بواسطة التنويم ؟

– لا شيء على الإطلاق .

– هل تعرف أنه أجرى ولو مرة واحدة تجارب بالتنويم المغناطيسي ؟

– لا علم لي بذلك .

– حسناً ، فأنا لا أصدقها ، وأعتقد أنه تعمّد ترك هذه الكتب هناك .

– لماذا لم يحاول إخفاءها في هذه الحالة ؟

– أين يخفيها ؟

– في الخزانة مثلاً .

– أليس هذا مكاناً معروفاً لإخفاء أي شيء ؟ فلو أراد أن يخفيها لوضعها تحت فراشه أو في مكان بعيد عن البيت .

قـــالت ناتاشا : – لم يظهر تم كالمنوّم مغناطيسياً إذ أعتقد أن المنوّمين مغناطيسياً يحملون عيوناً مرخية كالسمكة .

أجاب تسفايغ : – ليس ذلك بالضروري ، فلن يكون منوّماً طيلة الوقت ، لكن كل شيء محتمل ، وأنا أوافق على ملاحظة ناتاشا رغم أن الموضوع كله مـــا زال غامضاً بالنسبة لي .

قالت ناتاشا وهي تبتسم :

– تعالوا لنأكل الآن .

وأخرجت دجاجتين وزجاجة من النبيـــذ وبعض الفاكهة ووضعتها على الطاولة ، وتورد وجه جاردنر من الويسكي وهو يقول :

– المعضلة هنا أنه لو استطاع أن يحمل الرجال العجائز ينتحرون بواسطة التنويم المغناطيسي فلن نستطيع تقديمه للمحاكمة .

أجاب جراي : – هذا غير صحيح ، فإذا كانت الأدلة الزمنية قوية فسوف يقدم للمحاكمة إذ أن نظرية التنويم المغناطيسي تكون آخر حلقة في السلسلة وستوضح كل شيء ، كما قال كارل ، خذ قضية الرجل العجوز في سويسرا ، مـــا اسمه ...؟

– جرهارت سيفرت .

– حسناً ، طبقاً للشواهد التي حدثتنا بها عن هذه القضية فليس بإستطاعة تيومن إرتكاب الجريمة لوجوده في مكان بعيد ، ولكنه قد حاول إقنـــاعه بالإنتحار .

قـــال جاردنر : – كيف يمكنك إثبات ذلك في المحكمة .

– لن يكون ذلك ضرورياً ، ففي حادثة « عرائس في الحمام » لم يستطع أحد أن يثبت أن سميث قد أغرق زوجاته ، ولكن الدليل الزمني كان قوياً ضده ، وأنا لا أعتقد أن تيومن يستطيع استعمال طريقة التنويم المغناطيسي ، فهـــو لا يبدو لي منوماً مغناطيسياً .

ووضع شيئاً من النبيذ في قدحه وكرعه بشهية ثم قال :

– هل وجدتما صعوبة في الدخول إلى البيت ؟

– لا ، أبداً .

وتوقف جاردنر عن المضغ ليقول :

– فهمت ما تقصد . لقد فوجئت حين وجدت كل شيء يسير بسهولة ، ومن جهة ثانية فهو لم يغلق الباب الخارجي .

قال جراي : – إن نظرية التنويم المغناطيسي هذه فكرة رائعة للإرتكاز عليها إذ أنها تدعم القضية وبمكنتنا بواسطة الانتربول أن نعرف إذا عمل

نيومن كنوم مغناطيسي أم لا ، لكنني لا أعتقد أن القضية تتوقف على الجواب

فسألته ناتاشا : علام تتوقف القضية إذن ؟

– الأمر بسيط ، زيارة لسير تيموثي ورؤيــة الصور لجوستاف وأنت من ستأخذين الصور

قال تسفايغ : – أريد أن أذهب إلى المتـحف البريطاني لمطالعة الكتب التي وجدتها في حوزة جوستــاف ومن ثم سأعطي رأياً في قصة التنـويم المغناطيسي هذه .

– هل يحتفظون بمثل هذه الكتب في المتحف البريطاني ؟

– لا شك أنهم يحتفظون بنسخ منها وإلا فسوف أذهب لمراجعتها في معهد علم النفس .

قال جاردنر : – أنا أعرف أين تجدها ، في بيت جوزف ستافورد موروتون فهو يملك مكتبة ضخمة تتعلق بعلم النفس الجنائي .

عبس وجهه حينما سمع بهذا الاسم ، لهذا قال باقتضاب :

– أفضل عدم إزعاجه .

– كما تريد ، ولكنني أعتقد أنك ترتكب خطأ فهــو رجل طيب نبيل ، سأذهب لزيارته والتـحدث اليه عن نظرية التنويم المغناطيسي هذه .

إبتسم تسفايغ بلا كلمات ،ووقف جراي بعد ساعتين ينتظر قدوم كولبرايت على رصيف المحطة ، وكان معه صديقـه البروفسور تسفايغ الذي تضايق من هطول الثلوج المستمر ومن الإنتظار الطويل للقطار القادم من لندن والذي تأخر أكثر من ساعة. ثم سمعا صوتاً ينادي من مؤخرة الرصيف فإلتفتا : كان كولبرايت بصحبة رجل قصير متأنق يمتاز بشاربين حادّين كأسنان فرشاة . وتخيّـل تسفايغ أنه سيقابل مدير مصرف ، ولكن كولبرايت قال بمرح حلو :

– يا لها من رحلة ! كيف أنت أيها البروفسور ؟

ثم صافحه بحرارة عميقة .. وتابع :

– يا لها من رحلة لعينة ! تصور ... لم أستطع الحصول على زجاجة من الجعة

في ذلك القطار الطائر .

– دعنا نذهب إلى الفندق لشرب الجعة .

– فكرة رائعة ، هذا ، تيري سامز ، المصور .

قال جراي وهو يشدّ على يد الرجل القصير :

– إنه لكرم منك أن تتحمل مشاق هذه الرحلة .

همهم السيد سامز : – يسرّني أن أقوم بهذا العمل ، فقد قـدّم ، بارت كولبرايت ، إليّ عدة خدمات يوم كان في الشعبة الجنائية .

وفي طريق عودتهم الى الفندق قام جراي بشرح مختصر لخطتهم مع إعطـاء أقل قدر من المعلومات . وقد سأله كولبرايت باهتمام :

هل قررت أن تعمل بكل بساطة وتطرق على البــاب وتحملها على المقابلة وجهاً لوجه ؟ أليس في هذا مخاطرة ، أعني لو تعرّف نيومن على سامز فسيعلم أن الحلقة تضيق من حوله .

إنه لن يستطيع الذهاب لأنني قادر على تدبير أمر إلقاء القبض عليــه للاستجواب .

قال تسفايغ للسيد سامز :

– هل تظن أنه سيتعرّف عليك ؟

لا أدري ، ولهذا عملت بفكرة كولبرايت وارتديت ثياب يوم الأحـد لأنني لم أهتم بمظهري من قبل .

ومن بعيد استطاع تسفايغ أن يرى ناتاشا تقترب منهم وتلوح بيدها بانفعال كي تلفت انتباههم ، متتبع نظراتها ليرى سير تيموثي برفقة نيومن ، واقفين على مدخل الفندق . أشار نيومن لسيارة أجرة توقفت بالقرب منها .

قالت ناتاشا : – شكراً لك على وصولكم الآن ، فقد كانا يتناولان طعــام الغداء في الفندق . وضغط جراي على يد كولبرايت وهمس :

– خذ السيد سامز واذهب حــالاً لإلقاء نظرة على نيومن قبــل دخوله السيارة .

ولكن لم يعد بمقدورهم رؤية نيومن إذ وقفت سيارة الأجرة أمامه ، فهرول سامز وكولبرايت باتجاهها ، وتنهّد البروفسور بحنق :

– لقد فات الأوان ... لقد دخلا .

أجاب جراي بهدوء : – لا لم يفت بعد .

وقبض سامز على باب السيارة الجانبي وفتحه ثم تحدث للحظة مع شخص ما داخلها ، وبعد قليل صفق الباب وإبتسم ، وأخذت السيارة طريقها في الحال ، حيث أعطت الإشارة لبقية المجموعة أن تسرع للإنضمام الى الرجلين الواقفين حيث كانت السيارة .

كان سامز مفعماً بالسرور وهو يقول :

– إنه هو بعينه فلا يمكن أن أخطئه .

– هل أنت واثق ؟

– بل متأكد تمام التأكد ، لقد ادعيت أن السيارة وقفت من أجلي وحاولت الدخول عندما رأيته فقلت « أوه آسف حسبت أنها السيارة التي طلبت » فأجاب « لا ، فقد إتصلت هاتفياً أطلب سيارة فأرسلوا إلينا هذه » وما أن سمعت صوته حتى عرفته ، ولهذا تجنبته بسهولة وبسرعة .

– هل تعتقد أنه تذكرك ؟

– لا أدري مع أنني أشك في ذلك ، فلقد تعرفت عليه بعد عشرين سنة لانني أحتفظ بصورته ، ولكنه لن يعرفني خاصة وأنا أرتدي هذه الثياب .

قال جراي بسرور : – إنك لسريع الخاطر ، ولكن أنت واثق من أنه برنستاين ؟

– بل جازم مائة في المائة ، لقد تغير بعض الشيء عندما حلق لحيته ولكنني أعرف صوته ، فهو يشبه صوت الممثل المفضل لدى أبي .

– ما رايك في كأس من الجعة ، فأنت أهل لها ؟

قال تسفايغ لناتاشا : ماذا حدث في الفندق ؟

– لا شيء ، فنحن كما تعرف لم نتناول طعام الغداء في الفندق بعد الطعام

الذي تناولناه معاً حينما كنا في البيت الريفي ، ولهذا لم نذهب الى غرفة الطعام. ولحسن الحظ فقد ذهب جوزف ليسأل عن رسائل واردة بإسمه من لندن ، عندما سمع الموظف يتصل بسيارات الأجرة طالباً واحدة بإسم تيم فذهب لرؤيتها ، بينما أسرعت أنا للبحث عنكم .

وجاء صوت جاردنر من القاعة مدوياً :

– هل صادفكم الحظ ؟

قال جراي بمرح : – إنه السكرتير الخاص ، تعال وشاركنا الشراب فنحن في حاجة الى الجعة الآن .

– هنالك الكثير في غرفتنا ، وستحضر بعض السندويش أيضاً . ذلك النيومن متسول وقح ، فقد حاولت أن أشغلها بالحديث ولكنه تعامى عني .

ورفرف الفرح في غرفتهم عندما صبّ جاردنر الويسكي :

– نخب النجاح !

رفع الجميع كؤوسهم الا تسفايغ الذي انتحى بجانب النافذة ، يفكر بكآبة ، فلاحظته ناتاشا وتقدمت نحوه حاملة طبق السندويش ، وأخذ واحدة فهمست :

– هل تشعر بالأسف لما حدث ؟

ابتسم تسفايغ بضيق وهو يهمس :

– لا أشعر بالأسف ، فقد كنت على ثقة من أن جوستاف هو السكرتير الخاص في قضية مادستون .

– كيف كنت تعرف ؟

وأراد أن يبدأ بالشرح ، ولكنه قال عندما رأى زوجها يتقدم نحوهما :

– سأخبرك فيما بعد .

فقال جاردنر مخاطباً زوجته :

– ستقضين هذه الليلة في لندن أيتها الحبيبة .

– لماذا ؟

– ان جراي يريد العودة للإتصال بسكوتلانديارد ، وسأذهب أنا مع كولبرايت إلى مادستون لجمع بعض المعلومات .

– وماذا عن تيم ونيومن ؟

– لن يستطيع نيومن أن يهرب الآن ، فسوف يطلب جراي من الشرطة المحلية أن تراقبه وأن تتصل بسكوتلانديارد أيضاً ، ثم إذا حاول الهرب فلن يبتعد كثيراً أيضاً . أما عن تيم فلن يجرؤ نيومن أن يفعل له شيئاً

وبعد أن ابتعد زوجها ، التفتت الى تسفايغ لتسأل :

– هل تشعر بالسعادة لعودتك الى لندن ؟

– نعم ، أنا أشعر بالسرور لكنني ... لا أستطيع المشاركة في هذه البهجة .

وأشار الى الآخرين حيث وقف جراي وجاردنر يتحدثان بودّ ظاهر ، وكولبرايت يصبّ المزيد من الويسكي ويتألق البشر في عينيه وهو يستمع الى سامز المصوّر . وهمس همسه :

– إن زوجك يجد بهجة خالصة في قصة نيومن ، وأنا أعتقد بأنه سينجح لو عمل مخبراً ، أما أنا فلا أستطيع إلاّ التفكير .

– في جوستاف بالذات ؟

– في الأشياء جميعاً .

واقترب سامز منهما قائلاً :

– هل تؤدي لي خدمة بسيطة أيها البروفسور ؟ إن زوجتي تودّ أن توقّع لها هنا .

– بكل سرور .

ومدّ يده لتناول قلم الحبر والورقة الوردية ، وبدأ بكتابة اسمه عندما دسّ سامز رأسه بالقرب من أذنه ليهمس :

– هناك شيء آخر : أودّ أن ألتقط لك صورة مع سير تشارلز إذا توفّر لنا الوقت .

– بالطبع ، ولكن لماذا ؟

– أنت تعرف ... بأنها قد تصبح ذات قيمة في المستقبل ولن أستعملها إلا إذا حصلت على موافقتك بالطبع ، وأريدك أن تعرف بأن الصحف ستنشر قصة هذه المطاردة بالأحرف العريضة و البروفسور تسفايغ يتحوّل الى مخبر سرّي ، وسيكون لصورتي قيمة كبيرة .

إرتعشت عضلات وجه البروفسور وهو يقول :

– يجب أن لا تخطىء فليس لي في هذه القضية إلاّ الفرز اليسير .

– حقاً ؟

ونظر سامز خلفه وقد رفع حاجبيه علامة الدهشة :

– لم يقل لي كولبرايت ذلك ، فقد أخبرني أنك طلبت متابعة حوادث القصة .

– نعم لكن ... هذا كل ما فعلت .

قال سامز وهو يغمز بعينه اليسرى :

– هذا كاف أيها البروفسور ، فقليل من الدعاية لن يؤذي أحداً ، أنظر الى السماء فهي صافية . فالشمس تنفض عنها الغيوم الرمادية ، دعنا نلتقط الصورة الآن ما دام الجو مضيئاً .

جلس تسفايغ في المقعد الخلفي بين ناتاشا وجراي . أما كولبرايت ورفيقه المصوّر فقد جلسا بالقرب من جاردنر الذي قاد السيارة ؛ وسُرّ البروفسور لجلوسه بالقرب من ناتاشا الدافئة فقد اشتركا معاً في غطاء واحد ألقياه فوقهما ليبعد عنهما البرد القارس ، ومع ذلك لم يشعر برغبة في الحديث معها ، كما أنه احتفظ بيديه فوق الغطاء لمعرفته بأنه إذا ما وضعها تحت الغطاء فسوف تحتضن ناتاشا يديه بحب ، ولم يكن سبب امتناعه إحساسه بالذنب تجاه جاردنر أو جراي ، لكنه شعر بانفعال أكثر تعقيداً . وهمست ناتاشا له :

– إنك شديد الصمت .

– أفكر في كتابي .

اتخذ هذا العذر لملاحظته بأن جراي يستمع اليها . والتفت سير تشارلز نحو

صديقه البروفسور ليقول :

– ماذا ستفعل هذا المساء ؟

– في الغالب سأتناول طعام العشاء في النادي ، ثم أعود إلى البيت . وأنت؟

– سأذهب لمقابلة « بلايدون » في سكوتلانديارد حالما نصل . إنه رجل الانتربول .

وما أن وصلوا منطقة « شلمزفورد » حتى قام سامز ، ولعب جاردنر بإبرة المذياع حتى ملأت أسماعهم موسيقى « فاغنر » التي جعلت تسفايغ يجمد في مقعده ، فسألته ناتاشا :

– الا" تحب فاغنر ؟

– بالعكس ، فهو واحد من الموسيقيين المفضلين عندي .

– وأنا أحب موسيقاه ، وأظن أن هذه المقطوعة تسمى « الراين الذهبي » .

وارتفعت الموسيقى عازفة نشيد العاصفة الذي تحول إلى جو ضوضائي مما جعل المذياع يهتز حتى كاد ينفجر ، فقال جاردنر دون أن يلتفت :

– أنا لا أحب هذه الموسيقى ، فهي عبارة عن ضوضاء لعينة ألمانية . . . إذا عذرتني لقولي هذا أيها البروفسور .

– لا مانع لدي ، فأنا نمساوي .

واستمعوا لصوت المذيع وهو يقول :

– كان هذا جزءاً من آخر مشهد في « الراين الذهبي » سجل في بايروث السنة الماضية . . .

قال جاردنر : – أنا أعتقد أن كل إنسان يمر بفترة فاغنر ، فقد أحببته يوم كنت في الثامنة عشرة .

قالت ناتاشا : – أما أنا فما زلت أحبه حتى الآن .

ونظرت إلى تسفايغ كأنما تطالبه بالدفاع عن ذوقها ، وكان يحدق في الظلمة ويدمدم بصوت هامس :

– كنا في جوتنجن نؤلف جمعية أطلقنا عليها اسم « مجتمع نيتشه » كان

ذلك عام ١٩١٠ ، وكنا نجتمع ونتحدث عن السوبرمان ونيتشه وفاغنر ونراجع النوتات الموسيقية التي كتبها للأوبرا وطالما بدأت أنا ونيومن الأب بعزف بعض من مقطوعاته .

– لم أكن أعرف أنك تستطيع العزف على البيانو .

– لم أعزف منذ سنين عديدة .

انتفض كولبرايت فجأة ليحدق فيهم بدهشة ثم أغلق عينيه وألقى برأسه على كتف سام ، وتابع تسفايغ ذكرياته :

– أما المقطوعة التي كنا نحبها فقد كانت العاصفة من « الراين الذهبي » . .

فقاطعه سامز قائلاً : – لا شيء يضاهي موسيقى جيلبرت وسالافن . . . ثم بدأ يغني قطعتها المشهورة :

« أوه . . إن اسمي جون ولنجتون ولز . . . »

أحس تسفايغ بيد ناتاشا تزحف بخوف لتلتقط يده وتحتضنها . . أما كولبرايت فقد عاد للشخير من جديد . . . .

- ١٣ -

قبل أن تغادر القافلة ذلك الفندق ، اتصل تسفايغ هاتفياً بمدبر شؤون بيته، ودعاه الى أن يشعل النار في المدفأة ، ولما دخل بيته بعد أن أوصله جاردنر إلى مؤخرة شارع كلارج في السابعـــة والنصف ، أحس بالدفء ينبعث من غرفتي الجلوس والمطالعة ، فألقى بمعطفه على الاريكة الكبيرة ثم صبّ لنفسه قدحاً من الشيري وجلس بالقرب من النار يتأمل في سكون الشقة الخالية التي بـدت أكثر هدوءاً الآن. وطافت بعقله صور ناتاشا جاردنر فشعر بالأسف، وفكر بأن جاردنر قد عزم على الذهاب مع سامز الى بلدة مادستون ، وأن ناتاشا تتوقع منـه أن يتصل بها ويأتي لقضاء بقية الامسية معها ، ولكنه لن يفعـل . ولم يكن السبب وجود جاردنر أو إشتعال الغيرة في قلب الزوج ، فقـد أقنعه اليومان الماضيان بأنه لا يغار منه أو يمانع في ان تتحدث زوجته معه .

إنه لم يتصل بها خشية أن يكبّل نفسه بشيء يقوده إلى لا شيء ، كما خاف من اتكاله المتزايد عليها ومحاولاته الإنفراد بهـا ، ومحاولته النفسية اللامطمئنة ليشعر بالصدق والأمانة تجاه نفسه . حقاً إنه لم يشعر برغبة جنسية نحوهـا ، ومن السخف أيضاً الإدعاء بأن جذور أحاسيسه نحوها ليست جنسية . انه مـا زال يذكر قول جوستاف عن الصداقة الافلاطونية البريئة ، وعن رغبتها لتصنع منه ضيف الشرف في حفلات العشاء التي تقيمها في بيتها . أما هو فـلم يصدق كلمات تيومن هذه لأسباب عديدة أمكنه لمسها ، فقد شعر بأنها مفتونة بـه كما إفتتن هو بها ، ومع هذا ، فإنه شعر بأن علاقتهما لا تقـود الى شيء ، وكيف تسنى له أن يكون حبيبها وعشيقها وهو الذي تخطى سنين الشباب والمنحدر

نحو الشيخوخة ؟ ولقد خاف أيضاً أن تجرح قلبه العجوز ، ثم لا أمل في أن تفترق عن زوجها لتأتي إليه .

ولسعته حيرة غامضة كغموض علاقتهما، فتكوّم فوق مقعده ليعيد إحساسه بدفء جسدها الملتصق بجسده ، وبلمسات يدها الدافئة في يده ، فوسوس له أن يرفع السماعة ويدير قرص الهاتف ليسمع صوتها .

وجرع آخر قطرة في قدحه وهو يرتدي معطفه وخرج . ولكنه سمع رنين الهاتف المتواصل وهو في منتصف درجات السلّم المغطّاة بالسجاد، فتردّد قليلاً وفكّر بالعودة ، ولكنه عـــاد ليستمر في الهبوط حتى بلغ طاولة البوّاب ، فتوقّف قليلاً ليقول له :

– إذا سأل عني أحد الأصدقاء فأنا في النادي .

وما أن وضع قدمه في النادي حتى شعر بتحسّن كبير ، فقد حيّاه الأعضاء إما باليد وإمـا بالرأس ، وأسرع هو الى قاعـــة الطعام ليطلب قدحاً آخر من الشيري وليسمع رئيس الندل يقول له بلطف محبّب :

– جميل أن نراك هنا مرّة ثانية يا بروفسور .

– إنني أُسرّ دائماً بالعودة الى الأماكن التي أحبّ .

وأحسّ بسعادة غامرة ، فشعر بأن يطلب ماء « بيرية » لشربه مع وجبته، ولكنه غيّر رأيه وأمر بنصف زجاجة من النبيذ الألماني . وقال النادل :

– أنصحك يا سيدي بأخذ سمك « السلمون » اليوم .

– حسناً ، أطلب لي بعض هذا السمك ، مع طبق من السردين والزبدة .

مسح الغرفة بعينيه وهو يرشف الشيري ، وفكّر بأن حياة الرجـال أقلّ تعقيداً بلا نساء ، وليست الأيام الثلاثة الماضية إلاّ ظلالاً حدثت منـذ أسابيع بعيـدة ، وسيعود ليعمل في مخطوطته التي تنتظره في البيت ؛ سيعمل عـدّة ساعات قبل أن ينام، وسينتزع الهاتف من مكانه خوفاً من أن تتّصل به ناتاشا ، وسيكتب فصلاً كاملاً عن التركيز الطبيعي ومدلوله العام ... ومرّ النادل فقال له بسرعة :

– شيري آخر من فضلك .

لقد قرّر أن لا يشرب النبيذ الألماني ، واستعاض عنه بفنجان من القهوة حمله مع آخر عدد من المجلة الفلسفية وذهب الى غرفة التدخين ليجد مقعده المفضّل خالياً .

كانت الساعة التاسعة والنصف عندما قرأ نصف مقال عـــن « تيلهارد ده شاردن » ولكنه لم يستطع التركيز، ولم يستطع استيعاب المعاني المعقدة المجردة، فأغلق عينيه ليفكر في جملة معقدة ثم ذهب في إغفاءة قصيرة .

وأيقظه صوت يقول بوداعة :

– آسف يا بروفسور ، ولكنك ألقيت مجلتك !

حاول أن يتذكر أين رأى وجه هذا الرجل من قبل ، وجه أثار فيه الضيق وعدم الاطمئنان ، فأخذ المجلة قائلاً :

– هذا لطف منك ...

– أنا ستافورد مورتون ، هل تذكرني ؟

– بالطبع .

– هل لي أن أتبادل معك الحديث ؟

فأصلح تسفايغ من جلسته وفرك عينيه محاولاً طرد النعاس منها ثم سأله :

– هل أنت عضو في هذا النادي ؟

– لا ، فقد دعاني أحد الأصدقاء لتناول العشاء هنا ، وتوقعت أن أراك لأن سير تشارلز اتصل بي منذ ساعات .

أجاب تسفايغ بخشونة :

– لقد فهمت .

وعاد إليه وعيه شاعراً بأنه أقل قابلية للإنثلام .. ثم سمع صوت ستافورد يقول :

– لقد أخبرني سير تشارلز بأنني قـــد أستطيع مساعدتك في الرجوع إلى بعض المجلات المختصة بعلم النفس .

– هذا ليس بالضروري ، فسوف أجدها في المتحف البريطاني .

– ذلك ممكن وغير مؤكد أيضاً ، ما هي المجلات ؟

– مجلة علم النفس الجنائي باللغة الألمانية لعام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ .

– يمكنني مساعدتك ، فجميع النسخ موجودة عندي .

وفي هذه اللحظة بالذات تذكر قول صديقه جراي عن أن ستافورد يعتبره أعظم فيلسوف معاصر ، فأحس بالندم لمعاملته السيئة له في المقابلة الأخيرة ، وابتسم له قائلاً :

– إنه لكرم منك أن تبادر بالمساعدة ولكنني لا أريد إزعاجك .

– لا ، إنه لشرف كبير يا بروفسور .

فأجاب تسفايغ : – هل تريد أن تشرب شيئاً ، قهوة ، براندي ؟

– لا ، شكراً ، فمشروبي هناك على مائدتي ولكنني جئت لأحدثك فقط .

نظر ستافورد إلى ساعته ليتابع حديثه :

– هل تفضل أن تطالعها الليلة ، لأنني سأعود إلى البيت في الحادية عشرة ، ويمكنك أن تأخذ المجلات معك .

– هل تسكن بعيداً ؟

– في شارع هارلي

– بالطبع .

أعجبته الفكرة ، وكان شارع هارلي جد قريب ، فقال :

– في هذه الحالة سأذهب معك .

– رائع ...

وقف ستافورد متابعاً : – سنذهب إذن بعد ربع ساعة .

- ١٤ -

لم يتبادلا الحديث إلاّ بعد مرور سيارتها في شارع ريجنت ، فقد قال ستافورد فجأة :

– أخبرني سير تشارلز بحدوث تطورات مثيرة ...

– هل أوضح لك شيئاً عن هذه التطورات ؟

– أخبرني بمقابلتك لنيومن .

– نعم !

– هل تحدثت معه ؟

– نعم ، وتناولنا طعام الغداء معاً .

– الاّ زلت تعتقد بأنه قد يكون مجرماً ؟

فجاهد كثيراً كي يقاوم رغبته بعدم الرد ، فتصرفات ستافورد قد أزعجته ، وطريقة أسئلته أحضرت الى خياله ذكرى أستاذ التاريخ في ساتنا برباره الذي أدخل بعض التنغيص على حياة تسفايغ الغضة ، ولكن هذا ليس بالعذر الكافي لعدم الإرتياح الى رفقته . وقال تسفايغ :

– ما من شك بأن تغييراً قد طرأ على نيومن ، تغييراً إلى الأسوأ ، ولكن هناك شيئاً يجب أن تعرفه جيداً ، وهو أنني لم أرد في يوم ما الإيمان بأنه مجرم .

– طبعاً لا . ولعلني مدين لك ببعض الإيضاح ، فأنا أدرك لماذا شعرت بالضيق مني في ذلك الصباح ، ولم أرد أن أكون قاضياً كما ظهرت لك ، وكل ما أردت معرفته هو : لماذا تظن أن نيومن قادر على إتخاذ القتل كمهنة له ، وبناءً

على نظرية في علم النفس وخبرتي الشخصية من أنه ما من إنسان يقتل من أجل نظرية فردية .

– انني اشاطرك الرأي ، لكنني أخاف أن أقول أن كل ما أستطيع تقديمه الآن هو نظرية أخرى .

– هل تعتبرني سمجاً لو سألتك أن تشرحها ؟

– إسمح لي أن أسألك أولاً : هل سمعت بإنسان يستخدم التنويم المغناطيسي ليجعل إنساناً آخر يرتكب جريمة قتل ؟

– آه ... نعم ... هذا ممكن .

– هل تعتقد أن شخصاً ما يُدفع للقيام بعمل ما تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، لا يفعله وهو في تمام وعيه ؟

– لا ، لا أعتقد .

كان تسفايغ يتوقّع جواب ستافورد ، لهذا قال :

– هل قرأت أي مقال كتبه جوستاف نيومن في مجلة علم النفس الجنائي الألمانية الصادرة عام ١٩٣٧ ؟

– لا ، ولم أعرف أنه كتب أي مقال ، والحقيقة أنني اشتريت مجموعات هذه المجلة حين مات زميل لي ولم أدرسها بعناية ، ولكن ما هو موضوع هذه المقالات ؟

– الجريمة والتنويم المغناطيسي. لقد ادّعى جوستاف بأن التنويم المغناطيسي يمكن استخدامه للسيطرة على الناس سيطرة تامة محكمة حتى ولو كان الوسيط غير راغب في ذلك .

– آه ، لقد سمعت الكثير عن هذه النظرية ، وقد نشر زميل لي مقالات عنها في مجلة علم النفس اللاقياسي عام ١٩٣٩ ،واشتركت أنا في المناقشة ، ولكي يثبت نظريته وضع صندوقاً يحوي حيّة سامة وغطّاه بلوح زجاجي لا يستطيع أحد رؤيته من بعيد أو قريب . ثم سئل المنوّمون مغناطيسياً إلقاء أيديهم في الصندوق فاستجاب العديد منهم لهذا الطلب ، وطبعاً صدّم اللوح

الزجاجي عن الحيّة السامّة، ولذا دار النقاش بين زملائي حول أن الرجل المنوّم مغناطيسياً يمكن أن يرتكب عملاً قد يهدّد حياته .

– هل وافقت على هذه النظرية ؟

– لا ، لأنني لم أكن على ثقة من عدم معرفة الشخص المنوّم بطريقة ما عن وجود الزجاج العازل في الصندوق . لعلّ أحاسيس الشخص المنوّم أدقّ من أحاسيسه في حالته الطبيعية ، أو أن هناك شيئاً أكثر التواء ، نوعاً من الإيمان الصبياني في المنوم والميل الى تحميله مسؤوليتك الخلقية . لقد أجروا تجربة أمروا فيها الوسيط بأن يقذف بزجاجة من حامض الكبريت في وجه إنسان ما ، وهنا أيضاً استعمل جدار زجاجي غير مرئي ليمنع حدوث الأذى .

– وهل قذف الوسيط بزجاجة الحامض ؟

– أوه طبعاً .

– ألم تثبت لك تلك التجربة أنهم يستطيعون إكراه رجل على ارتكاب جريمة تحت تأثير التنويم المغناطيسي ؟

– لا ، لأنني واثق من أن الوسيط لم يعرف بأن عمله هذا سيسبب ضرراً ، ولو قال له المنوّم « إذهب الى الشارع واقتل أول إنسان تصادفه » لاستفاق الوسيط حالاً . إن التجارب المختبرية تلغي هذه النظرية بحزم .

– آ ، لقد فهمت .

وأوقف سيارته في شارع هارلي قرب بيته ، وقبل أن يخرجا من السيارة قال ستافورد :

– أودّ توجيه سؤال إليك : هل تعتقد أن أحداً قد نوّم نيومن وأمره بقتل الناس ؟

– لا ، لا ، أنا أتساءل إن كان هو قد نوّم رجلاً وأمره بقتل نفسه .

فضجّ ستافورد بالضحك وهو يقول :

– هذا مستحيل .. يا عزيزي البروفسور .. هذا مستحيل .

وتابع حديثه وهما يخلعان معطفيهما في قاعة البيت :

– لأنه سيكون حقاً قد وصل الى التجربة الأخيرة للسيطرة على إنسان ما ، أليس كذلك ؟ فما من إنسان يودّ الموت ، ثم ان معظم المنتحرين مهزوزون نفسياً لأنهم لا يدرون ما يريدون .. وهل هذه نظريتك عن تفسير قتل نيومن للرجال الطاعنين في السن ؟

تمالك تسفايغ نفسه حتى لا ينفجر ثم أجاب بهدوء :

– أرجو أن تعلم بأنها ليست نظريتي ...

– إنني لجد آسف ، وأرجوك أن لا تظن بأنني أحاول أن أوجّه إليك نقداً لاذعاً .

– لقد حدث أن اكتشفنا عدة كتب تدور حول الجريمة والتنويم المغناطيسي في غرفة جوستاف نيومن ، كما رأيت مقالاته في المجلة الألمانية التي ادّعى في واحدة منها بأن رئيس عصابة سويدية قد نوّم رجلاً وأمره بأن يطلق الرصاص على نفسه .

وأجاب ستافورد بلطف :

– حسناً ، لنتصفح المجلات .

وكان الإنطباع الأول الذي شعر به تسفايغ عندما دخل بيت ستافورد ، بأنه يعيش وحيداً ، فقد كان البيت نظيفاً فارغاً من الحياة ، وقد غطيت الجدران برفوف الكتب التي تسلقت حتى السقف ، وكانت الألوان غير منسجمة ، فقطعة البساط الصغيرة الداكنة الزرقة لم تنسجم مع السجادة البنية ولا مع الكراسي الحمراء .

قال ستافورد : – هنا أعداد المجلة ، هل تشرب قدحاً من البراندي ؟

– القليل منه إذا سمحت .

وأخرج مجلداً رمادي اللون ، وبسرعة وجد المقال فقال :

– هذا هو موضوع الجدل .

– شكراً لك .

بحث البروفسور تسفايغ عن اسم نيومن في فهرس الأسماء ، بينما استغرق

ستافورد في قراءة المقال ، ووجد أربعة مقالات أخرى كتبها نيومن عام ١٩٣٥ عن استعمال حبوب سحرية أطلق عليها اسم « حبوب الحقيقة » ، وكتب بأن الشرطة الأميركية قد استخدمتها أيضاً، ورفع ستافورد وجهه ليقول بإبتسامة:

– إذا إنقلب نيومن إلى قاتل ، فسيكون الأول في تاريخ الجريمة » ؟ ، ألا أستطيع التفكير في مجرم آخر كتب مقالات إلى مجلة علم النفس الجنائي الرصينة؟

أجاب تسفايغ بغموض :

– أرجو ان تفكر .

أخذ تسفايغ مجلد عام ١٩٣٥ ووجد المقال ، فافتتح المجلة حتى آخر صفحة ليقرأ أسماء المساهمين في كتابة ذلك العدد ، فعل ذلك قبل ان يبدأ القراءة ، وكان التعريف بنيومن كما يلي :

« ابن جراح الدماغ الشهير الذي طالما ساهم في كتابة هذه الصفحات ، إنه جوستاف نيومن المولود عام ١٩١١ . تلقى علومه في هايدلبرغ وعاش في سويسرا منذ سنة ١٩٣٢ . وهو يعمل حالياً كمساعد لأبيه في تأليف المجلد الثالث من كتاب علم النفس العقلي » .

قال ستافورد فجأة : – أنا لا استطيع استيعاب أو هضم اسلوبه ، فجمله لا مكان لها في اي مقال علمي ، اسمع هذه الجملة مثلاً : « إن مسألة مشيئة الإنسان وطبيعة إعتمادها على العقل أهملها علماء النفس من تلامذة فرويد ، فلماذا هـذا الصمت الغريب ؟ » .

وتابع ليسأل : – هل تتوقع وجود مثل هذه الجملة في مقال يُرجع اليه ؟

فأجاب تسفايغ : – ليس في انكلترا .

– أو في اي مكان آخر ! إستمع إلى هذا « تقع المشكلة في عزل الإرادة عن انعكاسات العادة » اخبرني بحق السماء ماذا يعني بهذا ؟

وتابع قراءته بصمت معبراً عن عدم موافقته بزمجرات متفاوتة في النغمة ، ثم وصل إلى نقطة معينة في المقال جعلته يقول :

– إنه يكتب كفيلسوف وليس كعالم ، وفي هذه الحالة أتساءل : لـماذا لا

ينشر مقالاته في مجلة فلسفية ؟

إستمر تسفايغ في القراءة دون أن يلتفت إلى ستافورد الذي سأل مرة ثانية:

– ماذا تقرأ ؟

– مقالاً عن استعمال حبوب الحقيقة ، وأظنني فهمت مـا الذي عناه بعزل الإرادة عن الإنعكاسات .

– إذن اكون لك من الشاكرين لو شرحتها لي .

لكن الطريقة التي وضع فيها ستافورد كلماته الأخيرة أوضحت انه لم يكن جاداً ، وجعلت البروفسور يقول له :

– إنك تجد مقالين آخرين في الفهرست بقلمه .

ثم تابع قراءته دون ان يلتفت إلى ستافورد الذي قال بنزق بعد فترة قصيرة:

– أخبرتك بهذا قبل الآن ، فهناك مقال عن تطبيق فلسفة نيتشه على علم النفس . . . يا لهذه المجلات الألمانية !!

لم يقل تسفايغ شيئاً ، بل استمر في القراءة حتى أنهى مقال حبوب الحقيقة، فالتفت ليجد ستافورد مستغرقاً في القراءة ، وهنا سأله مبتسماً :

– هل وجدتها ذات أهمية ؟

– ماذا قلت ؟ .. أوه نعم . . . مستحيل وقوعها طبعاً ، ولكنه ذو عقل مثير ويجذبك للإهتمام هذا الذي تدافع عنه ، ومشكلته أنه يجعل الفكرة تهرب منك وتختفي معه .

ألقى ستافورد بالمجلة فوق ركبتيه وهو يقول :

– كنت أؤمن بهذه الأفكار في زمن مراهقتي . . .

– عن نيتشه ؟

– ليس تماماً . بل عن أسس جديدة لعلم النفس ، لتبيان الإضطراب العصبي في التعاريف التاريخية والاجتماعية ، وهـذا الشاب يقول إن الإضطراب العصبي هو وليد الخلق المسيحي . . .

وكتم ضحكات جافة ثم تابع :

ـ فكرة لا بأس بها !

قال تسفايغ فجأة : ـ لا بأس بها ؟

ـ لا يزعجني في حياتي العملية الا هؤلاء المرضى الذين لا يجدون القدرة في ذواتهم على الشفاء ، مرض العذاب النفسي ، ومنهم مريضة جاءتني بالأمس فقط وجعلتني أندفع إلى القول « اللعنة على عائلتك وعلى مسؤوليتك ، كوني أنانية حتى تتحسن حالتك » .

ـ أذن فأنت تؤيد جوستاف نيومن ؟!

ـ لا ، أبداً ، إنه يحول القضية إلى سخف ، ولكن في آرائه شيئاً مـــا ، وهو قـد اقتبس قول نيتشه القائـــل بأن المسيحي هو من أكثر الناس تعاسة وسذاجة في هذا العصر ، وأذكر الفكرة تماماً : « لمـــا كان المسيحي بطبيعته معذباً فإن السلام والسعادة لا يشعرانه بالراحة » وهـــذه الفكرة تحتوي على الكثير ، فقد عالجت مرضى يشعرون بالإثم لإحساسهم بالسعادة ، ولهذا فمـــن الصعب شفاؤهم ، ولكن صديقك يتجاوز ذلك إذ يظن أن الدين سبب الأمراض الحديثة كلها . إنه يقول : « يحجم الرجل المتدين عن مواجهة مقدرتـه للعظمة فيبتعد بنفسه ليخلق شخصية منقسمة » . وما أعتبره أنا بفسره في هذه الجملة : « يفضلون الإيمان باحترامهم لرجـل مجد ، إن كان شاعراً أو نبياً أو مجرمـــاً خطيراً ، وهذا يثبت خضوعهم لقوة أكبر منهم ويجبنون عن معرفة أنهـــم هم القوة الخلاّقة العظيمة ... » هل سمعت أبداً بمثل هذا السخف ؟ وليس الإيمان بشاعر أو بمجرم خطير وإلى آخر هذه المعزوفة الا أحلام الكبار ...

قال تسفايغ : ـ هل لي أن أرى المقال؟

لم يستطع تسفايغ اخفاء انفعاله وهو يقبض على المجلة ، مما جعـل ستافورد يحدّق فيه بدهشة ، بينما أخذ البروفسور يقرأ لدقائق عاد بعدها ليقول :

ـ يتعدى هذا كل ما قاله لي .

ـ من أية ناحية ؟

ـ تعليل الجريمة .

ـ أوه ، ليس هذا رأيي .

أجاب تسفايغ : ـ نعم ولا شك في ذلك .

ـ قليل من البراندي ؟

ـ لا شكراً ، وإذا سمحت لي فأنا أود العودة إلى البيت ، فقد داهمني التعب .

ـ بكل تأكيد . سأتصل بسيارة أجرة .

وما أن رجع ستافورد حتى سأله البروفسور :

ـ هل يمكنني استعارة هذه المجلات ؟

ـ بالطبع ، ويمكنك الإحتفاظ بها ما شئت .

ـ أشكرك .

شقّ على تسفايغ أن يسأل ستافورد معروفاً ، وشقّ عليه أيضاً التوفيق بين نفسه وطريقة ستافورد الخشنة التي وصلت حد النقد اللاذع ، فتابع قائلاً :

ـ لن أحتاجها لمدة طويلة .

ـ قد تكون على حق من أن لها علاقة بالقضية مع أنني أشك في ذلك ، إذ تبدو أكثر دقة من أن تكون حقيقية .

وفجأة سأله تسفايغ :

ـ هل أجريت أية تجارب مستعملاً فيها سكوبولامين ؟

ـ سكوبولامين Scopolamine ؟ إنه من السم أليس كذلك ؟

ـ سمّ شبه قلوي يمكن استعماله بجرعات صغيرة كحبوب الحقيقة أو مخدر الحقيقة ، ليسبب انهياراً في النظام العصبي الرئيسي .

ـ أين تعلمت كل هذه الأشياء ؟

فأشار تسفايغ إلى عدد من المجلة الألمانية وقال :

ـ من مقال بقلم نيومن يدّعي إمكانية استعماله مع المورفين ليسبب حـــالة غبش في الوعي ويصبح الوسيط غير قادر على الكذب . ثم أشار بأن حساسية الوسيط في هذه الحالة تكون غير طبيعية لتلقي الإقتراحات تحت تأثير التنويم المغناطيسي فقط .

قطب ستافورد ما بين حاجبيه ليسأل :

– فهمت ذلك ... ولكن هل يحدث هذا في الطبيعة ، أعني في أية غرسة أو شجرة ؟

– نعم في النبات المخدر داتوره « Datura » أو في نبات سام .

لم يجد ستافورد شيئاً ليقوله ، فأزاح الستائر ونظر من خلال النافذة ، ثم قال بعد لحظات :

– وصلت سيارتك .

– شكراً لك .

وضع ستافورد المجلدات الثلاثة من المجلة الألمانية على الطاولة ، ثم قال :

– يجب أن أعترف بأنني لم أعرف شيئاً عما اقترحته أنت فهو رائع روعة القصص القديمة .. قتل بالتنويم المغناطيسي ومخدرات وما إلى ذلك ...

فقاطعه تسفايغ ليقول : – لم أقترح شيئاً مثل هذه الأشياء كل ما رجوته هو مراجعة الأدلة .

فابتسم ستافورد دون توقع لابتسامته وحمل المجلدات الثلاثة حين وصلهم رنين الهاتف فقال بسرعة :

– حسناً ، خذ هذه الأدلة إلى البيت لتطالعها بعمق ودعني أفكر في الأمر .

تناول سماعة الهاتف وقال :

– رائع ... شكراً ..

ثم أعاد السماعة ليقول :

– كل ما أحاول قوله هو أنك إذا استطعت إدخال نيومن إلى قاعة المحكمة فهذه الشواهد والأدلة لا تتعدى كونها فقاقيع تافهة لن يلتفت إليها القاضي .

وتبعه البروفسور إلى أسفل الدرجات ليرى علامات القلق تستقر على وجهه ففرح ، ثم قال بصوت طبيعي :

– أذكر أن جوستاف كان صيدلياً ناجحاً يستقطر الأتروبين « Atropine » من نبات « ست الحسن » الذابل ويستعملها في تجاربه على الجرذان .

– يا إلهي !!

سر تسفايغ بدهشة ستافورد الذي لم يستطع رؤية الابتسامة التي نبتت على وجه البروفسور لأنه سار أمامه ، وصعد تسفايغ ليدخل السيارة فجاء ستافورد ليضع المجلدات على المقعد بجانبه . وقال تسفايغ :

– شكراً على ضيافتك وإعارتك المجلدات .

– هذا يسرني جداً ... الأمر مثير جداً لكن ... الأدلة غير كافية لإدانته .

– لعلي لا أود رؤيته من ضمن الذين يحكم عليهم .

ثم التفت إلى السائق وأعطاه عنوان بيته ليتجنب رؤية وجه ستافورد المرتعب ، ولوّح بيده مودّعاً حين ابتعدت السيارة بينما وقف ستافورد ليلاحقها بنظراته .

- ١٥ -

وصل منزله بعد نصف ساعة من منتصف الليل ، فتلاشى إرهاقه ودبّت فيه الشجاعة ليتصل بصديقه جراي هاتفياً . ولكنه حمد لأن الصديق كان يغط في نوم عميق . وجهّز الغطاء الكهربائي ، وعاد ليصبّ قليلاً من البراندي في قدحه ، ثم تلفّت حوله ليجد أن نار المدفأة صامتة لا حرارة تشع منها، فأشعل مدفأة الغاز الكائنة في غرفة النوم وجلس هناك يقرأ بعمق مقال نيومن عن حبوب الحقيقة . وجاءته رغبة الحديث الى شخص ما ، فهمّ برفع السماعة والاتصال بناتاشا فإذا بجرس الهاتف يرنّ مرّتين ولا من مجيب ، فأعاد السماعة الى مكانها معلّلاً بأنها نائمة أيضاً ، بعد أن غسلته خيبة أمل قذفت به من جديد الى غرفة نومه ليجرع ما تبقّى في قدحه من البراندي دفعة واحدة ! ثم صبّ مزيداً من البراندي .

وأحسّ وكأنما عقله مجهر أميلت عدسته بعض الشيء ، فالمشكلة التي أثارتها المجلة الألمانية غامضة ، وما من جهد عقلي يمكنه من استيعاب مفهومها وجعله واضحاً ، ثم خطر بباله نغم موسيقي فأخذ يصفّره ! إنه النوتات الست من باعث العاصفة في الراين الذهبي ، وللحظة وضح المفهوم العقلي لديه ثم عاد إلى الغموض ثانية .

أخذ مجلّد عام ١٩٣٦ وقلب الصفحات بارتعاش ليصل الى مقال نيومن عن تحليل الانتحار التفاني . وكان المقال يبدأ بهذه العبارة : « ليست عملية الانتحار إلاّ احتجاجاً على المحدودية ، فالمنتحر ينظر الى الحياة كسجن » . وعاد الى غرفة الجلوس ليفتح حقيبته مخرجاً منها مخطوطته عن هيدجر . ثم الى

غرفة النوم مرة ثانية ليتصفّح أوراق مخطوطته ؛ وكان الفصل الثالث يبدأ بهذه الكلمات « ليست تجارب الإنسان عن العالم إلاّ تجربة محدودة » فصرخ : « هذا مدهش » !

دق جرس الباب الخارجي فسار كالإنسان ، ثم توقف محدقاً في باب غرفة النوم وقد أبهجه تردده والصمت المطبق الذي يعقب الرنين . وفتح الباب ليجد ناتاشا أمامه :

– رائع ! انا جدّ مسرورة فأنت هنا وما زلت مستيقظاً .

– أيتها العزيزة ناتاشا ، ماذا تفعلين هنا ؟

– كنت في طريقي الى البيت ، وقد حاول بوابك ان يمنعني من الدخول ، فقد خيل إليه أنني واحدة من « سيدات المدينة » .

– أين زوجك ؟

– في مادستون وقد ذهبت لتناول طعام العشاء مع عمته ، إنها عجوز مرعبة ، وحاولت الإتصال بك منذ نصف ساعة ولكن ما من جواب .

– حاولت ان أتصل بك ايضاً .

– هذا رائع .

قذفت بمعطفها المصنوع من جلد النمر لتظهر بثوب اسود ضاق حول رقبتها، فبدت بوجه متعب أصفر .. وتابعت حديثها :

– مررت بنهاية شارعك، فلم استطع مقاومة الرغبة في رؤيتك، اين كنت؟

وعرف وهو يجيب بأن كليهما لا يستمع لما يقول الآخر ، ولم يكن الحديث إلاّ حجّة فقط ، كأنما هناك شخص آخر يستمع وراء الباب، فقد أراد رؤيتها، وأرادت هي ان تكون بجانبه هنا ، وكلاهما يدرك هذا . وقالت بنعومة :

– لندخل هنا .

فابتسم . قالت : – الظاهر أننا نقضي كثيراً من اوقاتنا في غرف نومنا .

وأخرجت الوسادة لتضعها وراء ظهرها ، واستلقت هناك تحت الغطاء . فعاد تسفايغ إلى اريكته ، فأشارت الى المجلدات وسألت :

– ماذا تقرأ ؟

– مقالات نيومن .. لقد اكتشفت شيئاً هنا ، صدفة .

وأراها الجملة التي كتبها نيومن عن الإنتحار ثم كلماته هو في مخطوطته عن هيدجر : « ليست تجارب الإنسان عن العالم الا" تجربة محدودة » .

أشعلت سيجارة وهي تقول :

– لا أرى شيئاً هنا .. مجرد تشابه كلمات .

– لا ، لا ، هي اعمق من ذلك ، فهي الشيء الذي حاول كلانا قوله ، ولقد تبادلت حديثاً مع ستافورد ... إنه لا يدرك شيئاً .

وبدأ يسير في غرفته ليتابع كلماته :

– كما ترين يا ناتاشا ، ليس هناك شيء محدد ، إنه شعور ؛ بل وجدان .. أحس بأنني جد قريب من رؤية اشياء عظيمة .. انا غير قادر على تفسيرهـا .. إنها قريبة من فكرة المحدودية .. التركيز الطبيعي ...

– ماذا تعني ؟

لم يجب بل ظل ساهماً يحدق في قدمه وهو يسير متباطئـــاً ، وكانت تراقبه منتظرة حديثه ، فصفـّر وهو يتحرك .. قالت :

– الراين الذهبي .

تطلع إليها بدهشة فقالت مرة ثانية :

– إنك تصفـّر هذا اللحن ثانية .

– نعم ، فقد تعلـّق بعقلي . بدأت احدثك ظهر هذا اليوم عن حلقتنا .. كنا نتحدث لساعات طوال عن السوبرمان وعن حرية الإنسان ... والآن فان مقالات نيومن جعلتني أفكر ...

وترقبت ان تسمع المزيد دون ان تحاول الاسراع ، رغم علمه بأنها أخفقت في فهمه .. فتابع مفجـّراً كلماته :

– هل ترين اننا فعلاً شعرنا بالحاجة إلى الحرية ؟ لقد كانت مشكلة واقعية لا مجرد كلمات .. ومقالات نيومن جعلتني أشعر ... بالخزي ، فقد شعر بها هو

ايضاً ، إذ انها هناك .

ضرب الجلد بقبضة يده الصغيرة وتابع :

– أصبحت رجلاً عجوزاً .. نسيت كيف احس ذلك الإحساس بالحاجة إلى الحرية وكأنها آلام أسنان .

قالت بنعومة : – هذا هراء .

– لا . لكن ... هناك شيئاً لا أعرفه عن جوستاف – هنـــاك مفتاح .

وأشار باصبعه :

– في هذه المقالات .. الإنتحار مشكلة واحدة يتساءل فيها الناس لمـــاذا ينتحر إنسان ما ؟ لقد سرق أحد أقوالي : الإنتحار هو منتهى سخافة الوجود الإنساني ، مثل المليونير الذي يقتل نفسه خوفاً من مجاعة حتى الموت . هـــل تفهمين؟ كنت أحدث طلابي عن قصة واعظ قريتنا الذي أغرم في افتتاح خطبه، بالحديث عن أن هناك ملايين من الأرواح السابحة في السماء والراغبة في أن تخلق على الأرض ... ملايين من الأرواح تعيش في انتظار اللحظة التي تحل فيها داخل جسم إنسان ما ، ولكن هناك ، لسوء الحظ ، جسداً واحداً لكل مليون روح ، ولهذا على الأرواح الأخرى أن تنتظر وتنتظر ربمـــا مليون عـــام ، ولذا نرى الأطفال يبتسمون بسعادة دوماً ، لأنهم أحيـــاء ، إذ أنهم يذكرون إنتظارهم الطويل ... ولكنهم يتبدلون وينمون لينمو معهم تبرمهم وضجرهم الحياتي .. أترين ؟؟ كان واعظنا يطلب منا أن نكون من الشاكرين لاننا أحياء ... هـــل تفهمين الآن لماذا قلت لطلابي بأن الإنتحار هو منتهى السخافة ، هـــذه الروح التي صبرت وانتظرت مليون سنة حتى يأتي دورها ، التبس عليها الامر حتى هي ، لها أن تهرب .. إن المنتحر يزن الحياة ليقرر أن لا خير في استمرارها وعيشها . لكن ، فكـّري في تفاهتهم .. إن أكثر هؤلاء الرجال لا يستطيعون جمع عامود من الارقام الحسابية ، ومع هذا فهم يجدون القدرة الكافية لهدر حياة بكاملها .. وهذا ما أسميه بأصل الفلسفة .. هذه هي الفلسفة .. محاولة لخلق علاقة تضاف اليه آلة لاختصار الحياة الإنسانية .. أنت تسألين الآلة ، هل الحياة جديرة

بالعيش ؟ وعندها تجدين .. كل أفراح الإنسان وآلامه .. وذلك المليون من السنين ومن الإنتظار ، من أجل جنسه .

سمعت ناتاشا صوت ضربات قوية تحت قدم تسفايغ فسألت بدهشة :

– ما هذا ؟

– عندما أسير في غرفتي أوقظ جيراني ، ولهذا يضربون السقف لكي أخفف من سيري ومن ضوضائي .

وخلع حذاءه وجلس فوق أريكته فقالت :

– يجب أن تكتب كل ما قلته لي الآن .

– نعم بالطبع .

كان صوته يحمل طابع الخشونة والحزم :

– سوف أكتبه في كتابي عن هيدجر .. هذا لا يقلقني .. فأنا أحاول التفكير لأجد المفتاح في أعمال جوستاف .

وصمت ليحدّق في مدفأة الغاز ، فقالت :

– لا انني أفهم تماماً ، فهذه المقالات تثبت بما لا يدعو الشك ما تشتبه فيه . إنه يكتب عن الإنتحار والتنويم المغناطيسي . وزمجر : – لا إنك لا تفهمين .

– لا .

وعاد ليسير في غرفته ،ومن غير أن يدري بدأ يصفّر بالنوتات الست لباعث العاصفة ، ثم سأل :

– لماذا انتحر نيومن الأب ؟

وتطلعت اليه بتردّد : – لماذا ؟

– الآخرون نعم ، قد يقتلهم ، ولكن لماذا والده ؟

– افرض أن الأب اكتشف أمر ولده فإنتحر يائساً ...

– لا ، لم يكن الأب من ذلك النوع من الرجال .

– إذن لنفرض أن جوستاف قتله ... لأنه يعرف الكثير .

– لا ، هذا مستحيل لأن الأب لن يخبر الشرطة بسر إبنه .

– إذن لماذا ؟

راقبته وهو يعود إلى النافذة واضعاً يديه وراء ظهره وقد تجهم وجهه وأشار الى المجلدات من المجلة الألمانية التي صُفّت بجانب السرير قائلاً :

– الجواب هنا ، أنا واثق من ذلك .

– هل أنت واثق ؟ أعني الا" تظن" أنها سراب خادع ؟ إن جوزف يظن ذلك .

– لا ، إنه ترك الكتب لي متعمداً أن أجدها لأكتشف ، ولعله تمنى أن أطالعها بدقة لأجد الجواب .

وعادت الضربات لتهزّ أرض الغرفة فقال :

– آه لقد نسيت ! إن أرض الغرفة قديمة ذات صريف ، وأنا أسمعهم من النوم ، دعينا نذهب إلى الغرفة المجاورة .

وقفت دون أن تقول شيئاً ، وإنسلّت حافية القدمين الا" من الجوارب .

كانت غرفة الجلوس باردة فأشعل المدفأة الكهربائية ثم عاد ليغلق باب غرفة النوم بهدوء ، بينما اتجهت ناتاشا إلى مكان عمله وأضاءت النور قائلة :

– إذن هنا مكان عملك .

تطلّعت الى الكتب ثم تناولت كتاباً لتقول :

– إن الغبار يغطيه ، هل عندك منظّفة ؟

– نعم .

– إذن فهي لا تجيد عملها ، وسآتي غداً لأبدأ عملية التنظيف .

وعلى الطاولة هناك استلقت مجموعة الصور ، فجلست ناتاشا لتطالع صورها ، ثم أشارت الى صورة وسألت :

– من هذه ؟

– زوجتي .

– أوه ... إنني آسفة ، إنها جذابة جداً .

واقترب تسفايغ ليقف خلفها منحنياً قليلاً بالقرب منها ، ثم فتح آخر

صفحة في المجموعة وأخرج منها الصورة الـتي جمعت بين نيومن الأب والتر بالسكين ثم وضعها بالقرب من وجهها قائلاً :

– قلت لك ظهر اليوم بأنني أعرف أن جوستاف كان السكرتير الخاص في قضية مادستون ، وهذا هو السبب .

وضع إصبعه على الصورة متابعاً كلماته :

– هـــذا العجوز الجالس بالقرب من نيومن الأب هو والتر بالسكين الرجل الذي قُتل في مادستون .

وحدّقت في الصورة ثم سألت : – منذ متى وأنت تعرف ؟

– منذ أعياد الميلاد !

– لماذا لم تخبر جراي ؟

هزّ كتفيه وهو يقول : – لماذا ؟ لست واثقـــاً .. لعلّ السبب شعوري المفاجيء بخيانتي لعائلة نيومن .

– ولكنني لا أفهم ، إذا كنت لا تريد أن تراه مقبوضاً عليه ، فلماذا ذهبت الى باري سانت أدموند ؟

– ليس حقاً بأنني لم أرد أن يقبض عليه ، ولكن ما شعرت بـــه آنذاك أحسّ به الآن ، فهذه ليست مجرّد قضية قتل عاديّة . ولقـــد أملت في فرصة أجتمع فيها بجوستاف على انفراد لأعرف الحقيقة منه .

– هل وجدت فرصتك ؟

– نعم ، وعاملني كخائن ولعلي أستحق ذلك .

– هل يعني هذا أنك تريده أن يفرّ حتى ولو كان مجرماً ؟

– لا ، كل ما أردته هو المعرفة فقط .

ونهضت من مكانها لتحدّق في وجهه ثم قالت بهدوء :

– بالطبع .

– إن الجو بارد هنا ، فلنعد الى الغرفة الثانية .

لم تبدّل المدفأة الكهربائية الصغيرة كثيراً من جوّ غرفـة الجلوس ، وقـــد

ارتعشت ناتاشا وهي تتكوّم فوق الأريكة ، فذهب تسفايغ الى الحمّام ليحضر معطفاً ليلياً أخضر :

– ضعي هذا على جسدك .

– شكراً لك .

وجلس على ذراع الأريكة وهو يقول :

– وجدت ما أريد أن أفعله فسوف أستقلّ قطـــار الغد إلى باري سانت إدموند لأرى جوستاف .

– هل هي فكرة جيدة ؟

– لا أدري ، علي أن أتحدث معه .

– عن أي شيء ؟

إبتسم لها قائلاً : – عن الإنتحار .

– لا تقصد ... لا تريده أن ينتحر .

– يا الله .. لا .. هل تفكرين بأنني سأناوله مسدساً كضابط قبض عليه وهو يغش في لعب الورق ؟

قالت : – قد تنتهي القضية إلى ذلك .

– لا ! احمي .

ذهب الى غرفة النوم وعاد يحمل المجلة الألمانية وهو يقول : – هل تظهر لك هذه الكتابة كتأليف رجل يقتل نفسه ؟

وقرأ بصوت مرتفع : « إن هناك طرافة في الإنتحار رغم النفور منه .. وتقويه للحياة لا يتعدى بعض صراخ تلميذ مدرسة » .

وأغلق المجلة متابعاً حديثه :

– كانت تلك الجملة آخر جملة من مقال كتبه بعد أن قتل والده نفسه .

التفتت إليه قائلة : – هذا غريب ... هذا ...

– نعم !

– كنت على وشك أن أقول إن هذا إما جنون وإما عبقرية ، لكنني لست

واثقة من أنها قد تكون شيئاً آخر ، مجرد قسوة .

وأجاب تسفايغ بهدوء : – لست واثقاً من أن جوستاف كان بلا قلب ... لا . وعندما التفت إليها وجدها تأكله بنظرات مستهجنة فقال :

– ما الأمر ؟

إبتسمت مجيبة : – لست واثقة . أنا لا أفهمك على الاطلاق .

– هذا غير مهم .

وضرب بقبضته على الجلد قائلاً : – هذا هو المهم .

كان جالساً بالقرب منها على ذراع الأريكة ، وقد صح لديه أن تستلقي على كتفها فقالت :

– إن لغتي الألمانية ليست جيد لأعرف لماذا جذبتك مقالاته ؟

قال : – آه ..

وتحرك بعصبية ويأس ثم هز رأسه متابعاً :

– ليتني أستطيع أن أبين لك الأمر ... أنت تعرفين أن هـذا الرجـل جوستاف قد أسرته فكرة الإنتحار أو فكرة الموت المفجع ، وأذكر أن كاتبه المفضل هو أندرياف الذي أقدم على الإنتحار عدة مرات ...

– آه ، فقد قرأت البعض من كتبه .

– ثم هناك كتاب الطب الشرعي الذي وضعه نيومن الأب ، وقـد احتوى على صور فريدة عن الإنتحار ، مثل صورة الرجل الذي قتل نفسه بدقّ مسمار طوله ست بوصات في جمجمته ، وصورة المرأة التي كوّمت فراش بيتها وأشعلت فيه النار بعد أن تربعت في قمة الفراش .. وقد أذهل هـذا الكتاب جوستاف حتى أنه قال مرة بسخرية بأنه سيكتب رسالة في الفلسفة لتوضيح فكرة هـذه الصور .. وكما تعلمين فلطالما تحدث عن الإنتحار .. إذ سرق سيارة وألقى بها من فوق هضبة .. وفكرته في أن يصبح سيد المجرمين .. والآن ماذا حـدث ؟ لقد مضت خمس سنين ليكتب هذا المقال وقد زالت كل علله ، لماذا ؟ سأقول لك أن جوستاف الذي أعرف هو أعجز من ان يكتب أن للإنتحار ناحيـة

طريفة .

– ما زلت عاجزة عن الفهم ...

– لا ..

وقاطعها ليقف فجأة ويقول بحدة :

– ماذا حدث لفكرته في أن يصبح سيد المجرمين ؟ ماذا عن ذلك ؟

وإبتسم لها بإنتصار ثم بدأ يذرع غرفته وكأنما أعطى دليله ، فنظرت إليه غير مدركة ، قال :

– هل ترين أن فكرته غير مناسبة ؟

– لا شك أنك تعتبرني غبية جداً ، لكن ما الذي لا يناسب ؟

– إن الرجل الذي يجتاز مرحلة الإنتحار يجتاز فكرة القتل .

– نعم ...

وكان الشك بادياً في صوتها . وقال من جديد :

– أود أن أذهب لرؤيته في الغد .

– حسناً ، سآخذك بسيارتي .

– أستطيع أن استقلّ القطار .

– لا ، سنذهب بسيارتي .

– حسناً ، في هذه الحالة علينا التوجه إلى هناك مبكرين .

– الأفضل أن تنام الآن .

ونهضت من مكانها لتقول :

– هل تريدني أن أذهب إلى بيتي ؟

فنظر إليها كالمذهول ، وتابعت كلامها :

– الأفضل أن أبقى هنا اذا أردنا أن نذهب الى هناك مبكرين .. وهـذه الاريكة الكبيرة مناسبة لي .

– ولكن ماذا عن زوجك ؟ افرضي أنه ينتظرك في البيت ؟

– إنه لا ينتظر ، وسيعود غداً ، ولكن هل تخاف على سمعتك بين الجيران؟

إذا كان الامر كذلك ، فـاذهب .

ـ لا ، لا ، فمعظم جيراني يعيشون في وحدة . لكن ...

واستطاع أن يغير كلماته فقال : ـ لكن لن أدعك تنامـــين على الأريكة الكبيرة ، يجب أن تنامي على السرير .

ـ لا مانع لدي ، إنه يبدو مريحاً جداً .

وأخفى هياجه وضيقه بإخراج مجموعة من الأغطية الموجودة في الخزانـــة وجعل من الأريكة سريراً ، ثم مـلأ زجاجة المـــاء الساخن من صنبور المطبخ سامحاً للماء بالتدفق كي يصبح شديد الحرارة عندما يلمس اليد العارية ، ولما عاد الى الغرفة قطعت عليه المناقشة بإستلقائها فوق السرير . وقد أخذت منه زجاجة الماء الساخن وابتسمت بنعومة ودفء وهي تقول :

ـ ليلة سعيدة يا عزيزي .

استلقى فوق سريره محدقاً في الظلام المحيط به ، وفرّ من عينيه النـوم لمجرد التفكير بأنها هناك دافئة ناعمة ، هناك في الغرفة المجاورة .. ورفع يـده لينظر في ساعته الفسفورية ؛ كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً ، وفجأة بـــدأ جرس الهاتف برنين عنيف فأرهف السمع غـــير مصدّق أذنيه للحظات ، ثم استوى على السرير وأضاء النور . ولما بلغ غرفة النوم انقطع الرنـــين العنيف ، واستطاع أن يرى ناتاشا بالقرب من الهاتف تقول :

ـ مرحباً يا عزيزي ، بحق السماء ماذا تريد الآن ؟

وتطلعت نحو تسفايغ وقد وضعت يدها فوق لاقطة الصوت :

ـ إنه جوزف ، ويبدو في حالة سكر شديدة .

كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود وقد تناثرت خصلات شعرها فوق كتفيها بغير انتظام ، ووقفت بقدميها العاريتين فبدت أكبر من عمرها بعشر سنين ... وقالت :

ـ لا ، لم ينم بعد .. كنا على وشك الذهاب للنوم ... مـاذا ؟ نعم سأبقى هنا الليلة ، فقد قرّر كارل أن يذهب غداً إلى باري سانت أدموند في السـ ...

نعم انتظر لحظة فيخبرك بنفسـه .

وقدّمت السماعة الى تسفايغ واندسّت في السرير ، وجـــاء صوت جاردنر يجمجم من بعيد دون غلظة :

ـ مرحباً كارل ، فكرت بأن ناتاشا في بيتك حين لم أجد جواباً في بيتي ؛ أنا آسف لإزعاجك في مثل هذا الوقت ، لكنني اكتشفت لتوي شيئاً مهماً .

ـ ماذا ؟

ـ كنت مع «سامز» طيلة المساء نتحدث مع عدد من الناس ، ومنذ لحظات تخلصنا من صديق له يدعى «تدهوجيتون» وهو إبن مزارع في «هايفيلد» حيث قتل بالسكين ، وقد ابتدأ يشرب منذ الحادية عشرة ، هل تسمعني جيداً ؟

ـ نعم .. إستمر .

ـ لقد أخبرني بشيء كان له أثر الصدمة إذ إنطبع في ذهني بأن بالسكين العجوز كان رجلاً عجوزاً واهناً مريضاً قبل موتـــه ، ولكن «تدهوجيتون» يدعي بأنه شحن بالنشاط والحيوية وبـــدا مثالاً للصحة الجيدة قبل أن يموت بإسبوعين فقط ، وقد ظهر عليه المرض حين جاء الى بيته لكنه ما لبث أن تغير وتفاءل للشفاء بسرعة حتى أنهم ذهلوا جميعاً ، فقد بدا العجوز فجأة أصغر من عمره بثلاثين عاماً .

قال تسفايغ بالألمانية : ـ يا إلهي !

ـ تماماً . هل أدركت ما الذي أحاول الوصول إليه ؟ إن ثم صورة مشابهة له ، ويظن «تدهوجيتون» أن السكرتير تعود اعطاء الرجل العجوز نوعـاً من الخدر ، اذ رآه ذات يوم يحقنه بإبرة تحت الجلد . ما رأيك ؟ إنهـــا لا تبدو لي تنويماً مغناطيسياً .

ـ لماذا لم يخبر هذا المزارع الشرطة بهذا ؟

ـ يخبرهم بأي شيء ؟ بأن الرجل العجوز بدا في صحة تامة ؟ الكل هنـاك عرف هذا .

ـ أعني من الحقنة الجلدية .

– لا جديد في هذا ، فالرجل العجوز مريض ، وقد تكون حقنة عادية ، والآن أخبرني ما هي قصة ذهابك الى باري سانت أدموند ؟

أجاب تسفايغ بحذر : – لا أستطيع شرح القصة على الهاتف ، لكنني أود أن أتحدث مع جوستاف بصراحة تامة قبل إتخاذ أية خطوة .

– اسمع أيها الصديق ، أرجوك أن تستمع لي ولا تذهب .. أنت ترى السبب .. هذه القضية تضيق حلقتها بدقة بالغة ، هل تدري بمَ أفكر ؟ أفكر بأن القضية كلها تتعلق بالمخدرات ، كما أعتقد أن تيومن يملك نوعاً من المخدرات ، تقود بعد انتهاء أثرها إلى غمّ إنتحاري، وليس بالصعب اثبات ذلك في المحكمة، وأنا أرجو أن تظهر نتيجة تحليل الأنبوبة في سكوتلانديارد .. وإذا كان تيم يعاني من آثارها ، فعلينا أن نسرع ...

– بالطبع .. لكن لدي من الأسباب ما يدعوني لرؤية جوستاف .

– إذن استمع إليّ ، أرجوك أن لا تذهب قبل عودتي في الغد ، سأكون في بيتك غداً صباحاً .

– حسناً ، أعِدُ بذلك .

– رائع . هل أستطيع أن أتحدث مع ناتاشا الآن ؟

فقال تسفايغ لناتاشا .

– انه يريد التحدث معك .

ألقت الغطاء عنها وسارت نحو الهاتف ، فاستطاع رؤية شكل ساقيها على النور المنعكس من غرفة النوم ، وعرف الرغبة الجامحة التي ضايقته في البداية ، فهذه هي المرة الأولى التي يفكر في ناتاشا كامرأة يشتهيها . وأزاح عينيه بسرعة وكأنه يراقب أحاسيسه الغريبة عنه . فمدّت يدها لتحتضن يده وتتابع حديثها مع زوجها :

– حسناً ، سأعمل جاهدة حتى لا يذهب الى جوستاف ، مع أنني واثقة من أن تيم لا يتعاطى المخدرات ، فهو يكرهها ، ولم الاحظ أية علامات تدل على هذا ... حسناً كالعينين البراقتين ، سترى ، يجب أن أعود إلى الفراش ، إنني

واقفة هنا ولا شيء يغطيني غير قميصي الداخلي ... لا لن أكون مزعجة له ... وداعاً يا عزيزي .

أعادت السماعة قائلة :

كما ترى ، فقد حصلت على اذن زوج يسمح لي بالبقاء هنا ، فهو يثق بك .

لم يستطع تسفايغ أن يقاوم رغبته العارمة في النظر الى كتفيها العاريتين عندما قال :

– ليتني أستطيع أن أثق بنفسي .

اقتربت منه وعيناها تشعان بأشياء بعيدة عن الإغراء أو الغواية، لتقول له :

– لماذا تدع هذه الأشياء تقلقك ؟ أنا أعرف ما الذي تشعر به الآن ، كما أعرف سبب ذهابك الى النادي وعدم الإتصال بي ، أنت لا تثق بي .

قال بحيرة : – ماذا تقصدين ؟

– أنت قلق لأنني أجري خلفك دون حياء ، مع أن معرفتي بك عمرها ثلاثة أيام فقط ، أنا أعرف الطريقة التي يفكر بها عقلك لأنك تتساءل الامَ ستنتهي هذه العلاقة .

فاقترب منها ليضع يديه على كتفيها كأنه يبعد عنها البرد ، وأحس بأنه يود الإلتصاق بها أكثر من قبل . كما أن قدميه العاريتين أصابهما برد شديد ، لذا قال بهدوء :

– نعم ، أنت على حق ، ولا أزال أحس أحاسيس غريبة ، لماذا تقف هنا؟ لماذا أنت هنا ، وليس في بيتك هناك ؟ هل يصدق أحد بأنك لست عشيقي ؟

– وماذا يهم هذا ؟

– إن الحياة ليست واضحة المعالم كالمسرحيات والروايات ، فطرقها أكثر التواء من أن يحلم بها أي مسرحي أو روائي ، ستفهمينني في المستقبل . فالزمن معطاء ، ولو كنت تعرفينني منذ ستة أشهر لـ...

ضحكت بنشوة فشعر بإرتعاش جسدها تحت يديه ، قالت مكابدة :

– لماذا تحاول التفكير بأن كل الأشياء تقود الى شيء ؟ دع الأشياء تسير ،

دعها تنساب .

والتصقت به فجأة لتقبله على جانب فمه وتهرب الى السرير وهي تقول :

– الجو بارد .

رفعت الغطاء حتى رقبتها ، ثم نظرت إليه بدلال وهي تقول :

– لا تقلق عليّ ، فلن أخيّب ظنك .

وانحنى فوقها وقبّلها ، كانت شفتاهـا ناعمتين مستسلمتين باسترخاء شهيّ حتى أنه أغري بالاستراحة فوقها والتمتع بالدفء ، ولكنه استقام بسرعة وهرول الى غرفة نومه دون كلمة تحيّة ، وفي فراشه هناك أحسّ بأن اليأس القلق قد اختفى ولم يعد وجودها في الغرفة المجاورة يثير أحاسيسه ، حتى ولو جاءت والتحمت به الآن ، وأغمض عينيه ليجترّ نعومتها حتى غمره دفء حمله بعيداً الى النوم .

أيقظه رنين الهاتف وقبل أن يعود الى كامل حواسه التي فقدها أثناء النوم ، ليجيب على الهاتف ، سمع صوتها يردّ على الهاتف ، ففرك عينيه بعد عدة دقائق ليجدها تقف بجانبه وبيدها فنجان من القهوة . جلس يطرف بعينيه محدّقاً في ساعة يده التي أشارت الى العاشرة والنصف ، عندما قطّبت ناتاشا وعبست وهي تشير الى الغرفة المجاورة قائلة بصوت منخفض :

– المرأة التي تعمل عندك بدأت تثير الشكوك حولي ، فقد رأتني أسير بقميصي الداخلي حين جاءت .

حكّ تسفايغ ذقنه شاعراً بالخجل لسماحها برؤيته دون حلاقة ، واستولى عليه النعاس من جديد فقاومه بأن قال :

– مَنْ صنع القهوة ؟

– أنا .

تناول فنجانه ومسّد استرخاء وجهه بيده اليمنى ، وقالت :

– إن سير تشارلز قد اتصل منذ لحظات من سكوتلانديارد ، وسيكون هنا بعد نصف ساعة .

– ما الذي يريده ؟

– شيئاً حول الإنتربول ، وقد بدا في حالة راضية .

وأغلقت باب غرفة النوم ثم جلست على الأريكة متابعة كلامها :

– هل تمانع في بقائي هنا ؟ فمنظّفة بيتك تنظر إليّ وكأنني مومس .

فأجاب تسفايغ بانفعال :

– إذن فبقاؤك هنا لن يغيّر الأوضاع ؛ لعلّ في مقدورك إضاءة مدفأة الغاز .

وأدارت وجهها لتنظر في ناحية أخرى من الغرفة ، وأنذره طعم فمه الجاف المغبّر بأنه أسرف في الشرب ليلة الأمس ، وأعجبه مذاق القهوة ، فبدأ يشعر بالتحسّن والنشاط وهو يرشفها عطشاً . وقال :

– هل من أخبار جديدة عن زوجك ؟

– ليس بعد ، أتوقّع مجيئه قريباً .

لم يعد تسفايغ يشعر ببهجة قربها في هذا النور البارد ، بل إن مجرّد التفكير في مقابلة جراي وجاردنر أزعجه جداً ، فما من أحد يعرفه جيداً يقبل أن يصدّق بأنه وناتاشا قضيا الليلة كل على فراش منفرد ، وحتى جراي وزوجها قد يتساءلان .

وطُرق باب غرفة النوم بعنف وجاء صوت المرأة المنظّفة :

– هل هناك شيء آخر تريده مني لأنني ذاهبة الآن ؟

تطلّع الى ناتاشا مستنجداً بنصيحتها فقالت :

– الغبار في غرفة الدراسة .

أسرع تسفايغ الى القول : – لا ، لا ، شكراً لك يا مسز ماكراي .

وصفقت الباب ، فقالت ناتاشا ضاحكة :

– إنني أسايرك كثيراً ، وستضطر للزواج مني عن قريب .

فسأل : – وماذا عن زوجك ؟

وقفت قائلة : – أتريد مزيداً من القهوة ؟.

وأخذت الفنجان وذهبت الى المطبخ ، وعند عودتها قالت :

– أنك لا تحتاج إلى زوجة .

– وما الذي أحتاجه إذن ؟

– نصف زوجة تعتني بك عندما تحتاجها وتتركك لوجودك الخاص عندما لا تحتاج إليها .

ودّ لو استطاع ان يسألها عن مقدار الكرامة التي تتوقعها نصف الزوجة من زوجها ، ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة لصياغتها لأنها ستبدو جارحة ، وجاء رنين جرس الباب ليحطم محاولاته في صياغة السؤال وسمع صوت جاردنر يقول:

– ألم يستيقظا بعد ؟

وانبعثت همهمات لأصوات خافتة ثم طرق جاردنر الباب :

– مرحباً ، هل لي في الدخول ؟ صباح الخير .

إنتفض قائلاً حين سمع صوت صفق الباب الخارجي :

– أوه إن دماغي مثقل من تلك الثرثرة .

أجابت ناتاشا : – منظفة البيت .. ماذا قالت لك ؟

– سألتها فيما اذا استيقظتما ، فأجابت من ؟ قلت : بروفسور تسفايغ وزوجتي ، فنفخت في وجهي وابتعدت مذعورة .. امرأة غريبة الأطوار !

وجلس على الأريكة المجاورة متابعاً ثرثرته :

– إن رأسي العتيق يشكو شيئاً ، وسوف يسرني جداً أن أذهب إلى البيت وأحضر مشروبي الخاص الذي يبعد عني آثار الشرب .. ماذا حدث ؟ هل هناك من جديد ؟

قالت ناتاشا : – لا ندري ، إن سير تشارلز سيكون هنا بعد دقائق وأنا ذاهبة لأغسل وجهي .

ودخلت غرفة الحمام ليعود جاردنر إلى الثرثرة :

– أوف ! اشعر بالإرهاق ، من الذي قال : لا شيء يشفي من وخمة السكر إلاّ الموت . أهناك بعض القهوة ؟

– في المطبخ ، دعني أحضرها لك .

– لا تتحرك ، فسأحضرها أنا .

وخرج ، فنهض تسفايغ من سريره ليرتدي معطفه الليلي ، وعاد جاردنر يحمل فنجانين من القهوة :

– أحضرت لك المزيد من القهوة التي صنعتها ناتاشا ، إنها فنانة في تحضير القهوة ، ولهذا السبب تزوجتها ، أرجو ان لا تكون قد سببت لك إزعاجاً .

– لا ، لا طبعاً .

– هل خرجت مساء البارحة ؟

– ليس مع زوجتك ، فقد وصلت ... بعد ذلك .

– في أي وقت ؟

– الساعة الواحدة صباحاً .

– أوه .

لم يعرف تسفايغ ما إذا كانت علامة التعجب هذه ردة فعل لجوابه أم وخزة ألم في جبهته ؛ واستمر جاردنر :

– إنها جاحدة الجميل تلك الفتاة .. آه ذلك أحسن . وجرع قهوته ثم تطلع الى تسفايغ بصراحة مفاجئة قائلاً :

– إنها شديدة الإعجاب بك كما تعلم .

فسأله تسفايغ : – لماذا ؟

– لا أدري ، فقد جذبتها كتبك ، ولكنني أؤمن بأنها الأبوة ، فقد أحبت والدها ...

توقف عن الكلام حين سمع دوران مفتاح غرفة الحمام ، ثم قال مغيراً من لهجته :

– لقد اكتشفت بعض الأشياء المثيرة : أولها ان باسكين العجوز كان على صلة وثيقة مع نيومن حتى ظن الناس أنهما والد وولده ، لأنهما لا يفترقان .

سألت ناتاشا : – من أخبرك بهذا ؟

– صديق لسامز ، فقد تحدثت مع عدد من الأشخاص الذين يعرفون شيئاً

عن القصة ، أحدهم دهان فرنسي أدى أعمالاً كثيرة في بيت بانسكين ، فقد بقي هناك عدة أيام ... آه ! اسمحا لي .

واندفع ليجيب على رنين الجرس الخارجي ، وعاد بعد لحظة ومعه جراي الذي قال :

– صباح الخير يا كارل ، هل صحوت الآن فقط ؟ إن التعب بادٍ عليك .

وبدا وجه جراي حيوياً كأنما عاد لتوه من مشي حثيث في مهب الريح، أما شاربه فقد نشطت حركته . وقذف بقبعته على السرير ، فقال له جاردنر :

– الكل متعب هنا ، فلا تتحدث بصوت مرتفع .

– وأنت كذلك ؟ يؤسفني سماع ذلك . شكراً يا عزيزتي .

قال كلماته الأخيرة لناتاشا التي قدمت له قهوته ، ثم تابع حديثه :

– لقد رأيت بلايدن مرة أخرى ، ووعد بأن الأمور ستسير على ما يرام .

فسأل جاردنر : – وماذا عن نتيجة تحليل الانبوبة التي وجدناها ؟

– آه ، نعم ولكن النتيجة غير مشجعة، فقد كانت فارغة تماماً ولم يستطيعوا أن ينطلقوا إلى شيء ، غير أنهم تمكنوا من استنتاج حل ضعيف عما احتوته ، وقد حيرت رجل المختبر الذي قال بأن الشيء الأكيد هو احتواؤها على كمية ضئيلة من الأتروبين ...

فقفز تسفايغ ليقول بإنفعال :

– ماذا ؟

– اتروبين ، هل تعرف عنه شيئاً ؟

– ألم يكن سكوبولامين ؟

– لم يبتّ رجل المختبر بهذا الأمر .

وتدخل جاردنر ليسأل تسفايغ :

– لماذا تذكر كلمة سكوبولامين ؟

– لأنني وجدت مقالاً في المجلة الألمانية عن حبوب الحقيقة ، ولأن ذلك واحد من الأشياء التي فكرت بها ليلة البارحة: فقد عرفت شيئاً عن السكوبولامين

اثناء الحرب ، إذ استعملها قسم المباحث مع الجواسيس ، ومفعولها يشبه ما وصف الدهان الفرنسي الذي رأيته أنت .

فسأل جراي : – أي دهان فرنسي ؟

– اسمعوا ، تحلل الأمر بالتناوب . أخبرنا أنت بما اكتشفت ، ثم يأتي دوري ، وبعد ذلك يستطيع كارل إخبارنا عما قرأ في المجلة الألمانية ، اتفقنا .

قال جراي : – أخباري ليست عظيمة الأهمية ، إذ قضيت ساعات عديدة مع بلايدن من رجال الانتربول ومع تشون من رجال شعبة الجنايات ، وأجمع الاثنان على احتياجنا لمزيد من الأدلة ، بالرغم من أنها تشبه جريمة قتل إلى حد بعيد . لذا اتخذنا اجراءً منظماً لمراجعة شرطة مانتون وهايدلبرغ وجنيف . إن العنوان الموجود على جواز سفر نيومن مكان يدعى « جكس » ، ويبعد عشرين ميلاً عن جنيف ، أما الخطوة التالية فهي تتلخص في معرفتنا هل لنيومن سجل إجرامي في أي من هذه البلاد ؟ . والآن ماذا وجدتم أنتم ؟

وبدأ جاردنر يقدم تقريره فقال :

– أمضيت ليلة الأمس مع سامز ، ذلك الشاب الطبيب القصير القامة ، وقد قمنا بجولة على عدة حانات وتحدثنا مع عدد من الناس الذين يعرفون شيئاً عن قضية بانسكين ؛ ولم نجد شيئاً في البداية حتى أن اليأس دبّ في نفسي ، ثم ما لبثت أن قابلت شاباً يدعي « تدهوجتون » وهو إبن المزارع الذي كان يعمل مع بانسكين ، وقد أخبرني بأن العجوز بانسكين بدا حيوياً ، في صحة جيدة وهذا على غير عادته ، وقد حدث الإنقلاب المدهش في صحته قبل وفاته بفترة قصيرة مما جعلني أفكر في تيم فرجوسن، وأحسست أن القضية غريبة ، فقد عاد الرجل العجوز من أمريكا الجنوبية شديد الوهن والتعب ، ثم أصابه الشفاء فجأة.

قال جراي : – إذن فمن الصعوبة أن نحلل هذا الأمر على أنه التنويم المغناطيسي ؟

– هذا غير محتمل ، الست ترى وجهة نظري . لقد كففت عن التصديق بأن تيم قد يصيبه خطر جسيم ، ولكنني بعد أن استمعت لما حدث

لبالسكين غيّرت رأيي ، فيجب علينا أن نعمل بسرعة وبجد ، وعليّ أن أرى تيم لاخبره بالحقيقة ، وأحدثه أيضاً عن نوعية العلاج الذي يداويه به نيومن .

وأشعل جراي غليونه ثم قال :

— لعلك على صواب ، فليس في رؤيتك لسير تيموثي أي ضرر ، على أنني ما زلت أجهل أين أنا في هذه القضية ! فقد أقنعت بلايدن وتشسون بأن نيومن يستخدم التنويم المغناطيسي مع ضحاياه ...

ثم التفت الى تسفايغ ليسأله :

— وبهذه المناسبة ، كارل ، أيمكنك أن تمد تقريراً قصيراً عن هذه المقالات التي كتبها نيومن ، تلك التي تتعلق بالتنويم المغناطيسي ؟ إن بلايدن يحتاجها .

— بالطبع ، لكننا سنحتاج الى مراجع أخرى الى جانب مقالاتــه ، وأنا أقترح سؤال بلايدن الإتصال بشرطة ستوكهولم لمعرفة قضية سالا والحصول على تفاصيل واسعة عن القضية الثانية من هايدلبرغ .

— هل تستطيع أن تشرح القضيتين بإختصار ؟

— لقد جرت حوادث قضية سالا عام ١٩٢٩ إذ استطاع شاب مهتم بالتنويم المغناطيسي أن يسيطر على عصابة بكاملها .

— ماذا تعني بالسيطرة ؟

— اعتبروا أنفسهم جمعية سحرية سرية كما أنهم عصابـــة اجرامية وكلهم خضعوا للتنويم المغناطيسي وارتكبوا جرائم مختلفة، من سرقة سيارات وأعمال لصوصية كثيرة استخدموا فيهـــا العنف ، الى جرائم جنسية ، الى المتاجرة بالرقيق الأبيض، وقد استطاع تنويم فتيات قاصرات حتى يضاجعهن ثم يكرههن على تعاطي الرذيلة ، حتى أنه قتل أحد أفراد عصابته بإعطائه حقنة وهو منوم مغناطيسياً. وكما أخبرتكم سابقاً فقد جعل عضواً آخر من عصابته ينتحر بطريقة الإيحاء المغناطيسي ، وهـــذا ما كتبه نيومن في مقالاته ، والحصول على جميع التفاصيل من الشرطة السويدية يسهل الطريق أمامنا . أمـــا قضية هايدلبرغ فتتعلق بفتاة نُوّمت في قطار دون أن تدري ، وكان منوّمها رجلاً ادعى لنفسه

صفة طبيب، وكانت النتيجة أنه دفعها للسرقة وتعاطي الرذيلة . وكذلك كتب نيومن عن قضية حدثت في تورنجيا « Thuringia » عام ١٩٢١ تمكن فيهــا حارس غابة من تنويم مدرّس جعله يرتكب جرائم مختلفة ثم دفعه إلى قتل نفسه بمسدس ، وهذا يثبت بأن الوسيط قد يُدفع الى العمل ضد مصلحته .

سحب جراي نفساً من غليونه ثم قال بهدوء :

— حسناً ، لو أن جوستاف دفع ضحاياه للإنتحار مستعملاً معهـــم التنويم المغناطيسي ، لبرّر بهذه الطريقة تبجحه في أن يصبح سيد المجرمين .

قال جاردنر : — أما أنا ، فما زلت مؤمناً باستعماله المخدرات ، رغم علمي بأن المخدرات تجعل الرجل أكثر استجابة للتنويم المغناطيسي .

وجاء رنين الهاتف فجأة فقال جراي :

— قد يكون هذا لي لأنني قلت لتشسون أن يتصل بي هنا إذا حدث شيء جديد .

وخرج إلى الغرفة المجاورة ليسمعوا صوته وهو يقول: — جراي يتحدث ، مرحباً جون . ماذا ؟ في أية ساعة ؟.. الثانية عشرة والنصف .. حسناً .. هل لك أن ترسل أحداً لانتظار القطار ومتابعتها ؟ هـــذا رائع .. إذا أردتني ، فسأكون في بيتي بعد ربع ساعة : — وداعاً .

وبعودته إلى الغرفة قال لهم :

— لقد استقل نيومن وفرجوسن قطار الساعة العاشرة والنصف عائدين الى لندن ، وسيصل القطار محطة كنجز كروس في الثانية عشرة والنصف .

فقال جاردنر بانفعال : — هذا رائع فقد أدخلنا الخوف الى نفسه ، ولكنني أتساءل هل يفكر نيومن بمغادرة انكلترا ؟

— هذا ممكن ، ومهما يحدث فسنكون وراءه ، إن أول سؤال أريد توجيهه إليه : لماذا استعمل جواز سفر مزوراً عندما دخل انكلترا عام ١٩٣٨ ؟

نهض جاردنر وقال بلهجة مسرحية :

— حسناً ، أيها السادة ، سأعود إلى بيتي لأنام ساعـــة من الزمن وأستجمع

قواي للحوادث القادمة .. هل أنت قادمة يا ناتاشا ؟

– نعم . الا اذا كان هنا ما أفعله .

ونظرت الى تسفايغ الذي عرف أنها تسأله النصيحة ، وتسأله أن يجدها بعذر يخوّل لها البقاء عنده ، ولكن نظرات جراي المسلطة عليه اضطرته الى الفشل والى القول :

– لا ، سأعمل في الساعات المقبلة ، وإذا أرادني أحدكم ، فسأكون هنا .

– اذن أنا ذاهب ، أتودين أن أوصلك يا عزيزتي ؟

– لا شكراً ، فسيارتي معي .

قال جراي : سأكون من الشاكرين لو أوصلتني الى نايتسبردج .

– بكل سرور .

وقبل أن يغادر جراي قال :

– سأكون شاكراً يا كارل لو حضرت ذلك التقرير الذي يود بلايدن الاحتفاظ به كمرجع للمستقبل .

– سيكون جاهزاً في آخر النهار .

قالت ناتاشا بعد خروجها :

– ما الذي تنوي عمله الآن ؟

– لا أدري .

وتهالك متعباً فوق الأريكة وهو يشم كارهاً رائحة الدخان التي ملأت غرفة النوم ثم قال بحزن :

– يبدو أن القضية خرجت من يدي .

– ألا زلت تود رؤية جوستاف ؟

– أحب ان أراه، ولكن رؤيته اصبحت مستحيلة، فالشرطة تراقبه الآن.

وعاد إلى الغرفة المجاورة التي انبعث منها دفء مفرح ، أخذت ناتاشا معطفها وقالت :

– ماذا تقول لو خرجنا لتناول الطعام الآن ؟

فأجابها بحنان باسم : – أودّ ذلك ، غير أنني يجب ان أعيد قراءة المقالات الاربعة التي كتبها نيومن في المجلة الألمانية بدقة وبعمق .

– ولكن لماذا ؟

– لان شعوراً حاداً يهيب بي لكي اجد الحلقة المفقودة التي يجب ان اجدها ، لكني لا أستطيع ذلك .

– إذن دعني أجلب لك بعض الطعام،استمر انت في القراءة، فلن أزعجك.

– شكراً لك ، ولكنني لا اشعر بالجوع ، ألا ينتظر زوجك عودتك ؟

– لا ، فسوف يذهب إلى فراشه مباشرة ، دعني أحضر لك بعض القهوة وأعد بأنني سأكون هادئة كالفأر .

وأحضر أعداد المجلة الألمانية من غرفة النوم ، ووضعها على طاولة القهوة ، قريباً من المدفأة . وقد خاف من وجود ناتاشا معه لانه توقع أن تمنعه من التركيز، ولكنه ما أن بدأ القراءة حتى نسيها تماماً ، وخلعت هي حذاءها وسارت عارية القدمين إلاّ من الجوارب ؛ وعندما قدمت له قهوته بعد عشر دقائق تناولها وغمغم :

– شكراً .

ثم تابع قراءته بصمت،ولم يتنبه الى خروجها من الغرفة والضوضاء التي احدثتها وهي تعيد ترتيب الكتب على الرفوف ، مع أنه حرم على مدبرة شؤون منزله تنظيف الغبار من على الكتب لشدة تضايقه من اي انسان يمس أوراقه .

كانت بقايا الخمرة التي شربها ليلة الامس قد جعلته كسولاً ، ولكنه ما أن قرأ صفحتين حتى مات الإرهاق ، وخلقت القراءة عنده شعوراً يشبه الألم دبّ في جسمه بغرابة جعلته يدرك عمره ، وجعلته يحس بعجز جسده عن احتمال مرور ما .

رشف قهوته الباردةثم أخذ في المسير حتى دخلت ناتاشا التي نظر اليها وكأنه لم يعرفها من قبل ، ولكنه حين لمح قدميها العاريتين إبتسم فجأة ، فقالت له :

– سأذهب لشراء بعض الاطعمة ، ماذا تحب أن تأكل ؟

ـ لا ، ليس الآن ، فأنا لا أشعر برغبة في الأكل .

وعاد إلى جلوسه وتحديقه في النار فقالت :

ـ أتريدني ان أتركك الآن ؟

واقتربت منه حتى أصبحت وراءه ، فتناول يدها وهو يقول :

ـ لا ، لكن هذا (وأشار الى الكتاب) أعظم شأناً من الطعام .

ـ هل عثرت على شيء ما ؟

فضحك : ـ أتعرفين عمّ أبحث ؟

ـ عن دليل ... لمواقع نيومن ...

ـ هذا صحيح بعض الشيء ، لكنه ليس المهم .

وجلس فوق الأريكة المقابلة مراجعاً ما يريد ليعبر عنه ؛ وأغلق المجلد ودفع الطاولة كأنه يدفع الإغراء بعيداً عنه :

ـ منذ أن عدنا من رحلتنا وأنا افكر في مجتمعنا «النيتشي» لقد كان نيومن الأب المؤسس والرئيس .. والآن وأنا اقرأ هذه المقالات، لا يفارقني التفكير في نيومن الاب .. كما ان المقالات أعطتني الشيء الكثير عن جوستاف وكذلك عن نفسي .

لم يكن ينظر اليها خلال حديثه لخوفه من رؤية انطباعها الذي قد يصرف عقله عما يحاول التعبير عنه :

ـ لقد آمنا ، وصدقنا .. صدقنا بكل شيء يحمله المستقبل تصديق شباب، إيمان شباب ..

قالت : ـ ولكنك ما زلت تؤمن وتصدق .

ـ نعم ولكن بدون تلك ... الثقة في أن كل شيء سوف يتغيّر ، فلقد استولى على أحاسيسنا شعور قوي بالحرّية .. إن ما اتفقنا عليه من أمور لم يكن بالضرورة ثقافياً .. إليك هذا المثال : لقد كان فرتز هولر يدرس ليصبح قسيساً ، ومن ثم آمن بالمبدأ الكاثوليكي ، واعتبر حديثنا عن المسيحية هذيان مجانين ، ومع هذا فقد شاركنا الشعور بأن الإنسان ليس عظيماً بما فيه الكفاية،

وما من إنسان عاش في الماضي قد تجاوز قمة العظمة التي يستطيع الرجل الحرّ ، أتفهمين هذا الإيمان ؟ إنه ليصعب على امرأة ، أنا أعرف ذلك ، إذ يحوي الكثير من الازدراء، رغم أن هذا ليس صحيحاً فلا علاقة له بالازدراء . لقد كنا نجتمع لنقرأ القصص والمقالات التي نشرت في المجلات الأدبية . وكنا نقول : « إنها ضئيلة وصغيرة ، فقد كتبت في غرف ضيقة مليئة بجو محموم » . وآمنا بأن الإنسان يقف على منعطف تقدّم جديد .

ـ ولكنك قلت هذا في كثير من كتبك .

ـ نعم قلته . غير أنني أشعر أحياناً بأنني نسيت المعاني الأصلية لهذه الأفكار . وأذكر أن « فرتز هولر » قرأ لنا مقالاً عن نظرية نيتشه حول السوبرمان ، وأذكر أنه قال : « يجب أن لا نتقبّل جميع أفكاره ، فأكثرها صرخات رجل مريض محموم ، والرجل الذي يلصق على نفسه تبعية نيتشه معتوه صغير ، لأن نيتشه نفسه مشوّه صغير رغم أنه يعبّر عن أشياء تحدث لروح الإنسان في هذا العصر » .

وظلّ تسفايغ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، إذ هو لم يتخلّ عن عادته القديمة هذه . وتابع كلامه :

ـ دعينا ننسى نيتشه وأعماله ونركّز البحث على هذه الظاهرة الجديدة والتي كان نيتشه أول من عرفها :

« لأول مرة في التاريخ الإنساني شعر الناس بأن إنسانيتهم تضيّق عليهم القيد ، وشعر معظم كبار الفنانين والكتاب في القرن التاسع عشر بأن حدودهم ضاقت وتعفنت ، فجاءت أعمالهم معبّرة عن الضعف الإنساني ، وفي الوقت نفسه الذي جاهد فيه الرجال الحقيقيون للانطلاق من عبودية الضعف ، وجدنا رجالاً آخرين يقيمون فلسفتهم على مبدأ الضعف وإفلاس الإنسانية .. وهذه هي الحقيقة التي تظهر في تاريخنا الثقافي الآن ، فئة من الناس تسعى وراء الحرية ، وفئة أخرى تبني أخلاقها على النقيض ، ولهذا قذف هولر بكلماته :

« علامَ يدل هذا التناقض ؟ لا شك أن الإنسان يعدّ العدّة لقفزة جديدة

إرتقائية » .. حسناً ، وهذا مـــا حدث لي ، بعد عشر سنوات خيّل لي أنني اجتزت المرحلة ، وفرحت لأنني أصبحت واقعياً ، لكنني .. الآن أجد أنني كنت على خطأ ، والسبب كما ترين ...

وأشار بيده الى المجلات :

– شعوره بها أيضاً ، إنها هناك في مقالاته .. وهو واقعي لكتابته عن التنويم المغناطيسي وحبوب الحقيقة والانتحار ، كأن همه الوحيد هو البحث العلمي الصرف ، ومع ذلك فأنا أعرف تماماً حقيقة شعوره ، يبدو هذا غريباً عليّ الآن لأنني لم أعرفه جيداً حين كان تلميذي ، كان عصبياً ثائراً .. ولهذا عرفت ضعفه .

وجلس وقد تجهّم وجهه ثم التفت إليها متمنياً أن يرى جهلها ، وقـال غير عابىء :

– الآن أتساءل بحيرة إذا كان جوستاف على حق عندما اتهمني بقبول الحل الوسط ، إذ ان هناك كما يبدو لي الآن ، طرقاً متعددة للوصول الى الواقعية .

وصمتت لتجعله يستمر في قذف أفكاره ، ولما جلس يحدّق بعيداً عنها قالت :

– ولكنك لم تشرح كيف ينقلب الإنسان المؤمن بالحرية الى مجرم ؟

– هل هو مجرم ؟ هذه التهمة لم نصل إليها بعد ، كما أنني أجد من الصعوبة أن أقبلها رغم كل الأدلة ...

وصمت ليقول بعد لحظات :

– ولكن لماذا لم يتصل بي ؟ لقد كنت أستاذه ، ولا شك أنــه يرغب في الحديث إليّ ... عن ... ولو من قبيل الزهو ، فقد يسرّه أن يريني عدم خوفه من الاستمرار ...

– في القتل ، أهذا ما تعنيه ؟

– لا ، لا ، لعله ... لا أعرف ... يجب أن أقضي معه عـدة ساعات إذا عاد الى شقته « بلهام بلاس » ، سأتصل به طالباً منه ذلك .

فأجابت بدلال : مهما فعلت ، عليك أن تأكل شيئاً ، وإلاّ فلن تتمكن من الحديث مع أي إنسان .

فضحك واقترب منها مداعباً رأسها :

– أنت على صواب ، فأنا أشعر بالجوع الآن ، سأرتدي ملابسي ونذهب لتناول الطعام معاً .

وحلق ذقنه بهدوء وعناية تامة متمتعاً بالماء الساخن يجري على وجهه غامراً إياه بالسعادة ، وسمع حركة ناتاشا وهي تغسل فناجين القهوة ، وما أن خرج إلى غرفة الجلوس ليعقد ربطة عنقه حتى جاء رنين الهاتف ، فتوقف ناظراً إليه ، ثم دخلت ناتاشا تمسح يديها بمنشفة الصحون ، وقالت :

– هل تجيب عليه ؟

– أغلب الظن أنه زوجك ، يريد معرفة ساعة عودتك الى البيت .

– أراهن على أن المتصل إنسان آخر .

ورفعت السماعة لتصغي لحظة ثم قالت :

– لا ، فقد ذهب الى بيته منـذ ربع ساعة ... نعم إن بروفسور تسفايغ هنا ...

وناولته السماعة وهي تقول : – شخص من سكوتلانديارد .

قال الصوت : – بروفسور تسفايغ ، اسمي تشسون ، ولا ادري اذا كان سير تشارلز قد حدّثك عني .

– نعم .

– أنا أحد المعجبين بك ، ولكنني أتصل بك لأمر آخر ، فقد حدث تطور مهم في القضيـة ، وأظن أنك يجب أن تكون على معرفة بهذا : فقد سألنـا الانتربول أن يمدنا بمعلومات عن نيـومن ، ولكن ما حصلنا عليه ليس ذا قيمة ، فلا سجل إجرامياً له في فرنسا أو سويسرا ، ولكننا حصلنا على بعض الأشياء ، فجواز سفره يذكر أن عنوانه في جكس بالقرب من جنيف وهو لا يعيش هناك الآن ، ولهذا يمكننا القبض عليه لأنه أعطى عنواناً قديمـاً للتضليل ، والشيء الآخر أنه ذو سجل في ألمانيا لأمر غير مهم ، فقد ألقي القبض عليه عام ١٩٥١ لحيازته على مخدرات مختلفة بما فيها الهيروين ، ولدينا الآن ما يكفي لاحضاره

واستجوابه . هل توافق ؟

أطال تسفايغ النظر في الهاتف كأنما يستلهمه صياغة الجواب ، فقال صوت تشون :

— هالو بروفسور . . .

قال تسفايغ : — أنا . . . لا . . . لا يمكنني ابـــداء الرأي ، وأنا واثق من أن سير تشارلز سيخبركم بالخطوة التي يجب أن تتخذوها .

لقد حاول أن يجد عذراً ليؤخر القبض على نيومن لكن عقله كان فارغاً من الأفكار . وقال تشون :

— حسناً أيها البروفسور ، سأتصل بسير تشارلز الآن مع اعتقادي بأنك المحرك الأول للقضية حتى الآن ؛ ولهذا لم أرد أن أتخذ خطوة دون إخبارك .

— لا . صحيح .

— والشيء الثالث بالطبع هو معرفتنا سبب وجوده في انكلترا تحت إسم كاذب عام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ . وبالرغم من كل هذه الأشياء ، فالقضية مـا زالت بلا دعامة قوية ترتكز عليها الا" إذا حصلنا على شيء أكثر دقة . وهناك طبعاً سير تيموثي فرجوسن الذي قد يمدّنا بدليل ضد نيومن حين يعرف القصة كلها ، وأعتقد أن محاولتنا تتلخص بعدم السماح له بمغادرة البلاد الآن .

— نعم بالطبع .

— إذا قبضنا عليه للتحقيق ، فسوف نسألك أن تأتي الى سكوتلانديارد ، هل يمكنك المجيء ؟

— آه ، نعم لعلك تتصل بي .

— سوف أتصل بك يا بروفسور ، ثم انني لا أجد مانعاً من اخبارك بأنهـا واحدة من القضايا الملتوية التي عالجتها .

سألت ناتاشا بعد أن انتهت المحادثة الهاتفية :

— ما الاخبار ؟

— لقد قرروا القبض على جوستاف في المحطة للتحقيق ، فقد اكتشفوا أنـه

قبض عليه في برلين عام ١٩٥١ لحيازته مخدرات مختلفة ، ويمكنهم الادعاء بأنه أجنبي غير مرغوب فيه .

وأجابت غير مبالية : — لا بد للشيء من الظهور مهما طال أمره .

— لا أدري .

ورفع سماعة الهاتف قائلاً :

— يجب أن اتصل بسير تشارلز . . .

وبعد لحظات أعادها الى موضعها وهو يقول :

— الخط مشغول ، لا بد أن تشون يتحدث اليه الآن .

— إذن لنذهب ونأكل شيئاً .

— هل تمانعين لو أكلنا هنا ؟ فلم أعد اشعر برغبة في وجبة كاملة ، يمكنني إرسال البواب لشراء بعض الطعام .

— لا داعي لهذا ، فسوف أذهب الى المطعم الواقع على النـــاصية وأحضر شيئاً ، أبقَ انت هنا .

ما أن خرجت حتى بدأ تسفايغ يمارس عادته القديمة في السير في غرفته ، وقد عاوده شعور الضياع في خضم الحوادث المتتالية ؛ واتصل بجراي بعد مضي خمس دقائق فأجابه جراي بسرعة :

— مرحباً كارل، تحدثت مع تشون منذ لحظات وأظن انها فكرة حسنة . . وإلا" فيجب مراقبته يوماً او اكثر ، وأنا اشعر أننا نتتبع خطاه ، فحكايـة الاسم المزيف المستعار تكفي لإعادة النظر في قضية مادستون .

— هل سيقبضون عليه عندما يخرج من القطار ؟

— أعتقد ذلك،او أنه سيراقب ويقبض عليه في الغد إذ يريد تشون معرفة ما إذا كان ينوي الفرار . . فقد أخبرني جاردنر بأنـــه رأى تذكرة سفر إلى ميونيخ عندما ذهبنا للتفتيش في البيت الريفي . . هناك طائرة الى ميونيخ الساعة السابعة من مساء اليوم وأخرى في الساعة الثامنة من صباح الغد . . ولهذا فسوف نراقبه ونترقب .

- أريدك أن تتصل بي حالما يحدث شيء جديد .
- بالطبع يا كارل .
ولما عادت ناتاشا محملة بالحاجيات وجدت تسفايغ يقف بالقرب من النافـذة وهو يجرع قدحاً من « الجن » مع الماء ، فقالت :
- بودي لو أشرب مثلك .
فصبّ تسفايغ قدحاً وهو يقول :
- يجب أن لا أشرب كثيراً ، فقد كرعت كمية مختلفة كثيرة خلال الاسبوع الماضي ، لكنني أشعر فجأة ...
وبحث في عقله عن كلمة مناسبة فلم يجد ولهذا قال :
- الأمر كله خاطيء .
فبدت الدهشة تسرح على وجهها وهي تقول :
- الشرب ؟
- لا !
وضحك بإنتعاش حتى عادت إليه حيويته وجديته ثم قال :
- القبض على جوستاف الآن .
- هل قرروا هذا ؟ إن لم يكن مذنباً ، فلديه الفرصة لإثبات ذلك .
- ليس الأمر بهذه السهولة .
- هل تعتقد أنت أنه مذنب ؟
أشاح بوجهه بعصبية كأنما يلقي عن كتفيه الحمل الكبير ، ثم قال :
- لست واثقاً من إجرامه أو عدمه ، كل ما أعرفه .. أنني أفهم جوستاف بطريقة لا يستطيع أي قاض فهمه بها .
واتجهت الى المطبخ لتضع الحاجيات التي أحضرتها من الخـارج ، بينما جلس تسفايغ بالقرب من النـافذة يشرب « الجن » ويسرح بعينيه في حديقة « بارك لين » . وشعر بالجوع يفترسه من الداخل حين هفّت رائحة الدجاج المقلي بالقرب من أنفه ، ونظر إلى ساعته التي أشارت الى الواحدة تماماً ، وفكر في نبـومن

الذي هو في طريقه الى سكوتلانديارد أو هو مطارد من قبل الشرطة السرية ، وقد فات الأوان ولن يستطيع القيام بأي عمل لمساعدته . وما أن رنّ الهاتف حتى هرول اليه كما أن ناتاشا خرجت من المطبخ لتستمع ، وكانت أخته على الخط الآخر تدعوه لتناول العشاء في بيتها ، فإعتذر واعداً إياها بالإتصال قريبـاً ثم أعاد السماعة .

إبتسمت ناتاشا بمشاركة وجدانية نقية وعادت إلى مطبخها، وصبّ البروفسور المزيد من « الجن » في قدحه .

وجلسا متقابلين على الطاولة وهما يأكلان ، فأحسّ بتحسّن كبير ، فقـد أكل بشهية الدجاجة التي طبخت مع الثوم المالح ، وشعر بأن الحالة تغيّرت ، فجلوسه وهو يتناول الطعام على المائدة يعتبر احتفالاً ، لأنه تعود أن يأكل وهو يفتعد الأريكة الكبيرة . وقالت :
- أعتقد أن من الأفضل أن أعود الى زوجي .
تثاءبت وقطبت منتظرة جوابه ، فإبتسم قائلاً :
- قد تكونين على حق .
وتناول الهاتف فأدار قرصه وهو يقول :
- دعيني أتصل بجراي أولاً ، لأعرف منه الجديد في الأمر .
وقال بعد لحظات : - إن رقمه مشغول .
وجاء الرنين مرة ثانية وهو يودعها قرب الباب الخارجي فذهب ليجيب ، قال :
- لقد حاولت الإتصال بك منذ لحظة
فأجاب جراي : - كنت مشغولاً مع تشون الذي أخبرني بـأن نبومن استطاع أن يفلت ويزوغ من أولئك الحمقى .
رفعت ناتاشا حاجبيها وهي ترى الإبتسامة الفرحـة على وجه تسفايغ الذي سأل : -
- كيف ؟

- لقد استقلّ سيارة أجرة من المحطة لكنهم فقدوا أثره في زحام السيارات في شارع « شافتزبري » ، وحين توقفت السيارة بالقرب من شقة « بلهام بلاس » خرج منها فرجوسن دون أن يرافقه أحد وأنا أعتقد أن تيومن انزلق من السيارة في منطقة « بيكاديلي » .

- وما الذي قرّرت أن تفعله الآن ؟

- لسنا واثقين بعد ، ألا تزال ناتاشا معك ؟

- نعم .

- هل يمكنك أن تسألها إن كانت تعرف أي مكان يستطيع تيومن الاختفاء فيه ؟ وهل يملك فرجوسن بيتاً آخر بالقرب من لندن ؟

وسألها تسفانيغ : - هل يملك فرجوسن بيتاً آخر بالقرب من لندن ؟

لم يضع يده على لاقطـة الصوت ، فقد استطاع جراي أن يسمعها وهي تجيب :

- لا أدري .

وعاد تسفانيغ ليسأل جراي :

- هل ستتحدث إلى فرجوسن ؟

- ليس الآن ، فلن يؤدي الاتصال به الى نتيجة حاسمة في هـذه المرحلة . أما إذا حصلنا على دليل واضح قوي من الانتربول فسأذهب لرؤيته حالاً . وقد نكتفي بمراقبته فقط لأنه قـد يكون على اتصال مع تيومن ، وعلى كل حـال سأتصل بك حالما يحدث أي تطور .

وضع السماعة فقالت ناتاشا :

- أظنه قد هرب .

- نعم .

- هل أنت مسرور ؟

- نعم وبطريقة ما ... ومع ذلك ..

وجلست على الكنبة قائلة :

- هناك أمر واحد ... إن تيم يملك بيتاً ريفياً يبعد خمسة أميـال عن « إجهام » .

فنظر إليها بدهشة وهو يقول :

- ولكن لماذا قلت إنك لا تعرفين ؟

- فكرت أنك أردتني أن أقول ذلك .

- لكن ...

وتوقف عن الاستمرار في الحديث ، فقد غيّر رأيه ، وبدلاً من هذا ، أخذ يدها وقبّل راحتها ، فضحكت قائلة :

- هناك مسألة واحدة يعرفها جوزف أيضاً ، فإذا اتصل سير تشارلز بـه هاتفياً فسوف تعرف الشرطة مكانه وتذهب إليه في غضون ساعة واحدة .

- هل تفكرين أن جوستاف قد ذهب الى هناك ؟

- يحتمل ذلك ، ويجب عليّ أن أخبرك بأن تيم يحتفظ بسيارة صغيرة من نوع « انجليا » في كاراج بالقرب من ساحة بيكاديلي .

- بيكاديلي ، إنه المكان الذي نزل فيه من سيارة الأجرة كما يعتقد رجـال الشرطة .

- يمكننا معرفة ذلك بسهولة ، اتصل بالكاراج ، فأنا أحتفظ برقم الهاتف في دفتري الصغير ، وحاول أن تسألهم إذا كانت سيارة سير تيموثي قد أخرجت اليوم .

وعبثت بحقيبة يدها ثم قالت :

- من المستحسن أن أسألهم بنفسي فهم يعرفونني .

ونهض تسفانيغ ليذرع غرفتـه بخطواته ، بينما كانت ناتاشا تتحدث مـع الكاراج ، فطلب منها صوت أن تنتظر قليلاً ليتأكد من وجود السيارة أم لا . وجلست على الأريكـة تعض بأسنانها على قلمهـا الأبيض وتبتسم لتسفانيغ بارتعاش . وتذكر البروفسور أن أحدهم قال له مرّة بأنه إذا مـا ثار وانفعل فإنه يبدو كالدب الأبيض ، ولهذا أجبر نفسه على الذهاب الى الغرفـة المجاورة

ومراجعة مخطوطته عن هيدجر ، ثم سمعها تقول :

ـ أنا مسز جاردنر ، هل هذا سيدي ؟ أوه سيدي ، هل يمكنك أن تخبرني إذا كان أحدهم قد أخذ سيارة سير تيموثي الانجليا اليوم ؟

ـ لقد أخذت ؟ من أخذها ... ؟ عرفت... وهل سألك أحد من قبل عن السيارة ؟

ـ لا ليس الأمر ذا بال ... شكراً لك يا سيدي .

ودخلت الى غرفته وأفرغت تقريرها :

ـ نعم أخذها نيومن منذ ساعة بواسطة رسالة من سير تيموثي .

ـ هل تعرفين موقع البيت الريفي هذا ؟

ـ أعتقد ذلك ، فقد زرته مرة ، أتود الذهاب اليه ؟

وقف هناك يفكر في شيء بعيد عن المكان ثم قال :

ـ لا أدري ، وأعتقد أن هذه فرصتنا في الحديث معـاً ، أعني أنا وجوستاف .

ـ هناك صعوبة واحدة ، فهو إذا حكم عليه بجريمة القتل ، فسوف تتهم أنت بمساعدته .

ـ أعرف ذلك .

ـ إذن لماذا تريد أن تتحدث إليه ؟

ـ لماذا ؟

فكر في الكلمات كعادته وقد استقرت عيناه دون وعي منه على المخطوطة التي ضربها بقبضة يده وهو يقول :

ـ بسبب هذه ، ولأنني لن أمنح فرصة مناسبة للتحدث إليه إذا مـا ألقي القبض عليه ، ولأنني أريده أن يعرف ... بأنني أعرف كل شيء ..

قطّبت جبينها وهي تقول :

ـ ماذا تعني ... من أجل المخطوطة ؟ وما دخـل كتابك في هذا الأمر ؟

أجاب بهدوء : ـ إذا كان جوستاف مجرمـاً ، فسوف أضع كل نقودي

للدفاع عنه .

وسألته دون أن تنفعل : ـ لماذا ؟ ألا تظن أنه يستحق الموت ؟

ـ يمكنك تعليل دفاعي عنه بسبب صداقتي مع أبيه .

ـ ما زال الأمر غامضاً عليّ .

ـ سأحاول الإيضاح في مناسبة ثانية ، فلدينا الكثير لنفعله الآن ، أرجو أن تتصلي بزوجك وتخبريه الا يفضي للشرطة عن مكان البيت الريفي هذا .

ـ وهل هذا صحيح ؟

ـ أتظنين أنه سيرفض ؟

ـ لا ولكن ... إذا اكتشفت الشرطة أمر هذا البيت فيمكنني الادعـاء بأنني نسيته ، اما إذا اتصلت بجوزف الآن فسوف تتعرض لتهمة التعاون مع نيومن .

ـ بالطبع ، إنه لغباء مني أن أسأل ، أرجو معذرتي .

ورفعت سماعة الهاتف غير مبالية فتقدم نحوها ليقبض على يدها وهو يقول :

ـ أنت على حق ، إن في الأمر خطورة .

قالت مبتسمة : سوف أخاطر .

وأدارت قرص الهاتف ، فحـاول أن يقول شيئاً ، ولكنه تراجع مقراً بعجزه أمامها ، ثم سمعها تقول :

ـ مرحباً مارغريت هل السيد جاردنر في البيت ؟ ... متى ؟ هل ترك أي خبر ؟ .. شكراً .

وأعادت السماعة لتقول : ـ لقد تلقى مخابرة هاتفية منذ خمس دقائق خرج على أثرها ولم يترك خبراً عن وجهته .

ـ آه ، أغلب الظن أنه جيراي أو رجال الشرطة .

ـ وهذا يعني أنهم في طريقهم الآن إلى البيت الريفي الواقع في « أجهام » .

جلس على الأريكة يمسح عينيه بأصبعه فقد هاجمه الإرهاق فجأة ، ثم قال :

ـ أنا آسف ، ولكن ليس باستطاعتنا القيام بعمل فعّال .

- لا .

- ومع ذلك ، فهناك شيء واحد أود فعلــه ، وهو أن أرى سير تيموثي قبل وصول الشرطة إليه .

دهشت عندما رأت الرغبة المرتسمة على وجهه لرؤية سير تيموثي ، فقالت:

- بالطبع ، فلربما أخبرنا بشيء . . .

- هل ترغبين في المجيء معي ؟

- نعم نعم ، لنذهب الآن .

- حسناً .

قالت وهما ينزلان درجات السلم :

- من الأفضل أن نترك خبراً لسير تشارلز أو لجوزف مع البواب .

- بالطبع .

وقال البواب وهما يجتازان الممر :

- سأغيب لمدة ساعة تقريباً ، ومن المحتمل قدوم صديقي أثناء غيابي، فهــل لك أن تدعه يدخل شقتي إذا أراد ذلك ؟

قالت ضاحكة : - أرجو الا يكون هناك ما يدينك .

- ليس هناك غير مخطوطتي وأطباق العشاء .

كانت قد تركت سيارتها « الجاكوار » المكشوفــة ذات المقعدين في شارع جاني ، فاستحقت أن تجد ورقة مخالفة قد وضعت تحت ماسحة الزجــاج ، ونظرت الى الورقة المخالفة بــلا اهتمام ثم ألقتها على الرصيف . وصعد تسفايغ وجلس فوق المقعد بجانبها وهو يقول :

- سيفكر زوجك في الطلاق إذا قضيت مدة أطول معي .

ضحكت وهي تجيب : - أنت لا تعرف جوزف .

واندفعت السيارة كطائرة ، وتابعت ناتاشا حديثها :

- سأخبرك بسر ، إن جوزف يأمل أن أقنعك بكتابة مقدمة لكتابــه الذي يثبت فيه أن « أطلنطا » قد هدمتها حرب ذرية .

وما أن وصلت السيارة قرب حديقة « بارك لين » حتى قال :

- قد أكتب له المقدمة !

وحدقت فيه وقد علتها الدهشة قائلة :

- ستكون معتوهاً كبيراً .

وقال في حنق :

- لقد ارتكبت هفوات أعظم .

واوقفت السيارة بالقرب من محطة « كنزنجتون » الجنوبية وهي تقول :

- لا داعي للإعلان عن وجودنا هناك ، فأغلب الظن أنهم يراقبون المكان .

كان « بلهام بلاس » خالياً من أي أثر لإنسان يبدو بمظهر المخبر . وقد لاحظ تسفايغ، وهما يدخلان البيت، تحريك الستائر المعتاد من نافذة الطابق الأرضي ، فالتفت نحو النافذة مبتسماً ليقابله وجه المرأة العجوز الخائفة، التي انقلب خوفها الى ترحيب غير مرغوب فيه ، ونزلت ناتاشا إلى الطابق الأسفل فقرعت الجرس بينما صعد تسفايغ الدرجات مشيراً إلى النافذة ، ولما أطلت العجوز ارتفع صوته بهذا السؤال :

- هل سير تيموثي موجود في البيت ؟

فهزت العجوز برأسها مشيرة الى الطابق الأسفل ، وأعادت ناتاشا قرع الباب ولحق بها تسفايغ ليقول :

- لعله ذهب لتناول الطعام .

ولكنهما سمعا حركة على الجانب الآخر من الباب ، وما أن مضت لحظة حتى شق الباب وأطلت منه عين مضيئة واحدة تحدق فيها ، فصرخت ناتاشا :

- تيم ماذا حدث ؟

- آه ، هذه أنت يا ناتاشا !

فتح فرجوسن الباب فصعق تسفايغ للبياض المخيف الذي حل في وجهه فبدا كأنه قد ترك الكفن منذ لحظة فقط ، وأدار فرجوسن وجهه وسار دون أن يكلف نفسه عناء سؤالها بالدخول ، وظهر الإرهاق في خطواته ، فنظرت ناتاشا

إلى تسفايغ قبل دخولها لتقول بهمس :

– يبدو وكأنه أصيب بصدمة ثانية .

تبعها تسفايغ إلى غرفة الجلوس الوثيرة والتي كانت سجادتها تشبه السجادة التي فرشت في البيت الريفي . وكانت الغرفة باردة جداً . وقد ألقى فرجوسن بنفسه على أريكة مسنداً رأسه على ظهرها ، يحدق فيها بذهول ، ثم قال بصوت تختلط فيه اللهجة الاسكتلندية :

– أخاف يا فتاتي أن أخبرك بأنني لست على ما يرام .

فسألته : – الغرفة باردة جداً ، لماذا ؟

فأشار برأسه نحو المدفأة وقال :

– أشعلي النار .

وانحنى تسفايغ وعالج المدفأة ، وكانت الغرفة مليئة بالرطوبة والوحشة ، حتى أن ناتاشا سألته :

– هل يمكنني أن أحضر لك أي شيء ؟

– نعم ، أرجو أن آخذ قليلاً من الويسكي ، هناك زجاجة في حقيبتي .

أجابت بثبات : – الأفضل أن ترقد في السرير فأنت متعب جداً .

وفتحت الحقيبة لتخرج زجاجة الويسكي ولما ناولته قدحاً صبّت فيه مقدار نصف بوصة من المشروب ، رفعه بتمهّل واضعاً إياه على ذقنه لحظة قبل أن يشربه ، ثم سعل بعد جرعة الويسكي الذي انحدر بعض منه على ذقنه ، فقالت :

– سأحضر لك زجاجة الماء الساخن وأضعك في الفراش ، ماذا كنت تفعل ؟

أجاب بصوت فيه شجوى الأطفال : – لا أسئلة الآن ، سأخبرك فيما بعد .

وأغمض عينيه ليقول بعد لحظة :

– إنني مسرور لقدومك يا فتاتي .

ونشرت المدفأة الكهربائية الحرارة تدريجياً في الغرفة ، وجلس تسفايغ ينظر الى وجه فرجوسن الشاحب الذي تنفس بتشنج فأبى التفكير فيه ، ولم

يلق فرجوسن لا حتى الآن لوجود تسفايغ ، وعادت ناتاشا من غرفة النوم لتقول :

– لقد جهزت لك الفراش ، فقد كانت الأغطية رطبة ، تعال الآن .

ولاحظ تسفايغ في طريقة حديثها لمسة حرارة بلغت حد الرقة كتلك التي تظهرها له حين تخاطبه ، ولو رآها إنسان غريب لظنّ بأنها إبنة فرجوسن

ونهض البروفسور ليساعد ناتاشا في حمل فرجوسن ووضعه في فراشه ، وهمست في أذنه وهي تفكّ رباط حذاء فرجوسن :

– هل لك أن تذهب وتملأ زجاجة الماء الساخن ؟ إنها بجانب الابريق .

عاد تسفايغ ليجد الرجل العجوز في فراشه ، وليلاحظ أن الحجرة قد تبدّل الجو فيها ، فهناك النور الجانبي للسرير الذي تألق وشارك حرارة المدفأة على دحر وحشة المكان . وناولته ناتاشا قصاصة من الورق كتب عليها عدد من أرقام الهاتف ، وقالت :

– أرجوك الإتصال بهذا الرقم ، إنه رقم الطبيب ، أخبره بأن حضوره ضروري .

ففتح فرجوسن عينيه قائلاً :

– استمعي إليّ يا عزيزتي ، أنا لا أريد الطبيب .

– ولكنك تحتاج إليه .

– لا ، أحضري لي حقيبتي من الغرفة المجاورة ، ففيها بعض الاسبرين .

وأحضر تسفايغ الحقيبة ووضعها على الطاولة ؛ وكان فرجوسن يتنفس بتشنج وقد أغمض عينيه ، وحين قالت ناتاشا :

– اذهب واتصل بالطبيب .

قال بوضوح : – لا لم يحن الأوان يا ناش ، أعطني نصف ساعة أخرى ، ودعيني لوحدي لحظة .

– والاسبرين ؟

– ليس الآن ، دعني أستريح فقط .

هزت كتفيها وتبعت تسفايغ إلى غرفة الجلوس بعد أن قالت :

– نحن هنا إذا ما احتجت إلى شيء .

أغلقت الباب وجلسا ، ثم قالت :

– علينا أن نتصل بالطبيب .

– أوافقك الرأي ، ولكنه كما يبدو لا يريد ذلك .

– ذلك ما يقلقني ، إنه مصاب بالسوداء ويطلب منا عادة احضار عدد من الأطباء مرة واحدة .

– هل هناك من خطأ ؟ هل قلت بأنه أصيب بصدمة من قبل ؟

– مرتين ، ولكنهما ضعيفتان ، لم أره في حياتي مريضاً الى هذا الحد .

ونظر كل منهما الى الآخر فقالت :

– أتظن . . .

سمعا صوتاً من غرفة النوم فأسرعت ناتاشا إلى الباب ودفعته بقوة ، مما جعل تسفايغ يرى فرجوسن واقفاً بالقرب من الطاولة ، منحنياً فوق حقيبته ، قالت له :

– ما الذي تفعله ؟

– لا شيء .

وتراجع وجلس على حافة السرير ثم إمتدت يده الى فمه فسألته .

– ما الذي بلعته !

– أسبرين . . .

فتقدمت نحو حقيبته ورآها تسفايغ تحمل زجاجة صغيرة وتقول لفرجوسن:

– هذه ليست زجاجة أسبرين .

فأجاب : – كان الباقي حبة واحدة فقط .

تطلعت إليه للحظة ثم هزت كتفيها وهي تقول :

– ارجع إلى سريرك سأذهب لاستدعاء الطبيب .

– لا ، أرجوك .

سمح له بمساعدته على العودة الى سريره وتغطيته ، وقال لها :

– اتركي الأمر لعشر دقائق فقط .

– حسناً ، عشر دقائق فقط .

كان صوتها يحمل خشونة ممرضة مدربة ثم خرجت من الغرفة دون أن تنطق بحرف . وتناول تسفايغ الزجاجة التي أعطته إياها ناتاشا . كانت صغيرة جداً وزجاجية من ذلك النوع الذي يباع فيه « السا كارين » لكنها خلت من أية آثار بيضاء تشير لما حوته ، فقد بدت كأنها غسلت ونظفت ، أما الغطاء فقد أقفل نصف إقفال ، وانتزعه تسفايغ وشمها فذكرته رائحتها بالحشيش ، ثم سمع صوتها يقول :

– لقد إبتلع شيئاً منها ولا أعتقد بأنها أسبرين .

وعلا صوت خلا من التعب ، من غرفة النوم صارخاً :

– ناتاشا .

فتطلعت الى تسفايغ بدهشة ثم خرجت ، واستطاع تسفايغ أن يرى حين فتح باب غرفة النوم ، فرجوسن يجلس على السرير ، وعندما رجعت بعد خمس دقائق وأغلقت الباب وراءها بعناية ، قالت للبروفسور :

– أنا لا أفهم شيئاً ، إذهب وانظر إليه بنفسك .

فتبعها ، ولكنه صعب عليه الحدس بما سيرى . لقد كان فرجوسن جالساً على السرير ، وبالرغم من أن وجهه خلا من اللون ، فإنه لم يعد لتنقصه الحيوية والنشاط ، فقد بدا وكأنه يعاني صداعاً في الرأس أو آثار سكر شديد . وابتسم لتسفايغ قائلاً :

– آه أيها الإنسان العزيز ، أنا آسف لتحميلك هذه المصاعب ، نحن لم نتقابل من قبل ، ولكنني أعرفك .

– هل تشعر بتحسّن ؟

– أنا أشعر بتحسن كبير ، لقد أصبت بصدمة قوية قبل وصولكما وعجزت عن القيام بأي عمل ، إلا السيطرة على أنفاسي . . . هل لي في تقديم بعض

المشروب إليك ؟
– لا ، أشكرك ، فالأفضل بقاؤك في السرير .
– نعم ، بكل تأكيد ، سأفعل ذلك .
ووقفت ناتاشا بجانب الطاولة تبيح لعينيها الجولان في حقيبته فقال :
– ماذا تريدين أيتها العزيزة ؟
– معرفة ما إذا كان لديك المزيد من الاسبرين .
– لا ، فقد تناولت آخر حبـــة ، أتعتقدين أن بإمكاني شرب قطرات من الويسكي الآن ؟ أو فنجان شاي ليريح أعصابي ؟
التفتت إليه وقالت بحدّة :
– إسمع يا تيم ، فأنا لا أعرف ما الذي تخفيه عني ، ولكن من الأفضل أن نخبرك بأننا نعرف الكثير عن صديقك نيومن .
خفض عينيه وألقى برأسه فوق الوسادة ، وعرف تسفايغ الرجاء الصامت الذي يسأل فيه العاجز المحترف ، وأجاب بهدوء :
– لا أفهم أيتها الفتاة ، فكل ما أعرفه أنه ليس لديه ما يخفيه .
فقالت : – إن الشرطة تحاول إلقاء القبض عليه الآن .
رفع عينيه فارتسم الرعب على وجهه قائلاً :
– يقبضون على جوستاف .. لماذا ؟ لا يمكنهم القيام بهذا العمل .
وخرجت الكلمة الأخيرة من فمه بما يشبه الصراخ ، ونقل بصره من ناتاشا الى تسفايغ وقال بحيرة :
– لماذا ؟ لماذا يريدون القبض عليه ؟
فأجاب تسفايغ متلطفاً :
– لقد جاء الى انكلترا عام ١٩٣٧ بجواز سفر مزوّر ، وعندهم الدليل على هذا .
– ولكن قد مضى زمن طويل ، ولا يمكنهم اتهامه الآن .
وجلست ناتاشا على السرير وخرج صوتها هادئاً وهي تقول :

– تيم ، لا أعرف ما الذي تعرفه أنت عن جوستاف نيومن ، ولكن للشرطة أسبابهم في إيقافه تحت سلطتهم للفترة .
فاستوى جالساً على سريره ، واستغرب تسفايغ أن يراه قوياً لا يشكو من ضعف ما ، فقال بصوت قوي :
– لا ، لا يمكنهم فعل ذلك يا تاش ، يجب إيقافهم .. يجب أن لا يقبضوا عليه ، فهذا في غاية الأهمية ...
– وما وجه أهميته ؟
فتقدم نحوها وأمسك بيدها بحنان وقد ارتجف صوته وهو يقول :
– اسمعي يا تاش ، إن جوزف يملك قارباً تجارياً في فولكستون .. أرجوك ساعديه على الخروج من انكلترا ، أوصليه الى فرنسا .
– لكن لماذا ؟ هل تعرف السبب الذي يلاحقونه من أجله ؟
قرأ تسفايغ على وجه العجوز اليأس المرتسم في عينيه وهو يقول :
– أعرف لماذا تشتبهون به بالطبع ، أنا أعرف ، ولكن عليه أن يهرب يا تاش .
فقالت له : – هل تستطيع الإجابة على سؤال واحد فقط ؟
– إذا كان بمقدوري .
إرتجـــف صوته وهو يلفظ تلك الكلمات وترقب السؤال بخوف ، حتى قالت له :
– هل أعطاك المخدرات ؟
– أنا لا ... لا يمكنني الإجابة .
– إذن ليس هناك ما أستطيع عمله ، فالشرطة تبحث عنه الآن ، وأغلب الظن أنهم في طريقهم إلى البيت الريفي في « أجهام » .
همهم قائلاً : – لم تخبريهم أنت بذلك .
– لا ، قد يكون جوزف هو الذي أخبرهم ، وقد يكون معهم الآن .
– لماذا ؟ لماذا تريدون الإيقاع به ؟

– أولاً لما فعله بك .

– لم يفعل بي شيئاً غير أنه أبقاني أعيش الآن .

– بإعطائك المخدرات ، ما مقدار ما أعطيته من نقود ؟

– لم أعطه الكثير حتى الآن .

– ولن تعطيه ، فسوف يستقر في السجن .

– ناش يا حبيبتي ، لا تكوني قاسية .

كاد يبكي وهو يقول : – أنك تعرفين مقدار ما أكنّه لك من حب ، فهل تريدين رؤيتي ميتاً ؟ أنا لا أعتقد ذلك .

هبت كلماتها كعاصفة مزمجرة وهي تقول :

– ومن هو المسؤول إذا متّ ؟ لا تكن غبياً ! هل تعرف عدد الذين ماتوا من قبلك ؟

وصعق تسفايغ لقسوتها ، فقد لاحظ ما أصاب فرجوسن من إرهاق وخشي عليه من صدمة ثانية ، كما دهش لعدم إهتمامه أيضاً فقد قال لها بالنغمة المنتبهة نفسها :

– أعرف يا عزيزتي ، ولكن يجب أن يبقى طليقاً في الوقت الحاضر .

– لماذا ؟ وماذا ستفعل اذا فرّ من انكلترا ؟ ستذهب وتلحق به .

– نعم سأذهب للإلتحاق به يا ناش .

– لماذا ؟

فالتفت فرجوسن إلى تسفايغ قائلاً :

– ألا يمكنك إفهامها ؟ لقد كنت أستاذه ، فأخبرها بأنه ليس كما تظن .

وحاول تسفايغ أن يشبع صوته بالرقة والمنطق ، فقد أراد أن يردّ على تهجّم ناتاشا وهو يقول :

– أوافقك الرأي الى حد ما يا سير تيموثي ، ولكن يجب أن تدرك السبب في شعورها هذا ، هل تستطيع أن تخبرنا عن سبب مرضك المفاجيء ساعة وصولنا ؟

– تلك كانت غلطتي ، لقد هجم عليّ ضيق خانق حين تركني جوستاف وأصابتني صدمة جديدة ، وهذا ما سبب خفقان القلب الذي أعانيه .

قاطعتهما معاً لتسأل بحدّة :

– وما الذي بلعته حتى تحسّن حالتك الصحيّة ؟

– تناولت حبوب « الطوارىء » التي خلّفها لي وهي لن تؤذي أبداً ، ناش حبيبتي ، أرجوك أن تفعلي شيئاً من أجله .

وتقدّم منها ليحتضن يدها بتوسّل ، فوقفت لتقول متأوّهة :

– حسناً ، سأرى إذ كان بإستطاعتي الإتصال بجوزف .

– هل تفعلين ؟ لن أنسى هذا أبداً ، أسرعي الآن ...

وتبعها البروفسور الى خارج الغرفة ليسألها حين أغلقت الباب :

– ما الذي ستفعلينه ؟

– ليس هناك ما أستطيع عمله ، سأتصل بجوزف رغم معرفتي المسبقة أنني لن أجده ، وحالته الصحيّة تدعوني الى موافقته ، أرجوك راقبه .

فتحت باباً جانبياً وصعدت الدرجات ، عاد تسفايغ الى غرفة النوم فابتسم فرجوسن وهو يسأله :

– هل ذهبت لتتصل هاتفياً ؟

– نعم ، وستعود بعد لحظات .

– هذا رائع .

وأغمض عينيه ، فران الأمن على وجهه ، فبدا مبتهجاً فرحاً . وجلسا صامتين إلاّ من ذبذبة المدفأة الكهربائية وفرقعة طقطقة تشبه القضم ، وبدأ فرجوسن الحديث :

– أنت تعرف يا بروفسور أن جوستاف رجل نبيل ، وأنا لا أستطيع إخبارها بأي شيء فقد وعدت بذلك ، أرجوك أن تشرح الأمر فهي عنيدة صلبة .

وهبّ تسفايغ ليذرع الغرفة إذ لم يطق صبراً على جلوسه هادئاً ، ولم يسمع

صوتاً لسيره على السجادة الكثيفة ، وبدأ يسأل فرجوسن :

– أتظن لحاقك به في أوروبا فكرة صائبة ؟

– لِمَ لا ؟ فهو لم يصبني بأذى حتى الآن !!

– أأنت واثق ؟

– بل متأكد .

قال تسفايغ بتأنٍ :

– أنت تعرف أن الأمر بلغ حد السوء ، فقد اعترفت برغبتك في اللحاق به ، كما اعترفت بأنك ستغدق عليه المال ، وقد أخبرك بقصة ماتيزّر سبب اهتمام الشرطة به .

– لم يقل لي قصة مزيّفة ، بل أخبرني بالحقيقة .

– إذن لماذا دخل انكلترا عام ١٩٣٧ بجواز سفر مزوّر ؟

– لقد اضطر الى ذلك ، فقد عاش في ألمانيا ، وكان النازيون يبحثون عنه .

– ولماذا اتخذ إسماً مزيّفاً في إنكلترا ؟ فالبلاد هنا لم تكن تحت سلطة النازية .

– كان آنذاك يفتقر الى الخبرة الحياتية ، كان شاباً يهوى المغامرة الخيالية .

وهنا سمعا أصواتاً في الغرفة المجاورة ، ودخلت ناتاشا تتبعها فتاة رآها تسفايغ قبل ان يدخل الشقة ، وقالت ناتاشا :

– نعم ، أنا مضطرة لمغادرتك ، وهذه سليفيا ستكون تحت خدمتك ، وسوف تتصل بالطبيب إذا شعرت بأي شيء .

– هل أنت ذاهبة الآن ؟

– إنني مضطرة .

وتوقفت ثم أضافت : – إذا اردتني ان ابدأ عملية المساعدة !!

ابتسم فجأة ليقول : – حفظك الله يا عزيزتي .

– إنني عائدة لأرى جوزف ، واغلب الظن انه سيأتي لزيارتك .

اجاب بحب صادق : – حسناً ، ارسليه لزيارتي ، فأنا اود التحدث إليه

عن ... القارب البخاري .

– اتفقنا ، حاول ان تنام الآن ولا تدع القلق مجالاً ، فالأمر سيسير كما تحب .

وأشارت الى تسفايغ فقال فرجوسن :

– هل تعرفين ما يحدث ؟ هل هم ... يعرفون ... اين هو ؟

ومنعه وجود الفتاة من الاستمرار ، فسارعت ناتاشا تقول :

– لا شيء يحدث ... إنهم لا يعرفون شيئاً عن البيت الريفي .

– رائع ، ولن تخبريهم ...

– طبعاً لا ...

– حفظك الله يا تاش .

واستلقى على سريره مغمضاً عينيه ، وخرج تسفايغ من غرفة النوم تتبعه ناتاشا ، ولما وصلا الى السيارة قالت له :

– لم أستطع الإتصال بجوزف ، فقد حاولت الاتصال به بالبيت وببيت جراي ولكن لم اجده .. ماذا تظن ؟

– إن الأمر في غاية الوضوح الآن ، فقد كان زوجك على صواب عندما شك في المخدرات ، وأنا أود الآن معرفة ما الذي يتعاطاه ، فالزجاجة في جيبي وسوف أعطيها الى سير تشارلز لتحليلها .

– ما رأيك بالقصة التي قالها نيومن لتيم ؟ أعني هل تستطيع ان تتكهن ؟

– لست ادري ، لكنه ادعى أن جوستاف حثه على أن يقسم على سرية الأمر .

قالت وهي تنقل مغير السرعة : – يبدو أن صديقك « هر » نيومن يمتاز بذكاء نصفي وذكاؤه هذا سيقوده إلى المتاعب عما قريب .

وتوقفت السيارة أمام اشارة المرور في طريق كرومويل فقالت :

– حسناً ، أما زلت تودّ الذهاب إلى البيت الريفي ؟

– لا أدري ، لعل من الأفضل ان نعود الى البيت الآن .

– ثم نتجه الى بيتنا لشرب فنجان من الشاي ، فأغلب ظني ان جوزف سيتصل بي هناك .

قالت الخادمة التي فتحت لهما الباب :

– لم يعد السيد جاردنر بعد ، وقد اتصل سير تشارلز جراي هاتفياً منذ دقائق قصيرة ليسأل عنكما فأجبته بأنني لا ادري متى تعودان .

– حسناً فعلت ، فأنا متعبة ، هل لك في تحضير الشاي لنا قبل خروجك ؟

وما ان غرق البروفسور في نعيم الأريكة المريحة حتى عرف مدى ما أصابه من إرهاق ، فأسند رأسه الى الوراء ، ليغمض عينيه ، وجاءت ناتاشا من غرفة نومها لتقف خلفه ، واضعة يديها على جبينه ، فشعر بالإرتياح المنعش ، ثم قالت:

– يجب ان تنام ، فهذا السعي يضرّ بك .

– وكذلك يضرّ بك .

– أوه ، لقد تعودت على هذا ، فجوزف يعيش على هذه الشاكلة .

تمتّع بلمسات يديها الباردتين اللتين ردّتا اليه حيويته ، واستسلم في الوقت ذاته للنوم ، وقفزت مبتعدة عنه حالما سمعت صوت فتح الباب ، أما هو فقد عاد الى واقعه بعد ان امضى رحلة طويلة ، وجاءت لتجلس بجانبه قرآها قد بدلت ثوبها الى ثوب رمادي من الصوف يبرز تقاطيع جسدها الجذابة ، ودخلت الخادمة تحمل صينية وضعت عليها الشاي والبسكويت فأخذ فنجانه دون ان يقول كلمة واحدة ، وكانت حفلة الشاي ، حفلة صامتة، لم يسمع فيها الا صوت الأدوات الفضية الآتية من المطبخ ، وعادت الخادمة بعد دقائق لتقول :

– انا ذاهبة مز جاردنر .

وما ان اغلقت الباب خلفها حتى غمره صمت آثر فيه لمس المسند المخملي الناعم الذي القى عليه رأسه .

قالت ، فأحس لكلماتها وقع الصدمة :

– تُرى ما الذي سيفعله تيم لو قُبض على تيومن ؟

– كدت انسى هذه القصة .

– اعرف ذلك ، فأنا ايضاً مللتها .

واجاب حين فرغ من شرب الشاي :

– الأمر سيان ، وارجو ان لا يقبضوا عليه اليوم .

– لماذا ؟

– لأنني اشعر بأنني مدين له بشيء ... إنه من ذلك النوع الذي انا مدين به لك .

– وما هو ؟

لم تشحن صوتها أية رغبة للإطراء .

وقال بهدوء : شعور العودة إلى الحياة .

إبتسمت : – لا ادري إذا كان جمعي وتيومن مديحاً لي .

أشعره الإرهاق بأن لا مجال للشرح ، فرفع قدميه الى الأريكة المقابلة ، واسند خدّه الى المسند حين حملت الصينية الى المطبخ ، ولما عادت غطته بمعطف ليليّ ثم انتزعت الهاتف من مكانه . اما هو فقد استغرق في النوم مدة ساعتين ؛ وعندما فتح عينيه وجد الظلام يحيطه ، فتوهّم انه في سريره ، وما لبث ان عادت اليه ذاكرته ، فنادى بهدوء :

– ناتاشا .

ولما لم يسمع جواباً ، نهض ليشعل النور ونظر الى ساعته فإذا هي الخامسة والنصف . ودخل الحمام فتطلع إلى وجهه في المرآة ثم رشّه بالماء ، كان يكره النوم وهو في ثيابه، إذ كانت تشعره بالشيخوخة والقذارة ، وما ان مسح وجهه وسرح شعره حتى اطمأن بعض الشيء ، وذهب ليرى ناتاشا في غرفة نومها ، فشقّ الباب وأطلّ ليراها ترقد تحت غطاء ريشي دون ان تخلع ملابسها ، وسار كلصّ غير محترف فاحتضن يدها ، فتحركت ، ثم نقلت يده الى صدرها كما ينقل الطفل لعبته المفضّلة . وهمس :

– ناتاشا . استيقظي .

فتحت عينيها ونظرت اليه حالمة ثم جلست غير ثابتة وقالت :

– يا إلهي ، كم الساعة الآن ؟
– الخامسة والنصف .
– ألم يصل جوزف بعد ؟
– لا ، فقد فكرت بأنه ينتظر في منزلي الآن . أتذكرين أنني قلت للبواب أن يسمح له بالدخول ؟
وألقت الغطاء ، بعيداً عنها ونهضت قائلة :
– على كل حال يجدر بنا الذهاب ، هل لك أن تتصل بشقتك حتى أنتهي من إصلاح شأني ؟
وصعب عليه العثور على الهاتف ، فقد أخفته تحت كومة من الوسائد والمساند ، وكان يرسل نغمات مستمرة خافتة ، وحين ضغط عليه توقفت نغماته وماتت الحرارة فيه ؛ وهزّ الجهاز يمنة ويسرة عدة دقائق ثم أعاد السماعة ، وقال لها وهي تدخل الغرفة :
– لا أستطيع الحصول على الخط ، فلعلّ من الأفضل أن نعود حالاً .
– حسناً ، فأنا مستعدّة ، هل أبدو متعبة ؟
– طبعاً لا ، ولكن مجيئك معي يبدو غير ضروري ، إن بإستطاعتي أن أستقل سيارة أجرة .
– لا داعي لذلك ، سآخذك بسيارتي ، فإذا لم نجد أحداً هناك ، فسأعود حالاً إلى هنا ، هل أنت مستعد ؟

– ١٨ –

أوقفت السيارة أمام البناية التي يسكن فيها البروفسور كارل تسفايغ ، وقالت له برقة :
– حاول أن تستفهم من البواب عما إذا سمح لأي إنسان بالدخول إلى منزلك. إنني عائدة إلى البيت .
قال البواب : – هناك رجل ينتظرك منذ الخامسة يا سيدي .
وأومأ تسفايغ الى ناتاشا فتركت سيارتها لتنضم إليه . وكان المطر يتساقط بغزارة ؛ وأخذ البروفسور شلنين ونصفاً فناولها للبواب ، وما زال شعور القذارة يغسل جسده لنومه في ثيابه ، كأن البواب قد عرف بأن البروفسور الشهير قد نام مرتدياً ثيابه كاملة ، لهذا سأله ليبعد عينيه عنه :
– وهل هو شاب طويل القامة ؟ هل له شارب ؟
– لا شارب له يا سيدي .
قالت ناتاشا : – لا شك أنه جوزف .
وعاوده شعور الإثم ؛ فلو سأله جاردنر ، أين كانا ؟ أفي استطاعته أن يقول: « كنا نائمين في شقتك » ؟
وابتسم البواب بسخرية مؤدبة وهو يرمق ناتاشا ، فابتعد البروفسور منزعجاً ، وفتح باب الشقة الخارجي ، فبدت الشقة خالية ، لذا صرخت ناتاشا :
– جوزف ... وتابعت : – لا بد أنه في الحمام .
– لا ، بل هنا !!
التفتا بسرعة نحو مصدر الصوت فإذا بجوستاف نيومن يبتسم لهما وقد وضع

يديه في جيبي سرواله ، ووقف على عتبة باب غرفة المطالعة .

أفاقت ناناشا من ذهولها وقالت بحدة :

— ماذا تفعل هنا ؟

— هل أنا متطفل ؟ انني آسف .

وأعادت السؤال بصيغة أخرى :

— لماذا أنت هنا ؟

— أولاً لأن هذا هو المكان الأخير الذي يمكن للشرطة أن تبحث فيه عني ..

أجابت : — إن باستطاعتنا تغيير ذلك دائماً .

فتجاهلها نيومن والتفت إلى تسفايغ قائلاً :

— لقد جئت أريد الحديث معك .

وتنحنح تسفايغ وهو يسأل : — لماذا ؟

— سأغادر البلاد غداً ، وقد فكرت بأن علينا أن نتبادل الحديث أولاً .

فتدخلت ناناشا قائلة : — تعني أنك تأمل في مغادرة البلاد غداً .

وتابع حديثه مع تسفايغ كأن ناناشا لا وجود لها في المكان :

— لماذا ؟ هل هناك ما يمنعني ؟

فأجاب تسفايغ : — تريد الشرطة أولاً أن توجه اليك بعض الأسئلة .

— عن أي شيء ؟

— عن مجيئك الى انكلترا عام ١٩٣٧ بجواز سفر مزور .

— أنا واثق من اني سأقنعهم .

فقالت ناناشا : — أتظن ذلك ؟ من المحتمل وصولهم في أية لحظة .

فنظر إليها وعلى وجهه شبه إبتسامة ثم قال :

— هل يحتمل ذلك ؟ أرجو أن لا يحدث ، فأنا أوافقك على أنهم سيحدثون تأخيراً لا فائدة منه .

قالت : — وسوف تضطر إلى تفسير سبب انهيار سير تيموثي حين تركته اليوم ، وهنا اختفى بروده ، فسرّ تسفايغ لرؤيته خائفاً مرتعشاً ، وهو يقول :

— هل حدث له ذلك ؟ هل أنت متأكدة ؟

أجاب تسفايغ : — لقد تركناه ظهر هذا اليوم وقد اعتراه الضعف الشديد.

— آه ، ذلك أمر سيء .

وحدّق نيومن في السجادة عندما قال :

— هل تناول شيئاً من الحبوب التي تركتها ؟

فقالت ناناشا : — وتعترف بأنك تركت حبوباً ؟

— أه ، طبعاً ، كيف حاله الآن ؟

أجاب تسفايغ : — تحسنت حاله ساعة خروجنا من عنده .

— رائع ، هذا عظيم ، فالأمر في غاية الصعوبة .

— عمّ أردت أن تتحدث معي ؟

فنقل بصره بين تسفايغ وناناشا ثم قال :

— من المحتمل تأجيل الحديث مع أنه مربك .

فقالت ناناشا : — هل أعترض طريقك ؟

أجاب دون وعي : — لا ، لا !

نظر إلى ساعته وتابع : — أعتقد أنهم يراقبون المطار إذن .

— أعتقد ذلك .

— الأفضل أن أغادر حالاً ، هذا مؤسف ، فقد رجوت الحديث معك ، لقد قرأت مخطوطتك ، ورجائي الاّ تمانع ...

ذهب نيومن إلى غرفة المطالعة ليحضر معطفه ، فقالت له ناناشا :

— لن تذهب بعيداً .

قال بتفكير : — سنرى !!

وزرّر معطفه ثم ارتدى قفازيه وتطلع إلى تسفايغ قائلاً :

— هل يمكنك ان تأتي معي ؟

فسأله تسفايغ بدهشة : — إلى أين ؟

وقاطعتها ناناشا لتصرخ : — لا ، لا يمكنك ذلك .

وابتسم لها نيومن قائلاً : — عزيزتي مز جاردنر : إنك مدينة لي ببعض من وقاحة بعد غدائنا ذلك اليوم ، ويؤسفني أن أزيد من تهجمي ، ولكنني أحب سماع رأي البروفسور تسفايغ في الأمر .

فالتفتت الى تسفايغ قائلة :

— إنك لا تستطيع أن تذهب معه ، لن تذهب ، ولن أسمح بذلك !

فوضع يده على كتفها بحنان دون أن يحول عينيه عن نيومن ، ثم سأل :

— أين تريد أن تذهب ؟

— إلى مكان يمكننا فيه التحدث .

فقالت : — لا شك بأن هذا جنون ، كيف تثق به ؟

سأل تسفايغ : — لو جئت معك ، فهل ترجعني إلى هنا بعد ذلك ؟

— إذا أردت ذلك .

التفت تسفايغ الى ناتاشا قائلاً :

— إنني ذاهب معه يا عزيزتي ، أرجو ان لا تحاولي منعي ، فأنا أيضاً أريد فرصة لأتحدث إليه .

— لكن أنت ...

ترددت ثم التفتت الى نيومن قائلة :

— هل لك أن تترك الغرفة لحظة واحدة ؟

فانحنى بأدب مصطنع لها وقد ظهرت على وجهه علامات التأثر وهو يقول :

— بالطبع ، هل أنتظرك في السيارة ؟ فقد وضعتها في شارع جانبي على الطرف الآخر من شارع كوزن ..

واتجه نحو الباب وقال : — أرجو أن نلتقي ثانية يا سيدتي .

وخرج مغلقاً الباب بهدوء ، واستمعا إلى صوت قدميه فوق الدرجات ، ثم قالت :

— أرجوك أن لا تذهب يا كارل ، فأنت لا تعرف كم هو خطير ؟

وأمسك يدها وقرّبها من وجهه قائلاً :

— يجب علي ذلك ، فأنا أودّ سماع ما سيقول ، إنه لن يستطيع إيذائي .. ولماذا يفعل ذلك ؟

— لأنك أخبرت الشرطة وهو يعرف هذا ، إنه يكرهك .

— ذلك محتمل ، لكنه لن يستفيد أبداً من قتلي .

— أفرض أنه لا يريد قتلك ، بل اجبارك على أخذ بعض المخدرات حتى يستطيع السيطرة عليك مثلما فعل مع تيم ...

— عليه ان يجعلني أتناولها اولاً .

وأجلسها على الأريكة ثم قال :

— اسمعي ، انه ينتظر الآن في السيارة ، ولا يظن أبداً بأنني اتصل هاتفياً مع الشرطة ، إنه يريد أن يثق بي ، لماذا تظنين أنه جاء إليّ ؟ إنه يريد التحدث اليّ ، ألا ترين ، إن عليّ أن أثق به . أرجوك أن لا تحاولي منعي .

قالت : — وما المفروض أن أفعل اثناء غيابك ؟ اجلس وأتساءل إذا كنت ما تزال حياً ؟

— سأظل حياً !

— ولكن أنى لي أن أعلم ؟

ومدّت يديها اليه وتابعت كإمرأة :

— لقد التقيت بك منذ زمن قصير ، ولا أريد ان أفقدك بهذه السرعة .

فأحنى رأسه مقبلاً يدها المغطاة بالقفاز الأبيض وقال : — طفلة مدللة .

ونهضت على غير توقع لتقول :

— لن تذهب ، اسمع ، سأفعل كل ما تريده مني .

لم يفهم ما الذي عنته ،ثم لم تترك له مجالاً للتفكير حين أخذت يديه وضغطت بهما صدرها ، فاقتربت منه ليحس بأنفاسها الدافئة على شفتيه ، ثم تابعت تقول :

— لن أمانع ان أعطيك نفسي كلها .. أن أمنحك جسدي .. لكنني لا أحتمل ان أفقدك .

وتراجع فجأة شاعراً بالعطف والشفقة نحوها ، وقال :

– أرجوك ان لا تقلقي ، ولكن يجب أن أذهب .

وخيّل إليه لحظة انها ستبكي بغزارة وتتعلق بـــه ، ولكنه رأى هدوءاً عجيباً يغزو عينيها حين وقفت تنظر إليه بحزن ، لا برجاء ، ثم قالت :

– حسناً فهمت ، إذهب سريعاً إذن .

استدار وفتح الباب ، فقالت له :

– حاول الإتصال بي هاتفيا ، سأكون في البيت .

– اتفقنا .

وخرج وأغلق الباب ، واستمر هطول المطر بغزارة ؛ أما هو فقد رفع ياقته وأسرع إلى شارع كورزن ، وأحسّ ان التفكير بما حدث منذ لحظات يجعل نيومن غير ذي أهمية ؛ فيداه مـــا زالتا تشعران باستدارة صدرها الشهي تحت الصوف الناعم ، وسمع صوته يرتفع قائلاً : « عجوز أحمق » .

فإلتفت اليه أحد العابرين وحدق فيـه بذهول ، ثم رأى ضوء سيارة نيومن الخلفي وهو يجتاز الشارع . ودار محركها بهدوء ، عندما فتح الباب الأمـــامي ودخل

واندفع نيومن بسيارته الى الأمام دون الالتفات اليه ، ولم يقل أحدهما كلمة واحدة حتى وصلا إلى منطقة « نايتسبردج » ، وهنا قال نيومن بكلمات هادئة :

– كنت واثقاً من أنك ستأتي .

فأجاب تسفايغ وهو يلقي بنظراته على الأرض المغسولة بماء المطر :

– هل أردت مجيئي ؟

– بالطبع

تطلع الأستاذ إلى تلميذه القديم ، علّه يرى تعبيراً جديداً على وجهه ، ولكنه اصطدم بوجه خالٍ من التعبيرات ، لذا قال :

– هي تظن بأنني أقوم بمخاطرة جسيمة

وأجاب نيومن بالألمانية دون أن يشيح بعينيه عن الطريـــق :

– لا تتعدى نصف مخاطرتي .

حفزت هذه الكلمـــات في نفس البروفسور لسبب لا يدريــــه فحاول تحليلهـــا والتفكير فيها : أهي المعاني التي حملتها الكلمات الصلدة ؟ أم هـــي اللغة الألمانية التي صاغ كلمات فيها ؟ فسأله :

– أنت ؟ هل أنت تقوم بمخاطرة ؟

طال صمت نيومن حتى أن البروفسور لم يهتم لجوابه ، ولكنه قـال بعد فترة قصيرة :

– لو أخبرتك بصراحة عما أنا فيه لكنت قد خنت عهداً أخذته على نفسي منذ خمس وعشرين سنة .

واندفع في سرعته حتى تجاوز سيارة كبيرة ليصل إلى شارع كرومويـــل الواسع ؛ ونظر تسفايغ من خلال النافذة المفتوحة إلى أنوار الكهرباء التي فرشت الأرض المبتلة ، فأحس بقطرات من الماء تمس وجهه وتنعشه وتغريه في أن يطيل التفكير في كلمات نيومن الأخيرة ، فقد دهش حين استعمل جوستاف اللغـــة الألمانية في حديثه ، مع أنهما تحدثا بالإنكليزية في مقابلتهما الأولى في ذلك الفندق الريفي ، وخطر بباله أن الحديث بالألمانية أمر غريب عنـــه ، مع أن الحديث بالإنكليزية أمر مألوف لديه ، فكلاهما يلفظها بلا لكنة ، وهذا دليل جديـــد يبرهن على أنها تغيرا . وانتفض ، فقد بدأ ينظر الى نيومن كشخص جديد يختلف عن تلميذه الخجول في هايدلبرغ ، وهذه حقيقة كان عليه أن يفهمها : هل تعمد نيومن ان يتحدث بالألمانيـة ؟ هل تعمد أن يجرّه إلى الذكريات القديمة ؟ وهنـــا أحس البروفسور بأنهما يسيران في منطقة « تشيزك » فسأل بسرعة :

– أين ستذهب بنا ؟

– إلى كوخ ريفي أعرفه .

– أخاف ان يكون مراقباً الآن ، هل هو من ممتلكات سير تيموتي ؟

التفت اليه التفاتة خاطفة وقال وهو يقود السيارة :

– لماذا ؟

– لأن السيد جاردنر يعرف موقع الكوخ ، وقد يخبر الشرطة .

وخفف من سرعة السيارة لحظة ، فظن تسفايغ أنهما سيذهبان الى مكان آخر ، ولكن السيارة توقفت أمام اشارة المرور الحمراء ليسأل نيومن بهدوء :

– هل أنت واثق من هذا ؟

– إنني واثق من أنه يعرف الكوخ ، ولسوء الحظ أنني لم أر جاردنر طيلة اليوم ، ولهذا لا أعرف هل اخبر الشرطة أم لا ؟

تغير اللون الأحمر إلى الأخضر فإندفعت السيارة مرة ثانية حين قال نيومن :

– لو أرادوا القبض عليّ لمنعت من مغادرة انكلترا .

– إذن اخبرني ما الذي ستفعله إذا وجدت الشرطة في انتظارك في الكوخ.

وبلا إهتمام أجاب :

– سوف يسببون لي إزعاجاً .

– لماذا ؟

إبتسم نيومن حينما قال :

– ذلك ما سأبينه لك عما قريب .

وخيّم صمت ، والتفت تسفايغ إلى شرطي مارّ وإلى مجموعات من الناس تسير على الأرصفة ، وأحس بغرابة ، فلطالما ردد خلال الأيام السابقة سؤاله الأبدي : « ايمكن لنيومن أن يكون مجرماً ؟ » .

والان يجلس بالقرب منه ، ويذهب معه إلى مكان لا يعرفه بلا سؤال ، وفكر : هل يستطيع أن يحتل مكان الأب المنتحر ويعامله كابن له ؟ وتنقلت أفكاره الى الماضي ، إلى الأربعين سنة الماضية، الى مساء ممطر في مقهى «برليني» وعاوده الاحساس بقضاء الساعات مع نيومن دون التفكير فيها ، نظر اليه مفكراً : هل يشعر بمثل ما أشعر به الآن ؟ .

توقفت السيارة بالقرب من حانة خاوية ، فطفرت الدهشة على وجه البروفسور حين سأله جوستاف :

– هل ترغب بقليل من الجعة ؟

– بكل تأكيد .

اتخذ تسفايغ مقعداً قريباً من النار ، وشمل الحانة بنظرة سريعة ، ثم ذهب بعينيه إلى نيومن يراقبه وهو يسأل عن الجعة . كان جوستاف يظهر وكأنه في مقتبل الشباب ، فان وجهه لم تخدّده الخطوط الزمنية ، ولم تحفر فيه الحياة علاماتها ، إنه لم يرث عن أبيه قلقه . والتقت عيناه بعيني نيومن الذي تقدم نحوه مبتسماً ، وقال :

– عندهم جعة ألمانية .

وضع الأقداح الكبيرة فوق الطاولة وهو يتابع :

– أنا أفضلها على الهولندية .

ورفع تسفايغ قدحه ، وقال :

– نخب المستقبل !

وعبّ بنهم ، ودهش تسفايغ للإبتسامة الثابتة على وجهه فقال له :

– إنك تبدو فرحاً .

وكاد أن يقول : « وتلوح عليك السعادة » .

مدّ نيومن قدميه بإتجاه النار ، وقال وهو يضم كتفيه :

– إنني أقنع بشرب الجعة اللذيذة .

قال تسفايغ بأدب : – ما زلت أذكر بأنك كنت من عشاقها .

رفع نيومن قدحه وهو يقول : – توقفت عن شربها بعد موت جورجي .

لم يتوقع البروفسور سماع هذا الاسم الذي هزه لسبب ما ، قال :

– لماذا ؟

– لقد تعودنا شربها معاً ، وأنت تعلم كم أحببته .

لم يشبع صوته بشفقة أو ندم بل قالها كحقيقة معروفة لديهما .

واستقر صمت جديد في المكان لم يستطع البروفسور أن يطرده بالحديث ، وكان ينتظر أن يبدأ نيومن بسرد قصته أو حديثه ، ولما شربا بقية الجعة بدا الصمت طبيعياً ، وهنا طرده نيومن بقوله :

– أريد أن تشرب مرة ثانية ؟

– نعم ، وسأحضر الجعة أنا .

ولما عاد البروفسور بالقدحين وجلس ، قال له نيومن :

– أرجو أن لا أجد الشرطة في انتظاري عندما نذهب إلى الكوخ ، فإن ما أريد أخبارك به يحتاج الى وقت طويل .

– إذن ، لماذا لا نبدأ هنا ؟

– لا ، فسوف تزدحم الحانة خلال ساعة .

وما أن تناول تسفايغ قدحه حتى سأل :

– ولماذا قررت أن تتحدث إليّ ؟

– لعدة أسباب .

ونظر نيومن إلى قدحه وقد انتثرت الرغوة بالقرب من حافته ، ثم تابع :

– أولها مخطوطتك عن هيدجر ، فقد قرأت بعضاً منها ، ووجدت فيها تجديداً غريباً ذكرني ببداية أعمالك الكتابية ...

– شكراً ...

فابتسم نيومن إبتسامته التي يذكرها تسفايغ منذ أيام الدراسة ، إبتسامة ذات أثر ودي وسخرية ذاتية ، وقال :

– أنا أعتقد بأننا نودّ أن نتحدث لأن لدى كل منا الكثير مما يريد ان يقوله للآخر ...

وقطّب وجهه وتردد ثم تابع :

– أنت رجل شريف .

وأرعبه هذا الإطراء الغريب وجعله يفكر أن يجيب وأرجو ذلك ، ولكنه كبتها واستعاض عنها بهذا السؤال :

– لماذا توقفت هنا في هذه الحانة ؟

كان يعرف الإجابة مقدماً ، ولكنه أراد سماعها من نيومن الذي قال :

– لأنني أريد أن أخبرك بشيء دون خوف أو مقاطعة .

وفُتح الباب فدخل ثلاثة يتحدثون بصوت مرتفع ، فتجهم وجه نيومن

الذي مال نحو البروفسور ليقول :

– هذا هو ، أما قلت لك سابقاً بأنني أجازف لأحدثك ؟

حدق في سطح الطاولة الصغيرة وهو يهمس بالكلمات مما اضطر تسفايغ لأن يقترب منه حتى يسمع ما يقول :

– لم أعن مجازفة جسدية ، وأنا لم أخبر أحداً عن الأشياء التي سأقصها عليك.

فسأل تسفايغ : – حتى سير تيموثي .

تطلع نيومن الى السقف وابتسم مدركاً ثم قال :

– إنه يعرف القليل ، هل تذكر ذلك المساء الذي جئت فيه لزيارتك مع جورجي ؟ لقد أخبرك بأهم آرائه ، هل ما زلت تذكر فكرته ؟

حك تسفايغ جلدة رأسه فقال نيومن :

– إن كل إنسان عاش قد أضاع حياته هدراً ، هل تذكر ذلك ؟

– نعم .

وتابع نيومن غير مبالٍ :

– لقد طالما سمعته يرددها ولم أهتم بها ، أما بعد موته ، وحين اعطتني أمه أوراقه وكتاباته ، وجلست أقرأ مقالاً له ، تغيرت نظرتي وعرفت لأول مرة ما الذي عناه ... لقد قصد أن الحياة الإنسانية لو حوت بعضاً من الأخطاء الأصلية لأصبح من يدركها شاذاً ووحيداً في عالمه ، وغير قادر على مخاطبة أحد. أما الآخرون فلن يعملوا الآن يشوشوا أفكاره ، وبهذا اقتنعت وبدأت العمل بمفردي .

– لكن أباك ...

– نعم الى حد ما أستطيع التحدث إليه ، ولكن عن الأشياء السطحية التافهة فقط .

توقف لينظر إليه قليلاً ثم قال :

– ولقد طرحتك أنت من حياتي ، هل تعرف السبب ؟ لم يكن ذلك بمجرد انعزالك عنا في بلاد بعيدة ، أو اعتناقك للمسيحية ، لا ، بل صممت على قذف

الأشياء التي لقنتني إياها ، وعلى نقضها نقضاً قاسياً .

وصمت ليخرج علبة صغيرة من جيبه وقدمها الى تسفايغ الذي تناول منها سيجاراً وأخذ يدخنه مفكراً في معنى هذه الحركة حين سمعه يقول :

– وحتى الآن فأنا لست واثقاً من فهمك لما سأقص عليك .

– إذن لماذا تخبرني الآن ؟

– لأني – قد ترى هذا السبب تافهاً – عاطفي .

فقال تسفايغ : – أصدقك .

اقترب رجلان وامرأة من النار ، فمدت المرأة يديها باتجاهها ثم خاطبت تسفايغ بأدب :

– من فضلك . . .

ابتسم وأبعد مقعده ، وأفرغ نيومن قدحه في معدته ووقف ليقول :

– من الأفضل أن نذهب الآن .

وما أن صعدا السيارة حتى تابع حديثه وكأنه لم يقاطع من قبل :

– وهكذا ، فالفرصة أمامي لأحدثك قبل أن أترك إنكلترا ، ولو لم تقاطع . . .

وزاد من سرعة السيارة ، وسأله على غير انتظار :

– هل أنت جائع ؟

– لا ، لست الآن جائعاً .

– لقد اشتريت بعض الطعام ، وقد نأكل في الكوخ الريفي .

وتخيل تسفايغ داتا المنتظرة يهلع بالقرب من الهاتف ، فتساءل فيما لو يقترح الاتصال بها ، وقبل أن يقرر هذا ، خفف نيومن السرعة ودار الى الشمال متخذاً طريقاً صغيراً ، ثم قال :

– لقد وصلنا تقريباً .

اتخذت السيارة طريقاً جانبياً ، ولم ينطق أحدهما بكلمة واحدة ، وسلطت أضواء السيارة على الأشجار المغروسة على جانبي الطريق ، فبان المكان غنياً ،

مما دفع تسفايغ ليفكر في أن يقترح :

– لماذا لا نرجع وننزل في فندق صغير ؟

ثم تحقق من عدم فائدة اقتراحه ، لأن الشرطة ستجد نيومن آخر الأمر .

ومضت خمس دقائق وكان الظلام لا يكشف إلا عن ظلام ، ثم قال نيومن :

– هذه هي المزرعة .

– هل زرتها من قبل ؟

– مرة واحدة بعد وصولنا .

– إذن لماذا اخترنا البيت الريفي في باري سانت أدموند ؟

– ستعرف السبب حينما تصل .

وانحرف بالسيارة عن الطريق العام ، وعلا عواء كلب في مزرعة مجاورة ، أعقبه وجه لامرأة أطلت من نافذة مضيئة ، كما كشفت أضواء السيارة عن طريق صغيرة موحلة استقرت فيها مياه الأمطار على شكل بقع كبيرة . وقال نيومن بعد مدة بأردة :

– علينا أن نفتح البوابة الصغيرة ، هل تستطيع القيام بهذا العمل ؟

تعثر تسفايغ في الوحل وبحث عن السلسلة الصدئة التي أغلقت البوابة بواسطتها ، حتى وجدها وفكها ، فعبقت رائحة القاذورات التي خلفتها الخنازير في جو المكان ، فاندفع تسفايغ هرباً من هذه الرائحة الى السيارة ، وهناك نظر بأسف الى بقع الوحل التي لطخت سرواله ودمدم بغضب . وتلوت السيارة على طريق متعرجة ذات حجارة نائتة ثم كشف ضوء السيارة عن الكوخ الريفي الأبيض ، فقال نيومن بهدوء :

– سنرى الآن !!

أوقف السيارة ليأخذ مفتاحاً ويفتح الباب ، وتريث تسفايغ فلم يترك السيارة إلا حين انشق الباب ، وهبت ريح جعلت أوراق الشجر تهتز وترسل قطراتها المائية عليه ، فهرول الى الداخل ليجد نفسه في ظلام أسود تنبعث منه رطوبة قاتلة ، وجاء نيومن ليشعل عوداً من الثقاب ، وليعبث بمفتاح الغاز ،

وما أن ملأ الضوء النحيل الغرفة حتى وجد تسفايغ أنه في المطبخ ، وسمع حركة آتية من إحدى الزوايا ، فقال نيومن :

– هذا فأر .

فأجاب تسفايغ ضاحكاً :

– ولكن دون صحبة رجال الشرطة .

– هذا ما لم نعرفه حتى الآن .

ودخل غرفـــة مجاورة فأشعل مصباحاً غازياً آخر ، ورأى كومـــة من الأخشاب والحطب في المدفأة ، فاتجـــه الى النافذة وأزاح الستائر المهلهلة التي تمزقت في يديه ، لينظر الى الخارج ، ثم قال :

– هل عرفت لماذا اخترنا البيت الريفي الآخر ؟

فتح صفيحة « البارافين » ، وصبّ منها على الحطب ، ومضت دقـائق قصيرة كانت فيها جذوع الأشجار تطقطق وتنير الغرفة بجو مفعم بالحيويـــة ، ثم ذهب نيومن الى السيارة ليغلقها ويطفىء أنوارها ، وسمع تسفايغ حركة مباغتة وراءه فالتفت خائفاً ليرى عيني فأر جراوين اختفى بخفـــة ، فانطلق لسانه بشتائم عديدة ، وقال لنيومن عندما عاد :

– إنني أكثر منك اضطراباً .

هزّ نيومن كتفيه وهو يقول :

– هذا مكان للحديث الهادىء ، أتود مشروباً آخر ؟ عندي بعض الويسكي أو « الجن » .

فأجاب تسفايغ : – القليل فقط .

لم يشعر برغبة في الشراب لإحساسه بالتعب الذي لاحظه نيومن فسأل :

– هل أنت متعب ؟

– جسدياً فقط ، فالأيام القليلة الماضية ... أرهقتني .

– فهمت !

وابتسم ابتسامة لم تحمل سخرية في داخلها ، ثم أخـذ من جيبه زجاجـــة

وفتحها قائلاً :

– لعلّ من الأفضل أن تجرب واحدة من هذا ؟

– ما هو ؟

– إختراع إكتشفته أنا !

وضع نيومن حبة صغيرة خضراء تشبه حبة « الساكارين » في راحة يـده ثم ألقاه في فمه وقال :

– جرّب واحدة فقط .

أخذ تسفايغ الحبة وقذفها في فمه ؛ كان طعمها حاداً، لذا إبتلعها بسرعـة ؛ وأحضر نيومن قدحين ليصب في كل منها مقدار بوصة من المشروب ، وجـــاء تسفايغ ليلقي بجرعة كبيرة في حلقه ، أشعلت الحرارة في معدته .

قال نيومن وهو يقترب من النار في مقعده :

– لقد تأثرت كثيراً بالجملة الافتتاحية في مخطوطتك عن هيدجر لأنهـا تنفذ إلى صميم المعضلة ، فتجربة الإنسان عن العالم إن هي في الأصل ، الاّ تجربـــة المحدود ...

– وأنا وجدت شيئاً من هذا المعنى في مقالك عن الإنتحار .

– آه نعم ... فقد رأيت الجملة في منزلك ، ولكن الفكرة لم تكن لي ، فقد أخذتها من جورجي ، ويمكنني القول بأنها كانت نقطة إنطلاقي .

فسأل تسفايغ بإبتسامة : – أو ليست فكرتك في أن تصبح سيد المجرمين؟

– أوه ، لقد هجرت هذه الفكرة بعد فترة قصيرة .

– لماذا ؟

– لقد شغلتني عنها أشياء كثيرة أكثر أهمية ... ولكن دعنا نناقش معضلة المحدود ... ما هي ؟

تفجرت القهقهة في وجه تسفايغ لتشكل ضحكة كبيرة وهو يقول :

– إن لهذه الحبة تأثيراً ملحوظاً .

– كيف تشعر ؟

— هذا غريب ، فأنا أتمتع بصفاء ذهني حاد .

وأصابته دهشة وهو يلفظ كلماته السابقة ، فالغرفة كئيبة ، جدرانها مشققة ، ومغطاة ببقع من الرطوبة ، وسقفها متآكل منخور ، ومع هذا فلم ينفر منها ، بل على العكس فقد أحب كآبتها وجوها المعتم ، وشعر بدماغه وكأنه مولد كهربائي يعمل بقوة ضوء كشاف ، وشعر أيضاً بأن جسده أكثر واقعية ويمكنه أن يسيطر عليه ، كان امتداداً لذاته . وقال لنيومن :

— ما هو نوعها ؟ ما هي المواد التي أدخلتها في تركيبها ؟

— إذا أخبرتك فقد لا يعني ذلك شيئاً عندك ، إذ قام والدي بمعظم العمل فيها ، ولسوء الحظ فقد مات قبل أن يكتمل اكتشافه .

— هل تحتوي على مخدر ؟

— هي نوع من المخدر يمنحك الشعور بالدفء الداخلي ، ويعطل عمل الحواس كلها ، فتشعر وكأنك ترتدي معطفاً صفيقاً يحتفظ بالدفء الداخلي ، ويحدد حرية تحركك أيضاً ، أما الحبة التي إبتلعتها منذ قليل فلا تثيرك أو تصيبك بالهيجان، إنها تزيل عقبات معينة وتعطي العنان لفعالياتك لأن تعمل دون هدر أو كسر .

— ماذا تسميها ؟

— نيوروميسين « Neuromysin » ، إنها نوع من نيوريكين .

— وما هو « النيوريكين » ؟

— سأشرح هذا بعد قليل، أولاً دعني أوضح فكرتي الأساسية، هل لاحظت كم من الأشياء المهمة ترتبط بالمحدود ... ؟

— أعتقد ... ذلك .

— هل لاحظت منذ دقائق معدودة كيف قبلت تعبك كشيء محدود وكيف رغبت في صراعه ؟ وهذه هي الفكرة التي جذبني جورجي للتفكير فيها . وكما تعلم فقد كان جورجي أهدأ مني ولم يفقد أعصابه قط ، ومع ذلك فثورته عارمة لأنه دفعني إلى التفكير في هذه المعضلة ، ولو قبلنا جدلاً بأن الحياة الإنسانية

تافهة الخطوات ، فيجب علينا أن نجد لماذا ؟ ولطالما ردد قول أحد الأنبياء : « آه يا الهي ، انتزع روحي لأنني لست خيراً من آبائي » وكان يعلق على هذا بقوله « هذا الرجل ذو احساس عميق صادق ، لقد خبر الحياة وعلم بأنها يجب أن لا تكون ساكنة أو مجدبة » . وهناك كلمات أخرى أحبها ، وكان يرددها أيضاً : « ليست الحياة إلا استمداداً لشيء لم يحدث من قبل » ، ويتبع ذلك بقوله «وذلك ما عناه النبي » ، وأنا أؤمن بأن للإنسان قوة عقلية أصيلة لم يستخدمها بعد ، لأنه لا يكاد يشعر بوجودها ...

— تعني تبادل الشعور أو شيئاً مثل هذا ؟

— ذلك ما عناه جورجي ، اما أنا فما زلت أعيش دون ان أصطدم بهذه المشكلة ، دعني أحدثك كيف بدأت اولاً .. أنت تذكر تعدد الاضرابات من قبل عمال الكهرباء والغاز في هايدلبرغ . وتذكر أيضاً الليالي الكثيرة التي بقينا فيها دون تيار كهربائي ؛ وذات مساء وضع والدي ابريق الماء لتحضير فنجان قهوة ، ولكن الغاز الضعيف لم يساعد في غليان الماء بسرعة ، وكان والدي في الوقت نفسه يكتب مقالاً إلى مجلة علم النفس ، ولم يستطع هو أيضاً كتابة المقال بموضوعية لأنني سمعته يقول فجأة : « إن عقلي مثل هذا الماء في الإبريق ، لن يغلي » . ففكرت أنا « ذلك هو الخطأ في الوعي الانساني ، فالضغط الضئيل لن يرتفع إلى درجة الغليان ، ونحن نعيش على نصف ضغط ، ولم تنضج نفسانياً لأن ضغط الوعي عندنا منخفض جداً ؛ ولو كان وعيه أكثر تألقاً لأنهى المقال بقدر جريان قلمه على الورق » .

أخذ نيومن يقذف بالكلمات السريعة وهو يبتسم ، ولكنه وقف ليسير في الغرفة مبتعداً عن وهج النار ، ثم تابع :

— آه ، لقد تمنيت وجود جورجي آنذاك كي أحدثه عن اكتشافي ، فقد عثرت على حل لمشكلته ، أو على الأقل ، على حل في الاتجاه الصحيح ، فلو أن الحياة الإنسانية مجدبة لعرفنا السبب ، وهو أن الإنسان يعيش حياته على نصف ضغط . هناك لحظات معينة يعظم فيها الوعي في الهيجان الجنسي مثلاً ، ولنتقط

الفعاليات الحقيقية للعقل وللجسم معاً ، ولكنه غالباً ما يكون كالمولد الكهربائي الذي انقلبت حركته القوية إلى بطء أبدي لإمداده بتيار كهربائي شحيح ، والمشكلة التي بدأت أفكر فيها هي « ما هو ينبوع التيار الكهربائي الذي يقودنا ؟ » . . .

وتوقف وهو يستند إلى لوح خشبي دُق في زاوية الحجرة ، ونظر إلى تسفاينغ الذي احتار وتساءل « هل أجيب عليه ؟ هل أتكلم بشيء » ، وأخيراً ردد ببطء :

– الينبوع ؟ الحيوية . . . الإرادة الخلاّقة على ما أعتقد . . .

وفجأة قال نيومن : – هذا صحيح ولكن الإرادة تحتاج إلى هدف . وذلك يبدو كالحلقة المفرغة ، أو هكذا تراءت لي عندما فكرت في المشكلة ، أتذكر حادثة السيارة التي سرقتها لأقذفها إلى كتف الشيطان هناك ؟ لقد أمدتني بدليل ، وأعترف هنا بأنني كنت في حالة تشويش فكري حين أقدمت على هذا العمل ، بل كنت مضطرباً حانقاً ، ولكنني حانق على لاشيء معين ، وإنما على الحياة والقدر فقط . وفكرت بأنني يجب أن أبرهن على أن القدر يهتم بي ، فلو خلقت لهدف ما في هذا العالم ، هل يتدخل الله إذا ما أردت قتل نفسي ؟ بدت الفكرة حمقاء مع أنها كانت واضحة في عقلي ، لذا سرقت السيارة وقدتها إلى كتف الشيطان ثم ألهبت سرعتها بالقرب من حافة الهاوية ، ولم أعِ بعد ذلك شيئاً إلاّ وجودي ممدداً على الأرض ومصاباً ببعض الرضوض ، والسيارة الملتهبة على إنخفاض خمسمائة ياردة مني ، لقد قذفت بنفسي من السيارة لاشعورياً على بعد قدمين من الهاوية فقط ، لم أرغب في ذلك بل إن شيئاً في أعماقي ، شيئاً ما خارجاً عن الوعي ألقى بي بعيداً عن السيارة ، وصعب عليّ تفسير أحاسيسي وأنا هناك أراقب النيران في الوادي المنخفض ، لكنه انتصار رائع ، وماتت شكوكي بعد أن تأكدت من أن المولد الكهربائي عندي يعمل بكل قواه ، كما خيل لي بأنني وعيت كل شيء ، ولا زلت أذكر كلماتي وأنا هناك « أيها المعتوه ، أيها المعتوه » ، ولم يكن ذلك تأنيباً لسرقتي وتحطيمي سيارة

فخمة ، بل رددت : « أيها المعتوه ، لماذا استولى عليك الشك ؟ » .

توقف لحظة وقد إرتسمت الإثارة في عينيه ، وقال :

– أنا غير فخور بهذه الحادثة فهي حماقة ، لكنها ذات قيمة تجريبية ، لإيماني بأن ينبوع القوة خارج عن نطاق الإنسانية ، وعلينا الترقّب كي يمنحنا القدر لحظة الوعي ، وقد أفهمتني هذه التجربة أننا نملك الشيء في ذواتنا ، وعلينا إدارة المفتاح الذي أخفي بعناية . . .

فتح تسفاينغ يديه ثم أغلقها كأنما قبض على شيء ما في الهواء ، نهض واقفاً ليقول لنيومن :

– لماذا لم تتحدث معي عن هذه الأشياء من قبل ؟

وخاف أن يأتي جوابه كصفعة « حاولت ولكنك لم تصغ » ، وفرح عندما سمع نيومن يقول :

– اعتبرت القضية تافهة ، أو على الأقل شعرت بالخزي لأنني عندما أخبرت والدي عن السيارة ، بدأ في تعنيفي ، وبدأت أنا أفكر : « لم لا ؟ » ، فقد قمت بتجربة جديدة ، قد لا تفيد العالم كتجارب « غاليلو » أو « نيوتن » ولكنها جعلتني على يقين بأن هناك مستوى لا شعورياً في نفسي ، وله غاية أيضاً ، وهذه الغاية ذات علة تقف عائقاً دون موتي ، وفي ذلك الوقت بالذات تأكدت رغماً عن تزعزعي الداخلي من مقدرتي الفائقة على السيطرة على الناس بسهولة تامة ، وولدت عندي الرغبة في التنويم المغناطيسي الذي علمني شيئاً آخر عظيم الأهمية « إن معظم الناس لا يحبون شخصياتهم » ، هل تتذكر « غردا ليبكنتس » ؟ لا ! تلك الفتاة النشطة التي ترأست جمعية الشباب الكاثوليكي وبعض الفرق الدينية الأخرى ؟ لقد استحوذت عليّ شخصيتها القوية الواثقة جداً ، كانت واثقة من نفسها ومن عقيدتها ، ومن شخصيتها المغناطيسية التي تجذب الناس للاستماع إليها ، ولهذا قررت أن أتقرب إليها وأعرفها عن قرب محاولاً الكشف عن سرها ، ولم يمر اسبوع على معرفتي بها حتى أقنعتها بترك فرقها الدينية والانضمام إلى الحزب الشيوعي الألماني بعد أن إهتز إيمانها بعقيدتها الدينية . واكتشفت أن قوتها ليست

الا قناعاً محكماً تخفي خلفه عدم ثقتها ، واعترفت لي وهي تحت تأثير التنويم المغناطيسي بكل مخاوفها وشكوكها ، وأنت تعرف طبيعة النفس البشرية المتقلبة ، فقد كتبت عنها في كل كتبك ، ومع ذلك فلم تتضح لي هذه الحقيقة إلا بعد تجربتي مع « غردا » ، إذ عرفت أن الإنسان يبني شخصيته كما يبني بيته الذي يحميه من عيون الناس ، ومن العالم ، وما أن يبني الإنسان بيتاً حتى يجبر على العيش فيه ويصبح سجينه ، وبعض الناس يسرعون في الاختفاء ضمن جدران أربعة ، ولهذا تجدهم يبنون بيوتهم على عجل ... هل تفهم ما الذي أعنيه ؟ لقد راقبت كثيراً من الرجال الذين سجنوا أنفسهم في بيوتهم ، وهم على ثقة من المستقبل ، ومن هناء العيش ، ومع هذا فإن معظمهم يكرهون بيوتهم ، أعني شخصياتهم التي تقوقعوا داخلها ، وهذا ما يذكرني بصديق أبي جرهارت سيفرت ...:

فقال تسفايغ : – آه .. ماذا عنه ؟

– لقد جمع ثروته الكبيرة في أمريكا ، كما اشترى خطاً حديدياً ، وصحيفة يومية ، وتولد عنده بغضه لنفسه حتى أنه قضى حياته في مرض وهمي ، وأذكر أنه دفع لأبي كثمن علاج طبي أكثر من ربع مليون مارك ...

صمت قليلاً ليراقب تسفايغ الذي وقف فجأة كي يسير في الغرفة وهو يقول:

– أرجو المعذرة .. استمر .

– كيف تشعر ؟

– شعوراً غريباً جداً لم أعرفه من قبل .

حرّك تسفايغ يديه حركة لا تهدف الى معنى وتابع قائلاً :

– أنا أشعر بوضوح عجيب فكل شيء تقوله يدفعني الى ذكر مائة تعليق ، أشعر أنني أستطيع تأليف كتاب رائع في أربع وعشرين ساعة فقط !

فقال نيومن : – إذن خذ قليلاً من الويسكي .

– لماذا ؟

– كي تقتل التأثير .

– لا أريد أن أقتله ، فحين كنت تحدثني كنت أصغي باهتمام . وكنت أفكر في قضية تقع في القسم الأخير من مخطوطتي عن هيدجر . قضية شغلتني أكثر من سنتين ووجدت الحل دون توقع ، كان سهلاً سهولة قفزة عدّاء من فوق حاجز خشبي ، أعذرني لمقاطعتي لك ، ولكن الأمر أرعبني ، هل تعرف ماذا صنعت ؟ لقد قمت بتركيب مخدر يمكنه تغيير مجرى تاريخ العالم ...

رفع نيومن يده مقاطعاً بلطف :

– اسمح لي أن أقول بأنك على خطأ ، لأن النيوروميسين هو الذي يوجد هذا الأثر فيك بسبب عقلك المنظم ، ومشكلتك هي تعودك السكن في جسدك ، أنت تفكر وجسدك يرغب بك أن تفعل ذلك ، وهذا يشبه محاولة قيادة سيارة وضابطة السيارة مشدودة . إن النيوروميسين يطلق عنان الضابطة ، ولقد صرفت خمسين سنة من عمرك في تنظيم عقلك ومشاعرك ، والآن تظهر عليك علامات الإجهاد والاهتياج . وتصور لو أن إنساناً ذا عقل غير منظم تناول حبة واحدة ، فينقلب عقله الى حديقة حيوانات فتحت أبواب أقفاصها الحديدية واختلطت الحيوانات في معركة ، وقد يحرق الاهتياج محرّك عقله .

صبّ نصف قدح من الويسكي وأعطاه لتسفايغ دون أن يقول كلمة واحدة ، وتردد تسفايغ قليلاً ثم أخذه وقذفه في حلقه دفعة واحدة ، مما أحدث التأثير بسرعة هائلة ، فكأنه ماء ألقي على نار ليخمدها ، وأحسّ لفترة وجيزة بأنه يختنق ويفقد حيويته ، فاضطر للجلوس على ذراع الأريكة ، ثم مرت هذه الحالة بعد دقائق قصيرة ، وبقي بريق التألق والإحساس بالسيطرة ، مع أنه شعر بأن جزءاً من عقله قد أصابه الشلل . وعاد نيومن إلى الحديث أكثر هدوءاً وكأنه يهدّيء من روع تسفايغ فقال :

– هل تفهم وجهة نظري ؟ إن الرجل العادي لا يملك نظاماً داخلياً في عقله ، لقد قضيت عشرين سنة كي أتعلم التفكير فقط ، وأنت أيضاً تدربت على التفكير المنظم ، وهذا التدريب تضمن إنشاء علاقة دقيقة بين وجدانك وتفكيرك العلمي ، ومع هذا فكثيراً ما تضل الطريق وتكتشف فقدانك لرؤيتك النفسية

في القضية ، فتعجز عن التعبير عنها بالكلمات . تصوّر ماذا سيحدث لو أن إنساناً عادياً تعاطى كبسولات من النورروميين ؟ خذ مثلاً عامل منجم وحاول تعليمه الرياضيات العالية : أغلب الظن أنك سوف تسبب له انهياراً عصبياً ، مثلك في ذلك مثل من يأتي بفيل ضخم ويحاول تعليمه اصلاح الساعات ! أليست الغاية من معظم أنظمتنا تعطيل الطاقات بينما يفتح النيورروميين أبوابها على مصراعيه ؟ إنه قد يقود الإنسان إلى الخبل إذ بإستطاعته القضاء على إنسان مصاب بإختلال الأعصاب ، ألا ترى السبب ؟ خذ نفسك كمثال ، إنك لا تشعر بالجوع الآن لأنك تحرق طاقتك العقلية المحفوظة فقط ، ولو كنت أقل ذكاءً لأصبت بكلب الجوع لأنك سوف تحرق طاقتك الجسدية فقط ، والإنسان مجموعة حلقات متصلة مثل الدماغ الالكتروني ، وفي حالة الرجل المصاب بإختلال الأعصاب فإن جميع هذه الحلقات قد ارتبطت ببعضها خطأً ، ولهذا فهو يهدر طاقته بإستمرار . هل بدأت تدرك ما الذي أعنيه ؟

أجاب تسفايغ : — إذن فقد جازفت حين أعطيتني الحبة ؟

— لا ، فبعد قراءتي مخطوطتك عن هيدجر علمت بأنني لم أجازف .

— أشكرك .

خبت النار فألقى تسفايغ عليها جذعاً أحيا لهيبها ، ولاحظ أن كل شرارة قد إنفصلت عن رفيقتها فكأنما يستطيع أن يحصيها ، أما عقله فلم يشعر أبداً بمثل هذا البرود والصفاء ، فسأل نيومن :

— هل هذا ما حدث للرجال الطاعنين في السن ؟

ولم يظهر نيومن أية دهشة حينما أجاب : — لا .

— وهل انتحروا حقاً ؟

— نعم !

— لماذا ؟

— اذا بدأت أشرح قصتهم فسوف نأخذ وقتاً طويلاً ، وعلى فرض أن احداً لن يزعجنا فأمامنا الليل بطوله . . من أين تريدني ان ابدأ ؟

— كنت تحدثني عن جرهارت سيفرت ، ولكنني قطعت عليك الحديث . . .

— آه ، نعم . فكما قلت سابقاً ، لقد عانى هذا الرجل من عدة أمراض وهمية ، وفي آخر سنة من عمره كابد عناء مرض حقيقي . . كان مصاباً بسرطان في العمود الفقري .

— هل أنت . . . واثق ؟

ألقى تسفايغ سؤاله هذا كتعبير عن الاطمئنان غير شاكّ في حديث نيومن الذي أجاب :

— أوه كل الثقة . هل تذكر تلك الغرفة المجاورة لغرفة المطالعة والتي تعود والدي أن يحفظ بداخلها كتبه ومخدراته ؟ لقد جلست هناك ذات يوم أطالع كتاباً ، عندما جاء ابي بصحبة سيفرت الذي عرف منذ لحظات أن أمامه ستة اشهر للعيش ، وطلب من أبي ان يعطيه بعض المخدرات التي تقضي على حياته دون ألم ، وتوسل ، ثم وعد بإعطاء والدي نصف ثروته اذا قضى عليه دون ألم ، ولكن الأب رفض العرض

— هذه عادته .

— لقد عرض على سيفرت مخدراً يقتل الألم فقط ، قائلاً بأنه لا يمكنه اعطاؤه أي شيء يقصر حياته ولو ليوم واحد ، ثم حاول ان يقنعه بأن لا يقطع الأمل بعد ، ووجدت نفسي اذهب اليه في مساء ذلك اليوم عارضاً عليه مساعدتي وخبرتي ، فأنا في حاجة الى النقود إذ سئمت كوني عالة على ابي ، وأردت ايضاً ان ابدأ بتجربة إنجاتي بفردي ، وهكذا اخبرته بقدرتي على تخليصه من الألم لعدة شهور بواسطة التنويم المغناطيسي والمخدرات ، كما اخبرته بأنني حالما يبطل مفعول هذين العلاجين ، سأعطيه مخدراً قاتلاً يقتله دون ألم ، وطلبت ثمناً لذلك ربع مليون من الماركات .

توقف نيومن عن السرد ، واستقرت عيناه على وجه تسفايغ كأنما يسأله تعليقاً ، ولما لم يقل تسفايغ شيئاً تابع نيومن سرده :

— ولقد وافق العجوز بالطبع وبدأت العلاج حالاً ، وكما تعرف فلطالما

استهوتني المخدرات التي عرفت عن بعضها اكثر مما كان يعرف أبي ، وأضفت الى صيدليتي الخاصة كثيراً من انواعها ، فقد كان الأب قليل الإنتباه ، ولم اجد صعوبة في إعطائه المخدرات القاتلة للألم مع مساعدة التنويم المغناطيسي حيث أوحيت اليه وهو تحت التأثير بأنه سيشفى ، ولكن بعد مضي أسابيع قليلة تأكدت من قضية نسيتها ، فحين يموت سيفرت فسوف يشرحون جثته وتكون النتيجة اكتشافهم لعلاجي ، فوجدت ان عليه ان يموت منتحراً بطريقة لا تثير أي شك ، وأعتقد ان بإمكانك استنتاج بقية القصة ، فقد شرحت له الأمر ولكنه لم يدرك ما رميت اليه ، وبمساعدة التنويم المغناطيسي لم أجد اية صعوبة في إيحاء الفكرة اليه ، وكان همي الوحيد هو الحفاظ على اتفاقنا الأول: ان لا اقتله الا حين أعجز عن مداواته ، وهذا امر جدّ صعب لأنه أصيب خلال الشهر الأخير بغيبوبة تامة لم يعرف فيها مقدار آلامه ، واتضح لي عجزي عن الاستمرار في المساعدة لموته دون عذاب . كنا آنذاك في سويسرا وما معي من مخدرات كاد أن ينفد ، ولذا اقترحت عليه أن يكتب ورقة تعلن عزمه على الانتحار ثم يذهب الى مكان يبعد عشرة أميال حيث يقوم بيت راعٍ على حافة هوة بعد أن يبتلع حبة سيانيد Cyanide ويلقي بنفسه .

– ولماذا سيانيد ؟

– في حالة عدم موته بعد عملية الإلقاء من على الهوة ، واعترف لك أنها كانت أخطر مجازفة ارتكبت ، فقد يتناول السيانيد ثم يجبن عن إلقاء نفسه ، وفي هذا ما يقود الى السؤال « من أين له السموم ؟ » .. ولن يسأل أحد عن المخدرات ، ولكنه ألقى بنفسه وقتل إذ تحطمت جمجمته . ثم عرفت مؤخراً أنه ترك لي مبلغاً كبيراً يزيد على الربع مليون مارك .

صمت لينظر الى وجه تسفايغ الذي سأل بعد فترة :

– وماذا عن الآخرين ؟

– آه ، هناك أشياء مهمة أريد أن أحدثك بها ، فقد حزنت لموت سيفرت رغم حتميته ، لكن هذا أوحى إليّ باشتراكي في جريمة ، قد تكون عملية

انتحار فقط ، وأذكر أنني مرضت حين رأيت جسده المهشم .

– هل عرف والدك بهذا ؟

– أخبرته بعد ستة أشهر من الحادث .

– وبمَ أجاب ؟

– لقد أرعبه الحادث ، لكنه لم يستطع القيام بأي عمل ، فقد فات الأوان وأجبرنا كما تعلم على مغادرة ألمانيا حيث خسر مبلغاً كبيراً من ثروته . أما نقودي فقد وضعتها في بنك سويسري ، وبنقودي بنينا مختبرنا الأول قرب زوريخ ، وعملنا معاً في تركيب المخدرات التي أنتجت أخيراً النيوروميسين .. أخبرني هل كان باستطاعته أن يفعل شيئاً ؟

– أهذا السبب قتل نفسه ؟

– لا ، سأروي لك هذا أيضاً ، لقد كنا نعمل كما تعرف في تركيب حبوب الحقيقة وإهتم والدي بأثر المخدرات على الدماغ دون أي أثر آخر ، ثم اكتشف صدفة مخدراً يؤثر على الدماغ المتعلق بالعادة ، وكانت خطوة أعظم من تجارب « بافلوف » على تكييف محرك الإنعكاسات ، وكان أبي على صلة وثيقة مع « بارجر » و « جولا » اللذين عملا كما تعلم في حقل دوافع الدماغ الالكترونية التي اكتشفها أبي مستعملاً آلة كهربائية وكميات قليلة من مشتقات الأتروبين ، وبهذا تمكن من القضاء تماماً على بعض العادات البسيطة ، وكان هدفه الأول هو اكتشاف مخدر يقضي على عادة التدخين وعلى أشكال أخرى من التصرفات القسرية ، وآمن بأن اكتشافه هذا سيجلب له ثروة كافية لتجهيز مختبر كبير لأبحاث الدماغ . أما أنا فقد شغفت بالأمر لعدة أسباب مختلفة تماماً ، وأذكر أنني عندما عرفت بفكرة أبي عن المخدر الذي يقضي على العادة ذهلت ، ودفعت لأسير عشرة أميال قبل أن أتمكن من السيطرة على نفسي ، أتعرف لماذا ؟ لقد استحوذت عليّ فكرة الإنسان المحدود – لِمَ يتقد الوعي أحياناً بنار عظيمة ترمض البنا بالسورمان ؟ لقد عالجت هذا السؤال في مخطوطتك عن هيدجر وقد وصلت إلى نتيجة استخلصتها أنا : « من أجل النشوء الإنساني لا بدّ من أن يكون الوعي

البشري عقلياً ، وقد خلق الإنسان اللغة والرموز وكل معدات الحضارة الأخرى في صراعه لإنجاز وعي أعم". ويبدو لي أن هذا الرأي عن القوة المتطورة التي تحد الوعي الإنساني قد جاوزت فائدتها الآن ، وقد بدأ التعقيد المحض لذلك الجهاز الذي خلقناه يحدق بنا ، فلن نستطيع تغيير العادة الحية في الآونة الحاضرة ولا أن نحدد الوعي ، وفكرت فجأة أن اكتشاف أبي يحل مشكلتي ، لمعرفتي بأن عاداتي تقف حائلاً دوني ودون الرؤيا التي أريد انجازها . ومثالاً على ذلك قيادتي السيارة إلى كتف الشيطان ، وتذكري أنني كنت أقول لنفسي « انني رجل آخر » ولن أنسى تلك الرؤيا أبداً ، التي تبخرت حين عدت إلى محيطي القديم ، ليعود إليّ بصورة لاشعورية عادة تفكيري القديم ، الذي ساعد في إختفاء رؤياي ، واكتشفت أنني لو أخذت مقداراً من مخدرات أبي الجديدة وأنا أشاهد تلك السيارة المشتعلة لدامت الرؤيا واستمرت وقضت على عاداتي القديمة ، ولهذا السبب كنت سعيداً بإستخدام نقودي في بناء مختبرنا في زوريخ. لقد أردت أن أجد المخدر الذي يخلق السوبرمان ... أو بصورة أخرى، تسهيل الطريق أمام السوبرمان ليخلق نفسه ، وهكذا ثابرنا في عملنا لإكتشاف المخدر الجديد ، منذ عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٦ ، حيث جاء أبي ذات مساء وهو يحمل أنبوبة تحتوي على إبرة تشبه الكريستال ، كانت الشكل البدائي للنيوروسين ، مخدرنا قاتل العادة .

— تعني نيوروميسين ؟

— لا ، فالنيوروميسين يؤثر على الغدد ، تأثيره على الدماغ ، أما النيوروسين فيشل مؤقتاً بعض مراكز العادة . وهذا كل ما عرفناه ، ولم يعرف أحد منا أية عادة تتأثر به . لقد شككت في أن يؤثر على عادة التفكير والطريقة التي نرى بها أنفسنا ، وكذلك على العادات المتعلقة بالتصرفات الجسدية ، فالإنسان الذي يعتقد في داخله أنه ضعيف وجبان يتأكد فجأة من أنه قادر على الاختيار ، إما أن يكون جباناً تائهاً أو بطلاً رائعاً ، وهنا يفلت من قبضة العادة .. هل ترى لماذا تحمست ؟ لقد كتبت عن عادة الوهم ولكنك لم تراقب ما الذي يحدث لو

فقدت العادة — كنت قريباً من رؤيتي لنفسي ، فأردت أخذ بعض الحبوب حالاً ولكن أبي رفض وقال بأنه أكبر مني عمراً وحياته أقل قيمة فإذا مات فسوف أتابع أنا البحث ؛ ووافقت مؤخراً على أن يأخذ أبي الحبوب أولاً ، فصنع ما يحتاج إليه من النيوروسين ، ثم حقن نفسه . وقد وافقت النتائج في البداية ما توقعنا ، وبعد ساعتين تدفق منه شلال نشاط هائل ثم بدا فجأة أصغر سناً بحوالي عشرين عاماً وأخذ ينهمر في حديثه عن عملنا في المستقبل بوضوح وصفاء، كما وافق على إقتراحاتي ، ورغبت في تناول النيوروسين في أسرع وقت ممكن ، لكنه أقنعني بالانتظار لعدة أيام ، فقد ينقلب التأثير البعيد إلى ضرر جسدي ، وما زلت أذكر حالتي العقلية خلال هذين اليومين ، فقد أيقنت من عثوري على جواب لأقدم معضلة جابهت الفلاسفة : « لماذا لم يكن الإنسان إلهاً ؟ » ورأيت أيضاً خطر الحبوب هذه ، فالإنسان بلا عادة مألوفة لديه يجب عليه التأكد من هدفه وطريقه لأنه في حاجة إلى أشياء يستعيض بها عن العادة ، عادات من التفكير المنظم والتصرف الواثق تفوق مثيلاتها من عاداته القديمة . وبالرغم من هذا فتأثير الحبوب على أبي برهن على صحة آمالنا الكبيرة . لقد اشتعل حيوية ونشاطاً مدة يومين ، فقد أكل بشراهة وشرب بنهم ولم يتوقف عن الحديث لحظة ، وتوقف عن عادة التدخين ، وأخبرني بأن الحبوب تخلق تأثيراً غريباً من الخفة التي لا تشبه النزق ، وانما كان يشعر كأنه روح تستطيع الطيران أو الذهاب حيث شاء لبضعة لحظات ؛ وتذكر أن في خده اليسرى علامة تزداد تضخماً كلما أصيب بإرهاق متعب ، ولكن هذه العلامة اختفت تماماً . ثم حدثت الانتكاسة بعد يومين حيث فقد الحس وماتت حيويته ، واشتكى من إحساسه بترهل في جسده وصعوبة في حركة المشي ، فأعطيته منبهات لتعيد إليه الإحساس والحيوية ، وبعد أربعة أيام من تناوله الحبوب ذهب إلى غرفته وتناول كمية من حبوب التنويم ، ولم أعرف حتى الآن ، هل أراد أن ينام طويلاً أم أراد أن يقتل نفسه ؛ وبقيت بعد موته بثلاثة أسابيع عاجزاً عن التفكير في مسألة النيوروسين ، فقد إزدحم البيت بالأصدقاء والصحفيين ، وابتدعت فكرة

حزن أبي على فقدانه للثروة الكبيرة ، وعلى حالة أقربائنا الذين يعيشون تحت الحكم النازي ، فقلت بأنه انتحر . ثم انزويت وحيداً في البيت وقررت أن أتناول الحبوب ...

ـ لماذا ؟

ـ لقد أردت أن أعرف سبب انتحاره . فقد رأيت أن والدي لم يكن ذلك الرجل الذي يعيش من أجل أفكار عظيمة ، إنه جراح دماغ شهير ماهر فقط ، ولهذا لم يكن لديه الهدف الذي يدحر ما يصيبه من تأثير الحالة الجديدة ، وآمنت بأن قوة إرادتي أعظم تحملاً من قوة إرادته ، وقررت أن آخذ نصف الكمية التي أخذها . وقد كان تأثيرها الأول شعوراً غريباً بالحرية أنعم عليّ نفسي ، وودت لو أخبر أحداً بقصة ابتهاجي ، ولهذا جلست لأكتب إليك رسالة .

ـ لي أنا ؟ في عام ١٩٣٦ ؟ ولكنني لم أستلمها !

ـ لا ، لم أرسلها إليك ، إذ طلبت آخر كتاب لك من زوريخ وهو الذي يتعلق بمعاني الرموز الدينية ، ومنه عرفت بأنك ستعلن مسيحيتك ، وخيّل إليّ أنك تخنت مبدأ الفلسفة ، فقد علمتني أن أعمق مشكلة أمام الإنسان هي حرماته الحرية ؛ والآن ، وحين ظهر لي اكتشافي الطريقة تعيد للإنسان حريته ، كنت أنت تنقاد الى نظرية الخلاص بواسطة المسيح ، ولهذا مزقت رسالتي ولم أرسلها إليك .

ـ آسف ، فلم أكن مسيحياً بالمعنى الذي تتصوره .

ـ لا ، ولكن هذا لم يكن مهماً . لقد كان التأثير الأول للحبوب جدّ مذهل ، فقد صفت حواسي وانتعشت وشعرت كأنما أعيش بحواس طفل ، أما الرجل الذي فيّ والذي اتخذ العيش والرؤيا والسمع عادة له ، فقد وجدت أن حواسه سقيمة ، وجعلني النيوروسين أشعر بأنني أحيا في أرض العجائب ، ولكنها أرض لم يحلم بها طفل من قبل ، لأن الطفل أفعم عالمه بالخوف والشك ، وعالمه جد محدود ، أما عالمي فكان واسعاً ، ومع ذلك فقد رأيته بنفس تلك الرؤيا الحية ، وفاقت قوة أحاسيسي حد المعقول ، وأخذت ذاكرتي تعمل بدقة

وقوة لم أعرفها من قبل . كان باستطاعتي أن أتذكر أيام دراستي بكل تفاصيلها ودقائقها ، ووجدت أن كل رائحة أشمها كانت تحمل إليّ ذكرى . هل تذكر شرح « بروست » عن أثر البسكويت حين غطس في الشاي ؟ وكيف أنه تذكر طفولته فجأة ؟ وهكذا كنت طيلة الوقت ، لا لمجرد دقائق قصيرة بل لساعات وأيام طويلة ، ثم بدأت حالة الانتكاس ، وعرفت ما الذي عناه أبي حين أحس بأن جسمه أصبح مترهلاً وثقيلاً ، فالأشياء الآلية تطلبت مجهوداً إرادياً كبيراً ، فقد استغرقت عدة ساعات وأنا أطبع رسالة قصيرة ، أما أحاسيسي فقد ازدادت وتحولت الى إزعاج عقيم مستمر ، فصوت آكلة الخشب في الحديقة كان يقودني الى نصف الجنون ، ولم أتخلص من حالتي هذه إلا بإغلاق النافذة ، ولقد نسيت أو لم أعد أدرك مقدار العيش مع العادة بما في ذلك التنفس . لم يؤثر النيوروسين على تنفسي في الواقع ، فلم آخذ المقدار الكافي لذلك ، ولكن أعمالي خضعت كلها لتأثيره ، فكلما قمت بعمل ما أدركت أنني أقوم به ، كما استطعت أن أختار بين الاستمرار أو التوقف .

ولقد تناولت كمية من الحبوب المنومة فدفعتني الى النوم ثلاثين ساعة كاملة ، وتمنيت ان يزول التأثير ساعة صحوتي من النوم ، ولكنه بلغ مرحلة جيدة . فحين فتحت عينيّ انتابني شعور غريب بأن الأشياء كلها حقيقية الا انا ، احسست بالفراغ وفي الوقت ذاته تراءى لي أنني في وسط صحراء شاسعة ، صحراء من الحرية ، وتحققت لأول مرة ان الإنسان يحتاج الى عاداته لتنقذه من الحرية المطلقة . قد تكون الحرية أخطر عدو للإنسان ، ليس بالمعنى الذي قصده هتلر او موسوليني ، ولا حتى محقق دوستوفسكي الكبير ، ولست ما الذي عناه هيدجر حين قال بأن الإنسان لن يعرف الحرية الحقيقية الا في مواجهة الموت ، لأن الموت هو قمة التهديد وغاية المحدود ، وهو يحمل الإنسان على إدراك هدفه ورغبته في الحياة ، وأيقنت فجأة ، ان ما يحتاجه الإنسان ليس الحرية ، فهو يملك منها أكثر مما يستهلك ، بل يحتاج الى رؤية الهدف ، ولهذا جعلني النيوروسين أعرف ضآلة ما أملك من هدف صادق ، شعرت وكأنني في معمل

عطلت جميع آلاته . تصور رجلاً يعمل في مصنع كبير ، وقد تخيّل أنه يملك صوتاً غنائياً جميلاً ، والحقيقة أنه لم يعرف ابداً غنائية صوته لأنه يغني برفقة الضجيج الآلي ، وذات يوم توقفت الآلات واكتشف أن صوته لا نغمة غنائية فيه . وهكذا كنت أنا : فقد بدا وراء أفكاري ، حتى الكبير ، الصمت الذي سأل : « وماذا الآن ؟ » أرعبني السؤال فشعرت أنني احمل السماء الواقعة بين النجوم في داخلي ، وأذكر جلوسي الطويل على الأريكة ، وتحديقي في الجدران متسائلاً : « ماذا أود بعد الآن ؟ » . . .

– كان شعورك بالجوع أمراً مؤكداً ؟!

– نعم ، ولكن القضية كانت أعمق من هذا ، فقد سألت « ما الغرض من اشباع جوعك ؟ وماذا ستفعل غداً وبعد اسبوع ، بل وبعد سنة ؟ » وعلمت أنني جسم صغير في وسط صحراء ، ثم عرفت لماذا استطاع أي أن يقتل نفسه ، فقد حطم الخدر كل خوف غريزي عنده من الموت . إذ خيرت بين الموت والإستمرار الحياتي لكنني لم أجد القيم التي تشير إلى الطريق المختارة ، لأن غرائزي قد ماتت ، وأدركت بطريقة ما أنني يجب أن استمر في العيش ، فعزمت على النوم لأطول مدة ممكنة ؛ وتعودت على تناول الحبوب المنومة بضعة أيام ، ثم الاستيقاظ والأكل القليل ؛ ومضت أسابيع عديدة وأنا أعيش على هذه الحالة . وذات يوم شعرت بأن التأثير في طريقه إلى الزوال ، ولا زلت أذكر استيقاظي صباحاً دون الشعور المعتاد بالقسوة في ضميري ، فقد حطت ذبابة على خدي ، فتحركت يدي إلى وجهي ولم أدرك قيامي بهذه الحركة لا شعورياً الا حين أصبحت يدي في منتصف طريقها ؛ لقد بدا العالم أرق ، رقيقاً صافياً.. وعدت إلى طبيعتي بعد يومين ، ومهما حاولت فلن أستطيع التعبير عن البهجة التي غمرتني وأنا أحيا عودة كل عادة من عاداتي .

توقف عن السرد ليضع مزيداً من الويسكي في قدحه ، وراقبه لسقايغ حتى ينتهي ويعود إلى الحديث ، فشعر بالثورة لا على ما قاله نيومن عن تجربته ، بل لسبب أعظم ، فقد أخذت الحياة فيه تنفر من بعض الأشياء كالهواء البارد . . .

ثم سأل :

– وماذا فعلت بعد ذلك ؟

– لم أعمل شيئاً ، بل حاولت لأسابيع قليلة ، التفكير فيما فعلت فشعرت بأنني غيري وأنني تحولت إلى إنسان آخر ، انت تعرف أن نيتشه تحدث عن الألم في السؤال عن معرفة كل شيء ، وتعلم أنه قال : « لا أدري إذا كان ألم مثل هذا يفيدنا ، ولكنني أعلم انه يتغلغل فينا » وهذا ما أحسست به ، فكل أفكاري التافهة المتعلقة بسيد الجرمين قد زال أثرها من نفسي ، وحسبت بأن الشهر الماضي كان كخمسين سنة ، واكتشفت حاجتي للمال ، فقد انفقت كل ما تركه لي جرهارت سيفرت ، وان استمراري في البحث ضرورة حتمية .

أدهشت هذه الكلمات لسقايغ الذي سأل :

– لماذا ؟

– لأنني شعرت بوقوفي على حافة سر خطير وتساءلت : « لم يعيش الرجال واهنين ؟ » لأنهم رُبطوا بقوة إلى عاداتهم وهم لا يهدفون إلى غاية ، ولقد استطعت أنا القضاء على عاداتي وحولت رغبتي إلى الإستمرار الحياتي ، ووجدت أنني محتاج إلى بعض التعديلات في النيوروسين ، فقد كان يمسح العادات فقط ، أما المشكلة فهي قتل بعض العادات أو إضعاف قوتها ، ومن هنا بدأت أدرك أهمية الغاية في آلية الإرادة . لقد قال جورجي « إن الدماغ يحفظ « المثيرة » حفظ العين للدموع » يجب أن نتعلم كيفية السيطرة على عدة الإرادة ، فهي تطلق غالباً علة الجنس ، وتعطي الإحساس الفاجيء بقوة جبارة طاغية ، وهناك ملاحظة أخرى من جورجي أمدتني بدليل إلى مشكلتي ؛ فقد قال : « إن إستخدام الإرادة يفيد الجسم أكثر من التمرينات العضلية ، وإن معظم الرجال لايكادون يستعملون إرادتهم » ولهذا فهي تهزل وتصبح ضعيفة عاجزة كجسم رجل لم يقم بتمرين رياضي قط ، ومرة قرأت شرحاً لبلزاك عن إبتهاجه حين فكر بكتابة « المهزلة البشرية » وقد تملكني شعوره نفسه حين أدركت أن حياة أمضيها في البحث المتواصل قد تقودني إلى سر الحرية الإنسانية ، إنه

التفكير الذي أراد قيادتي إلى إستعمال الإرادة بصبر جميل طيلة حياتي والتهام السنين في مجهود ثابت مستمر ، والغاية هي الحرية من السأم الذي يغشي الحياة ، وتحققت أنه ما من حبوب تستطيع حل مشكلة الحرية ، بل سوف تساعد على تبسيطها إلى حد معين » . ولهذا كان علي أن أستمر في أبحاثي ، ولم يكن لدي المال الكافي . وفي عام ١٩٣٦ جاءتني الفرصة راكضة ، فقد إتصل بي مريض سابق من مرضى أبي يدعى « شمول » . . .

– آه ، صاحب معامل الثياب الداخلية ؟

– هل تعرفه ؟ يبدو أنك تعرف أكثر مما توقعت ، ولعلك تعرف ما الذي حدث له ؟

– أعرف أنه مات في حادث اصطدام قارب بحاري في « مانتون » في آب عام ١٩٣٦ .

– هذا صحيح ، فقد جاء إليّ هذا الرجل لأنه عانى من حوادث انتحارية حين أحيل إلى التقاعد ، ولقد عانى من أشياء أخرى مخيفة أرعبته كثيراً ، فقد كان يقطع ويكسر الأشياء القريبة منه حين يلتهب بالغضب ، ولهذا خاف أن يرتكب جريمة قتل ذات يوم ، وقد أخبره أبي عن إمكانية إجراء عملية في الدماغ قد تشفيه من هذه النوبات المرعبة ، فاتصل بي علّني أساعده ، وأخبرته بالقليل عن تجاربنا في النيوروسين . ويجب أن أعترف هنا بأنني قللت من خطره ، وأعطيته مرة كمية صغيرة من النيوروسين فصعق وابتهج لآثاره الأولى ، ثم أخبرته بحاجتي لمال كثير حتى أستمر في تجاربي فوعد بإعطائي ما أحتاجه ، وحين ظهرت علامات الانتكاس ، أعطيته كمية كبيرة من حبوب التنويم وبعض المنبهات الأخرى ، فزالت عنه التأثيرات في أقل من أسبوع ، وأحس بتحسن كبير ، ثم اعتذرت عن إعطائه عذراً آخر قبل الحصول على المال أولاً .

كان أثر الكمية الأولى أن ذهبت بدوافعه العاتية المرعبة التي كانت لها علاقة بخيبة الأمل في التوقف عن العمل ، وهكذا أصبح صديقي لمدة شهر واحد ، وقدم إليّ عدة دفعات كبيرة من المال ، ثم ظهرت عليه أعراض التعب فاقترحت عليه الرحلة الى « مانتون » ، وهنا عادت لسوء الحظ طبيعته النفسية الأصيلة للظهور بعد أن تعود عليّ وأخذت شكوكه ومضايقاته تزداد كثيراً . وفي إحدى المناسبات دعاني بالمحتال الرخيص المنافق لكنه ما لبث أن اعتذر وتهيأت لي الأشياء الآتية : فقد ألح في إعطائه كمية من النيوروسين . وحاولت إقناعه بالتريّث حتى نصل زوريخ ، فدفعه هذا إلى المزيد من الشك ، ويئست ، ثم أعطيته كمية صغيرة تعادل نصف ما تناوله أول مرة ، فأعادت إليه فرحه وابتهاجه لمدة يوم واحد ، مما جعله يعلن بأنني واحد من عظماء العلم الذين عاشوا فوق الأرض . وسوف يعطيني كل ما يملك لأتابع أبحاثي . حاولت تحذيره بعد انتهاء تأثير الحبوب ففشلت هذه المرة ، وعندما عاد الى صحوه كان في حالة فتاكة مرعبة ، ففكرت في هجره والعودة الى البيت ؛ لكنه اقترح الذهاب في رحلة بحرية . وكنا على بعد نصف ميل من الشاطىء حين عاودته النوبة التي قلبت وجهه الى لون أرجواني مخيف ، وبدأ بقذف شتائمه واتهامي بسرقته وبأنني مصاص دماء أتعلق به لأمتص آخر قطرة من ماله . ثم فجأة ألقى بنفسه عليّ ودار بيننا صراع أمده فيه جنونه بقوة خارقة ، وحالما تخلصت من قبضته ألقيت بنفسي في البحر ، فطوح نفسه ورائي ولم أعرف ماذا حدث له بعد ذلك . لعل قوّته انتهت بحالة لا شعورية – كمن يصاب بالصراع – انتهت به الى الغرق . قلبت الزورق كي أفسر ما حدث ، وسبحت حتى الشاطىء – هل تعرف بقية القصة ؟

– قرأت في جريدة مانتون خبر القبض عليك بعد الحادث بسنتين .

– إذن هل قرأت عن الرجل الذي حاول ابتزازي ثم ذهب الى الشرطة؟ لحسن الحظ اثبت بانه حاول مطالبتي ببعض النقود ، فأطلقت الشرطة سبيلي .

– وماذا عن المال ؟

– حصلت على بعض المال فقال ، لأن أقرباءه وقفوا حجر عثرة أمامي .

بينما مر لا خفقة فالتفت تسقايبم نحو النافذة بينا توقف نيومن بلا حركة ،

بل تابع تحديقه في النار ، وبدت الأشياء في خارج الغرفـــة مظلمة بسبب ضوء المكان ، ثم سمعا صوت قرع الباب فسأل تسفايغ :

– هل أفتح ؟

– أرجوك .

فتح باب المطبخ قبل أن يصل تسفايغ إليـه لتقول ناتاشا بهدوء : – أرجو أننا لم نقاطعكما .

– ماذا تفعلين هنا ؟

دخلت يتبعها جاردنر الذي قال :

– فكرنا أن من الأفضل أن نأتي لنتأكد من أن الأمور على خير .

– هل أنتما وحيدان ؟

– أوه طبعاً .

لاحظ أن الوحل يلطخ حذاء ناتاشا ، وقد التمعت قطرات الماء على معطفها أيضاً ، فـال : – أين سيارتك ؟

أجاب جاردنر بجفاء : – تركناها في المزرعة .

وقف نيومن على عتبة الباب وقال بأدب :

– هل لكما في الدخول ؟ ماذا تريدان أن تشربا أم تفضلان القهوة ؟

أجاب جاردنر : – لا أمانع في قدح ..

توقف عن الكلام فجأة حين لمح نظرة ناتاشا ثم قال :

– أرى ... لا .. لعل من الافضل أن لا أشرب الآن ... شكراً على كل حال .

وسأل تسفايغ : – هل يعلم جراي بمجيئكما الى هنا ؟

– لا .

– هل تعرف الشرطة أمر هذا المكان ؟

ظهرت على جاردنر علامات الدهشة وهو يجيب :

– لم أخبرهم أنا .. ولكنني أعتقد بأنهم عرفوا أمره ، فقد حاولوا الإتصال

بمديرة شؤون منزل تيم طيلة اليوم وأنا أتوقع أنها أخبرتهم به .

كان ينقل بصره بين نيومن وتسفايغ وهو يتحدث . على أن الموقف أصابـه بالحيرة ، فقال تسفايغ :

– أرى من الأفضل دخولكما فقد أوضح نيومن لي أشياء ...

واتجه تسفايغ بعينيه نحو نيومن قائلاً :

– لا بد لي من أخبارهما .

تردد نيومن ثم إبتسم :

– إذا رأيت ذلك ضرورياً ، وعليك أن تعرف أن الشرطة في طريقها إلى هنا ، والوقت ضيق .

فسأل جاردنر سؤالاً مباشراً :

– هل تود تجنبهم ؟

فأجاب نيومن : – نعم .

– قال تسفايغ بهدوء : هذه أفضل وسيلة .

هز جاردنر كتفيه قائلاً :

– حسناً سأعتمد على كلامك ، علينا أن نذهب الآن ، وإليك ما أقترح : إنني أعرف حانة صغيرة على مقربة من « وكنج » ، وستأخـذ منا الطريق إلى هناك نصف ساعة ، وهناك سنعيد النظر في القضية .

فأجاب نيومن : – حسناً .

فسألت ناتاشا : – هل تعلم ما الذي تفعله الآن ؟

قال جاردنر : – لا ، ولكنني سأعتمد على كلمة كارل .

فقال نيومن : – هذا رائع ، لنذهب إذن .

دخل غرفة الجلوس وأطفأ النور ، وقالت ناتاشا :

– معي مصباح كهربائي .

ولاحظ تسفايغ وهي تفتح حقيبة يدها ، مسدساً صغيراً ، وأطفأ نيومن ضوء المطبخ وقال :

– يمكننا الذهاب الى المزرعة في سيارتي .

إزداد هطول النداف الثلجي ، وجلس تسفايغ وناتاشا في المقعد الخلفي ، ولم ينطق أحدهم بكلمة واحدة حتى وصلوا المزرعة ، حيث كشفت أضواء السيارة عن سيارة جاردنر ، التي صُفّت على جانب الطريق تحت الأشجار ، وأوقف نيومن سيارته بجانب « الروفر » قائلاً :

– من الأفضل أن تستقلوا ثلاثتكم السيارة الثانية وسأتبعكم أنا .

فأجاب جاردنر : – اتفقنا إذن .

قال نيومن : – لقد كنت ذكياً بحيث لم توقف سيارتك بالقرب من المزرعة .

قال جاردنر بخشونة : – لم أود أن ألفت الانتباه .

وما أن سارت « الروفر » على الطريق العام حتى قال جاردنر :

– ماذا حدث ؟

أجاب تسفايغ : – إن ما أخبرني به لا يصدق ولكنني لا أشك أبداً في براءته .

قالت ناتاشا : كيف ؟ هل قتل الرجال أنفسهم حقاً ؟

– إنه لم ينته من السرد حينما وصلنا .

ثم أوجز لهما قصة جرهارت سيفرت وموت شمول ، ولما انتهى لم يقل أحدهما شيئاً للحظات ثم قال جاردنر : – أصدقك القول بأنه يكذب .

وسألت ناتاشا : – هل صدقته أنت ؟

– بالإجمال نعم ، فكل شيء في هذه القضية قد حيّرني والشيء الذي أذهلني حقاً هو : كيف ينقلب نيومن إلى مجرم عادي ؟ وكان سؤالي هذا بلا جواب ، ولكن ما أخبرني به أوضح الجواب .. هل لديك أي تفسير أفضل ؟

قال جاردنر : – لا أريد معارضتك يا بروفسور ، ولكن أواثق انت من أنك لست خاضعاً لرغبتك الشديدة في رؤيته بريئاً !

– انك لن تفكر هذا التفكير لو كنت من استمع اليه خلال النصف الساعة الماضية ، فكل شيء قاله لي أقنعني بأنه كان صادقاً .

– هل تعتقد أن الشرطة سوف تصدقه ؟

– لا ، وهنا تكمن المعضلة ، وقد قررت أن أساعده بكل شيء .

قالت ناتاشا فجأة : – ماذا عن قاربنا « البخاري » « التنين الطائر » يا جو ؟ هل بإمكانك أخذه الى فرنسا ؟

– لنفرض أنني فعلت ذلك فما الذي سأقوله لجراي وتشون ؟ آسف ، لقد وجدنا أن نيومن بريء فساعدناه على الهرب ... وما الفائدة من ذلك إذا قبضوا عليه في فرنسا أو سويسرا ؟

فقال تسفايغ : – لا ، فليست هناك الأدلة الكافية ، أنا واثق من ان مغادرته انكلترا آمن له .

– ولكنني لا أفهم ، فلو كنت على يقين من براءته ، فما الذي يمنعه من اخبار الشرطة بالقصة ؟

– قد يستغرق ذلك شهوراً طويلة ، وقد يأخذونه الى المحاكمة وهذه الطامة الكبرى ، لأنه يرغب في إبقاء تجاربه عن النيوروسين سراً ، فإذا ما اكتشف أمره فسوف يعيقه عن عمله هذا أي مراسل صحفي أو دعي ، ثم تصور القوى التي ستعارضه وتحاربه ، وأولها شركات الدخان والمشروبات الروحية ، ثم معظم محترفي الطب وعلماء النفس ، هل ترى الآن لماذا يشدد على سرية أبحاثه ؟ إن كل ما يحتاجه الآن هو المال والانعزال في مختبره ، واذا ما قرر سير تيموثي إمداده بالمال ، فعليه مغادرة انكلترا بسلام .

– ولكن ماذا عن ثم ، كيف تعرف بأنه لن يموت كالآخرين ؟

أجاب تسفايغ متحمساً : – أنا على ثقة من انه لن يموت لسبب بسيط ، لأن جوستاف لن يتحمل موته لحاجته الى المال ، بل سيحافظ على حياته .

أنزل جاردنر زجاج النافذة وأعطى اشارة الدوران إلى الشمال ، وأوقف سيارته تحت شجرة في ساحة حانة صغيرة ، وبعد فترة وقفت سيارة الإنجليا ، ودخلوا الحانة المزدحمة بالناس فأشار جاردنر إلى صاحبها قائلاً :

– هل هناك أحد في الطابق العلوي يا هاري ؟

– لا ، اصعدوا وسألحق بكم بعد لحظة .

قادهم جاردنر الى غرفة صغيرة ذات سقف منخفض ونار الفحم تشتعل في المدفأة ثم قال :

– لقد تعودنا أن نقضي عطلة الاسبوع هنا في بداية حياتنا الزوجية، وهذا المكان من أقدم الأمكنة في جنوب انكلترا ، وقد تعود الرجال أن يحضروا صديقاتهم لقضاء سهرة بعيدة عن العيون .

ثم أزاح الستارة التي كشفت عن سرير ذي أعمدة اربعة ، فقال نيومن :

– هذا رائع .

ونظر من النافذة نحو الساحة متابعاً :

– مكان بهيج .

وأعجب تسفايغ ببرودة نيومن ، فمع أنه معرض للقبض عليه في أية لحظة ، فقد بدا مؤدباً مهتماً كسائح في متحف ، وكان يقول :

– لاحظت بهذه المناسبة أن اسم المكان « المعزى والقرجار » ، ألم يكن هذا عنواناً لكتاب لك ؟

فرح جاردنر بهذه الملاحظة وهو يقول :

– هذا عنوان الترجمة الالمانية، أما العنوان في الإنكليزية فكان « يوم ينفجر القمر » ، وقد رأى الناشر الألماني أن العنوان الأول أكثر إثارة .

قال نيومن : – كتاب قيم .

جلس تسفايغ وناتاشا بجانب المدفأة يتبادلان النظرات ، وكان وجه تسفايغ خالياً من التعبير، أما ناتاشا فقد أدارت ظهرها لنيومن وعلى وجهها شبه إبتسامة .

وقال جاردنر :

– متى قرأته ؟

– حين طبع لأول مرة ؛ فقد أغراني العنوان .

– حقاً ، فهو رمز القرون الوسطى للشيطان والإله . إن الإله ، كما تعلم ، يجمع كل شيء ...

– وأنت تعلم أن نظريتك في نفسية « الواهيا » قد أكلها الزمن وأنتهت .

– ماذا تعني ؟

وظهرت في صوت جاردنر نغمة عدم التصديق .

– إن صديقي « دتزل » من ميونيخ قد أمضى وقتاً طويلاً في راوندا يدرس عاداتهم عن قرب ، وقد نشر بعض نتائجه ...

– أنا أعرف ذلك ، فقد قرأت مقاله .

– ولكن بعضاً من اكتشافاته المثيرة لم تنشر بعد، فمثلاً : لقد أجرى تجاربه حول مدركات هؤلاء المتوحشين الحسية وأثبت أن تبادلهم الشعور مع غيرهم كان بدرجة راقية ، أرقى منه لدى الأوروبيين

– هل أنت واثق من هذا ؟

– كل الثقة ، ويمكنني أن أعرفك بصديقي « دتزل » ، وإذا كان هؤلاء الواهيا قد إنحدروا حقاً من الجنس الثلاثي فكيف تفسر قوتهم النفسية هذه ؟

يزعم كتابك أنهم عاشوا في كوكب روحي أحط من كوكبنا الأرضي .

أجاب جاردنر بإنفعال : لا ، لم أقل ذلك ، بل قلت إن سحرهم موضوعي فهم لا يعرفون شيئاً عن الروح الإنسانية ، وهذا لا يعني فقدانهم تلك القوة .

دخل النادل قائلاً : – هل أستطيع أن آخذ قائمة بما تطلبون ؟

فأجاب جاردنر بضيق : – نعم ، نعم .

وقام بجهد كبير ليحول عدسة إنتباهه فقال :

– أر .. أربعة أقداح كبيرة من الويسكي ، وبعض السندويشات .

– هل ترغب يا سيدي بسندويشات من لحم الخنزير أم من الدجاج، أم جبنه وبندوره ؟ .

فقاطعه جاردنر : – أي شيء يكفي لأربعة أشخاص .

ثم أدار ظهره للنادل وقال مخاطباً نيومن :

– استمع إليّ : إذا كان صديقك هذا قد توصل إلى هذه النتائج ، فلماذا لم يذكرها في مقاله ؟

قال تسفايغ : – أرجو معذرتي لمقاطعتك يا جوزف ، ولكن عندنا مشاكل أخرى تستحق المناقشة أيضاً .

– أهي إلى هذه الدرجة من الأهمية ؟

ثم قال حين رفع تسفايغ حاجبيه :

– آه .. نعم أعتقد أنها كذلك .

والتفت إلى نيومن قائلاً : – سوف نتحدث عن هذا في وقت لاحق .

ثم جلس على مقعد بالقرب من النار وخاطب تسفايغ قائلاً :

– آسف ، استمر في حديثك .

قال نيومن : – الواقع أن لا ضرورة تدعو إلى تغيير الموضوع ؛ لأن بعض النقـــاط التي دارت حولها مناقشاتنا السابقة تتعلق بأسئلة وجدت في كتب جاردنر . ثم التفت إلى جاردنر وناتاشا متابعاً :

– لقد حاولت أن أشرح للبروفسور تسفايغ كيف دفعني قتـــل صديقي جورجي على يد النـــازيين إلى التفكير في قضية توسيع المدارك ، وأظن بأن البروفسور حدثكما بتجربة أبي عن حبوب تؤثر على العادة كالتدخين مثلاً ، وقد آمن والدي بأن حبوباً كهذه تقوي مقدرة الإنسان على تبادل الخواطر ، كما آمن أن العائق الرئيسي أمام تبادل الخواطر هو عادة النطق ، ولو فكرتم في هـــذا الأمر للحظات لوجدتم أن هذا ليس بعيد التصديق ...

قال جاردنر : – هذا صحيح ، إنني أوافقك على الرأي .

– فالطفل مثلاً يستطيع تعلم لغتين دون أية صعوبة بينما يجد الرجـــل صعوبة في هذا ؛ لأن لغته الأم أصبحت عادة له للتعبير بسهولة عن نفسه ، ووالدي يؤمن بأن تبادل الخواطر يعتبر اللغة الثانية ، ووسيلة جديدة من وسائل التعبير . وكذلك كانت تجارب « راين » حيث أثبت أن معظم الناس يملكون هذه القوة إلى حد ما ، لكننا لم نطورها أبـــداً لأن لغة التخاطب عندنا أصبحت عادة . لهذا آمن بأن النيوروسين إذا أحسن إستعماله فسوف يمدنا بوسائل جديدة لاستغلال تبادل الخواطر وبعض أشكال القوة العقلية . فالعقل كما يقال فوق المادة .

وقف جاردنر وقد تغير لون وجهه ، فعرف تسفايغ بأنه قد انفعل بكلمات نيومن ، وأصابت البروفسور الدهشة حين أمسك جاردنر بكتف نيومن وقال :

– وحق السماء يا جوستاف إنك على شأن عظيم الأهمية إذا كان عقارك حقاً يؤثر على العادة كما قلت ...

فأجاب نيومن : – هل تود أن تجرّب بعضاً منه ؟

– أمعك شيء منه ؟

– ليس نيوروسين ، بل نوع أخف منه يدعى نيوروميسين ، ألم يخبرك بروفسور تسفايغ ؟ لقد جرّب بعضاً منه هذه الليلة .

فسأل جاردنر وناتاشا في وقت واحد :

– وماذا حدث ؟

– لقد بدأت آثاره تنجلي الآن ولكنها بلا شك تجربة مدهشة غريبة .

قال جاردنر : – دعني أجرب .

فقال تسفايغ : – هل تفكر يا جوستاف أنها فكرة مناسبة ونحن نشرب الويسكي الآن ؟

فأجاب نيومن : – لن تؤثر عليه ، فسوف أعطيه كمية ضئيلة .

وأخرج خنجراً زجاجياً من جيبه ليأخذ حبة منه ، ثم قال لجاردنر :

– إن بروفسور تسفايـغ على صواب في سؤاله لأن النيوروميسين خطر على أناس سريعي التهيج ، ولكن كتبك أقنعتني بأن نظامك العقلي يتحمل هذا .

وقسم الحبة إلى نصفين وقدّم احدهما الى جاردنر ، وحـــين أعطى النصف الثاني الى ناتاشا هزت رأسها بالنفي ، وابتلع جاردنر الحبة بسرعة وجلس ثانية وهو يقول :

– هل تأخذ وقتاً طويلاً حتى يسري مفعولها ؟

– خمس دقائق فقط .

قال تسفايغ : – اسمح يا جوستاف ، فالأفضل ان نترك هـــذا المكان خلال نصف ساعة امامك تستطيع ...

– إنهاء قصتي – حسناً .

ودخل النادل يحمل صينية وضعت عليها أطباق السندويش ، فاخرج جاردنر محفظة نقوده ، وما أن فتحها حتى تنـــاثرت الجنيهات على السجادة ، ولاحظ تسفاينغ ان وجهه قد ابيضّ وحين إنحنى ليجمع جنيهاته قبض عليها كأنـــه يعصرها ، فقالت ناتاشا :

– اسمح لي يا عزيزي .

وأخذت جنيهين وأعطتهما للنادل ثم جمعت البقيـة من على السجادة ، وناول نيومن قدح الويسكي الى جاردنر قائلاً :

– اشرب هذا .

فقالت ناتاشا : – حسبت أن المشروب لا يناسبه ...

فسارع نيومن يجيب : – إن كمية قليلة منه تقوي مفعول المخدر .

ثم قال لجاردنر : – أرجوك ان تشرب .

حدّق جاردنر في القدح وبدا كالمحموم ثم قال :

– يا إلهي ! هذه مادة مذهلة ، لِمْ لا تجربينها يا ناتاشا؟ انا لا أستطيع وصفها إذ تشبه حالة من يسكر دون وجوم ، الصفاء الواضح ...

وشرب جرعة كبيرة من الويسكي وقال :

– لا عجب إن عادت الى تيم حيويته .

فقــال نيومن : – لعلك تعطي تيم هذا الخنجر وتخبره بأن يتناول حبة كل ثمان وأربعين ساعة ، وقــد لا يصيبه التهيج .

فسألته ناتاشا : – هل هذا ما حدث للرجـــل العجوز في مادستون ؟ أعني بالسكين .

كان نيومن يقضم من سندويشه فهز رأسه ومضغ اللقمة بعناية قبل ان يجيب:

– لا ، فقد عانى من حميات مختلفة اصابته في الغابـة حتى أضعفت جهازه العصبي ؛ وقد جئت أنا وعالجتـه بكميات صغيرة من النيوروسين ، وللنيوروسين تأثير أولي غريب ، يعقبه تأثيرات خطيرة قد تسبب ميلاً الى الإنتحار في إنسان

لا هدف له ؛ ولهذا إضطررت الى إعطائه مسكنات فعّالة لتنويمه خلال مرحلة الخطر هذه ، ولكن تركيبه الضعيف عقّد الأمر .

وجرع من قدحه وقال : – لقد أحب احدنا الآخر فقد كان واحـــداً من أقدم اصدقاء أبي .

– إذن كيف مات ؟

– لقد زرع النيوروسين دافعاً قوياً عنده للانتحار ، ولم أكن لأعرف تأثيره على رجل يحمل آثار حمى الملاريا في دمه . أمـــا هو فقد فكر بأن انتحاراً لا تعليل له قد يؤدي بي الى المتاعب لأنني كنت أحمل جوازاً مزوراً . وذات مساء ترقب فترة غيابي لاحضار طبيب يعالجه بحقنة ، وكان هو من سألني ان أذهب لاحضار الطبيب ، ثم نزل الى الطابق الأرضي ومعه بندقيته وأطلق على نفسه الرصاص بالقرب من النافذة ، فقد أراد ان يوهم الناس بأنه حادث وقع له أثناء مفاجأته اللص وبطريقة ما اصيب هو بالرصاص ، ويجب أن تعرفوا ان عدداً من اللصوص قد حاولوا سرقة البيت .

فجأة وقف جاردنر وألقى بيده على كتف نيومن قائلاً :

– أتريد الخروج من انكلترا هذه الليلة ؟

– نعم ، لكن ....

– لا داعي للتعليل ، تعال معي الآن .

قالت ناتاشا : – جوزف ، هل تدري ما الذي تفعله ؟

– أرجو ذلك .

ثم التفت إلى تسفاينغ ليسأله :

– هل توافق على وجوب خروجه من انكلترا ؟

– بالطبع .

– حسناً ، اتفقنا . نحن نعرف بأنه ليس مجرمـاً ، اما الشرطة فمن الصعب اقناعها ، ولن نعرف مـا الذي سيحدث في حالة تحقيق الشرطة ، لذا سوف آخذه هذه الليلة الى كاليه في فرنسا .

سأل نيومن : – هل تحتاج إلى النقود ؟

– لا ، فمعي بعض النقود في حقيبتي .

– حسناً . يمكن لتسفايغ ان يرجع بسيارتك الى لندن وسأعمل على ان يلحق ثيم بك في سويسرا حالما يستطيع السفر ، وأغلب الظن أنني سآتي معه .

– سيسعدني أن أساعدك .

التفت جاردنر الى تسفايغ قائلاً وفي صوته نغمة عاطفة لم يسمعها منه من قبل ، وقد تلاشت صفرة وجهه :

– سأظل شاكراً ابداً لك لإشتراكي معك في هذه القضية الجنونية يا كارل . أشعر بأن ثلاثتنا نقف على عتبة تغيير التاريخ البشري الذي سنعمله نحن ، وسأعمل لمساعدة جوستاف حتى يواصل ابحاثه ويتم صنع هذه الحبوب .

وقبض على يد تسفايغ فكاد هذا الأخير ان يصرخ من الضغط القوي وقال :

– وداعاً يا كارل ، سأراك في الغد .

سألته ناتاشا بغضب : – هل أنت على ما يرام ؟

– بل على خير ما يرام ، كأنما أضيء في داخلي نور برّاق .

وقال لنيومن : – هل تعرف أنني طالما فكرت في أن الضمير الإنساني نور برّاق في محرك مهترىء ، مثله في ذلك مثل مصباح كهربائي من النيون تحاول إضاءته ولكنه لا يضيء كاملاً ... إن النور يحاول القفز على طول المصباح ويبدأ باللمعان ، طرفاه ، ويشع لفترة ثم يخبو ، وكنت أظن أن ذلك ينطبق على النهيج الجنسي إذ أنه محاولة في الوعي الحقيقي ، ولكن ليس باستطاعتي إلا الاستمرار في التفكير بأن النور لا بد وأن ينشر ضوءه في المصباح يوماً ما .

فرفع إصبعيه قائلاً : – وهكذا سنحصل على الوعي الحقيقي فجأة .

وسأل نيومن : – هل فهمت ما الذي أعنيه ؟

– تماماً ، فلن أستطيع أنا إيجاد مثال أصدق من هذا ، وقد كنت على صواب حين قلت « المحرّك المهترىء » فجزء من المشكلة هو عملية آلية محضة ، وكان أبي يقول أنه ليس من الصعب أن تتعلم قيادة جسم بشري ، كما تتعلم قيادة

السيارة ، وكلنا يعرف العملية الآلية المبدئية ، كيف تدير المحرك وتقبض على عجلة القيادة . لكن هناك ملايين من الأشياء التي غابت عنا ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف نغيّر موجة السرعة ، إن معظمنا يحبو في الحياة على السرعة الأولى ...

فقاطعه جاردنر ليقول : – هذا صحيح فالقضية تتعلّق بالوعي ... موجهات السرعة ...

ضغط بيده على جبهته فتطلع تسفايغ وناتاشا إليه باهتمام ، وقال :

– إنه لأمر عسير لعين ، أشعر وكأنني طفل يحاول تعلّم لغة أجنبية .

تطلع نحو نيومن وابتسم فجأة له ثم قال :

– علينا أن نبدأ من البداية .

فقال نيومن : – إن باستطاعتنا فعل ذلك .

قال جاردنر : – هذا صحيح ، فثلاثتنا نعمل على حل المشكلة نفسها بطرق مختلفة . وابتسم لناتاشا محاولاً أن يقول شيئاً لها ، ولكنه قام بحركة يائسة وقال :

– الأفضل أن تذهب ، وأرجو أن لا يؤخر الضباب سفرنا .

وخيّل لتسفايغ بأنه بدا كمن يسير في نومه وأفاق فجأة ، فقال لنيومن :

– تقدّم ، ولنذهب .

وانحنى ليقبّل ناتاشا فوضعت يديها حول عنقه قائلة :

– أرجوك كن حذراً ولا تسرع في القيادة .

انحنى نيومن لناتاشا وقال : – سيدتي ، سنتقابل ثانية بعد فترة قصيرة .

ثم التفت الى تسفايغ قائلاً : – إلحق بي في أسرع وقت ، فسأحتاج إلى مساعدتك .

قال تسفايغ : – إلى اللقاء يا جوستاف .

قال جاردنر يهمس حين اتجه نيومن نحو الباب :

– أرجو أن يكون عملنا صحيحاً .

سمع نيومن الهمس فابتسم ، ثم قال تسفايغ :

ـ أنا على ثقة من أننا على صواب .

قال نيومن : ـ شكراً لك يا كارل ، فلن أنسى هذا .

وقف تسفايغ وناتاشا بالقرب من النافذة ؛ وكان المطر مستمراً في الهطول . واجتاز جاردنر ونيومن الساحة الى السيارتين ، ففتح نيومن صندوق سيارته وأخرج منه حقيبتين ، وهنا سألت ناتاشا :

ـ هل أنت واثق من أنك عملت الشيء الصائب .

ـ أنا أرغب في المغامرة .

ـ وماذا عن سير تشارلز جراي ؟

ـ أظنني قادراً على إفهامه .

فقالت : ـ بودي لو قدرت إفهامي .

راقب الضوء الخلفي لسيارة « الروفر » يقطع الزاوية وسمعا صوت السيارة وهي تزداد سرعتها ، وهنــا أسندت ناتاشا رأسها على كتفه للحظة ثم اعتدلت فجأة ، واتجهت نحو المدفأة لتقول :

ـ أشعر بأن هذا معادي للطبيعة . . . فهناك شيء خاطيء . . .

رمقها بإعجاب وهو يقول : ـ طبعاً هناك شيء .

ـ ما هو ؟

كان صوتها حاداً . وقال :

ـ لقد أوقفنا طريق العدالة ، فلو بقي جوستاف في انكلترا لصعب عليــه اثبات براءته .

ـ هل تعتقد أنه في أمن الآن ؟

ـ ليس تماماً إذ يعتمد ذلك على مقدار مــا تستطيع الشرطة حشده من أدلة . ولكنه سيكون آمناً في بلده .

ـ ولماذا أنت على ثقة تامة من براءته ؟

أجاب : ـ لست واثقاً يا عزيزتي .

ـ هل أنت جاد ؟

قال غير مبال : ـ لقد أخبرني جوستاف عــن موت الرجــل العجوز في مانتون وعن الصراع الذي حدث في القارب البخاري ، وبدا هذا معقولاً جداً، ولكنه لم يقل لي لماذا استعمل اسماً مزوراً في مانتون ؟

ـ هل أنت متأكد من هذا ؟

ـ إن الجريدة التي وجدتها في مانتون تذكر اسمه « جرهارت سيفرت » .

ـ أهو إسم أول رجل مسن ؟ ذلك الذي مات في سويسرا ، لكن لماذا اختار ذلك الإسم ؟

ـ لقد أخبرني بأن فكرته السخيفة في أن يصبح سيد المجرمين قــد اختفت قبل ذلك بوقت طويل ، ومع ذلك فقد اختار اسم ضحيته الأولى ، وبهذا دل على الدافع البطولي الأهوج الذي يدفعه .

حدقت فيه غير مصدقة وغير قادرة على فهم صبره ، وراقبته وهو يشرب الويسكي لتقول :

ـ هل تظن أنه خطط لقتل هؤلاء الرجال الطاعنين في السن ؟

ـ لم أقل ذلك ، ولكن لماذا دخل انكلترا تحت اسم مزور ؟ كان جوابــه بأنه كان يخاف من النازية التي كانت تلاحقه ، ولكنه غادر ألمانيا عــام ١٩٣١ يحمل جواز سفر مزوراً .

ـ ما السبب في ذلك ؟

أجاب بهدوء : ـ لا أدري يا عزيزتي .

ـ هل تعرف ماذا قلت ؟ قلت منذ لحظة أنه بريء .

ـ لا ، قلت أنه قد يجد صعوبة في اثبات براءته في هذه البلاد .

ـ اذن ، هل تعتقد أنه مذنب ؟

ـ أعتقد أن ذلك محتمل ، فقد يحكم القضاء بتجريمه .

تقدمت نحوه وهي تنظر الى وجهه قائلة :

ـ كارل ، أنا لا أفهمك ، أنا أسأل إن كنت تعتقد بأنه مذنب ؟

ـ أعرف ماذا سألت، وأنا أقول بأنني لا يمكنني إجابتك بسهولة وبساطة،

إن ما أعتقده هو هذا : إن جوستاف لم يكفّ عن أن يكون مملوكاً لإلهام من عنده ، وقد قضى حياته في تحويل هذا الإلهام إلى حقيقة ، وأنا أشك في أنه خطط ليقتل هؤلاء الرجال بسبب أموالهم فقط ، فهو لا يهتم للمال ، وأنا أعتقد أنه رغب في مساعدتهم ... ولكنه استغلهم ..

– تعني أنه يستخدم الناس ... كما إستخدم بافلوف الكلاب ؟ هل هذا ما عنيت ؟

وقف تسفايغ ليبدأ سيره في الغرفة بعد أن وضع يديه في جيبي سرواله ، ثم قال :

– أنا عاجز عن إجابتك ، فكل ما استطيع اخبارك به هو لماذا أردت له أن يهرب .

– لماذا إذن ؟

– لأنني بدأت في الشك ، بأن جوستاف انقلب إلى مجرم عادي ، قاتل يقتل الطاعنين في السن .

قطعت عليه الحديث لتقول : – ومع ذلك فقد ساعدته في الهرب .

– هذا غير صحيح، لقد خفت عليه أن ينقلب إلى مجرم عادي لأنني سأكون شبه مسؤول ، بل لعلني المسؤول ، انني لم أرد أن أحكم عليه خوفاً من أن أحكم على نفسي ، وقد كنت على صواب في ناحية واحدة . إن تأثيري عليه ذو أهمية بالغة في حياته .. وقد أخطأت في ظني بأنه قد ينقلب إلى مجرم عادي ، فالمجرم الحقيقي يعتبر نفسه واقعياً .

– أنت تحاول أن تبرهن لي بأنه لا يمكن أن يصبح مجرماً لأنه مثالي ، لقد كان هتلر مثالياً أيضاً، فكيف تعلّل هذا ؟

وتعمّد تسفايغ أن لا يلتقي بوجهها إذ أن غضبها ضايقه ، ومع ذلك فهو واثق من أنه على صواب ، وقال بأناة :

– أرجوك ، إصغي إليّ يا ناتاشا ، إجلسي لحظة ، واصغي .

وجلست على ذراع الأريكة ووقف هو ساكناً لحظة متطلعاً إلى وجهها

ثم قال :

– هناك شيء يجب أن تحاولي فهمه : فحين كنت والأب نيومن تلميذين اشتركنا معاً في رؤيا واحدة ، لا ، ليست رؤيا ، بل هي وحي فجائي ، وأنا اول من تكلم عنه . وأذكر أنه أجاب ، بأنه طالما أحسّ هذا الإحساس ، واليك الوحي :

«في لحظات معيّنة ترتكب الإنسانية أخطاء تافهة في تفسير العالم، وأحاسيس الإنسان تفسر الواقع تماماً كما ينقل المترجم كتاباً من لغة إلى لغة أخرى . وقد عرفت أثناء ذلك الوحي الخاطف، أن الإنسانية تقوم بأخطاء فاضحة حين تنظر إلى العالم ؛ اننا نرى العالم بطريقة كاذبة دوماً ، وهذا هو سوء الإدراك البغيض ، وهذا ما أطلقت عليه اسم « الخطيئة الأصلية » . وهدفي كفيلسوف هو أن أجد مصدر هذا الخطأ ، وقد أيقنت أن المشكلة تتطلب تعديلاً بسيطاً جداً ، كقلب الكرة نحو المجهر ومن بعدها سيصبح كل شيء تحت العدسة ، وهذه العدسة تأتيني كالبرق الخاطف، ثم يتلطخ كل شيء وتتحول إلى محارة من الظلال، ولهذا قضيت حياتي في اكتشاف قانون هذا العدسة ، وأنا أؤمن دوماً بأن عمل الفيلسوف الأول هو الكشف عن « الخطيئة الأصلية » .

« حين كنت أصغر عمراً ، شعرت بهذا الشيء طيلة الوقت ، وأدركت أيضاً نقصان وحيي المعيب ، كما تلاحظين وجود خطأ في جهاز المذياع دون معرفتك كيفية اصلاحه . ولما تقدمت بي السنون إختفى ذلك الشعور وأصابني الرعب ، ووجدت أنني كي أحتفظ به ، أحتاج إلى جهد كبير . وقد عاد إليّ هذا المساء ، كما عاد في الأيام التي سبقته ، أي منذ قراءتي لمقال جوستاف في المجلة الألمانية ، مع أنني لا أصدق بأن جوستاف وجد الجواب ، لمعرفتي بأن عقله ليس أفضل من عقلي ، بل إنه في نواح كثيرة أسوأ ، وقد عرفت خطأي هذه الليلة حين أعطاني جوستاف حبوب النيوروميسين .

« إن جوستاف قضى حياته يجري لإيجاد الخطأ ، ولكنه لم يستعمل ثقافته بل رجع إلى الجسد البشري ، وقد عرفت في الواقع ما عرفته في النظرية ، ذلك

الجزء من المشكلة جسدي محض ، وكما قال جوستاف إن الإنسان كالإله ، كلاهما عاجز تماماً ، ومن سوء الحظ أنه لم يكتشف علم الهندسة الإنسانية حتى الآن ، وقد يكتشف جوستاف علم الهندسة الإنسانية الذي تحدث عنه» ...

– هل تحاول أن تقنع نفسك بأن عملك كان خاطئاً ؟

– لا أبداً ، هل تذكرين كلمات جوستاف الأخيرة لي هذا المساء : « سأحتاج إلى مساعدتك؟ » إن بإمكانه إمداد الرؤيا . وما فائدة الرؤيا دون هدف ؟ إن الإنسان لفي حاجة إلى حياة من النظام لكي يستخدم رؤيا كهذه» ولماذا تعتقدين أن الرجال المسنين قد إنتحروا؟ هل تحسبين أنه نتيجة جسدية محضة للحبوب؟ لقد قال جوستاف جملة توضح كل شيء : قال إن النيوروسين أمده بشعور في أنه يعيش في صحراء واسعة من الحرية ، وهذا ما تلاحظينه حين يأخذ التلميذ الصغير إجازة طويلة ، ويفقد بعد فترة احساسه بالهدف فيسأم الحرية لعدم حاجته إلى حرية مطلقة ، فهي تذكره بالحدود وبعدم جدواه ، ويواجه لغزاً محيّراً ، إنه لا يريد العودة إلى المدرسة ، ولكنه سئم الإجازة الطويلة ، وهنا تنقلب حياته إلى لا قيمة. إنحبوب جوستاف لها التأثير نفسه ولكنها تفوقه آلاف المرات... إن صحراء مثل هذه تحتاج إلى علامات وإشارات ، لقد قضيت حياتي في صنع العلامات ، واعترف جوستاف لي ، بأنه إقترب من الإنتحار حين أخذ ذلك المخدر عـام ١٩٣٦ ، وعندما يجربه مرة ثانية فسأكون معه .

– هل تريد أنت تجربته ؟

– لا مناص من ذلك ، إن لجوستاف بصائر معينة ، وكما قال زوجك ، كلنا نعمل في هذا الحقل ، كلنا أطفال في هذا الحقل ...

إقترب ليقف بالقرب من النافذة بعد أن توقفت مياه السماء ، وظهر القمر لحظات من بين السحب المتحركة ، فإقتربت ووقفت بجانبه وهي تقول :

– لا أدري ما أقول ... ليتني أثق به أكثر ، وأنت قد رأيت الطريقة التي استولى بها على جوزف ساعة مجيئنا ، كنت واثقة من أنه لن يساعده على الهرب أبداً ، وخلال عشر دقائق أصبح كالدمية في يد نيومن .

أجاب تسفايغ مبتسماً : – أوه . إنه خبيث وممثل بارع ، وأنا أتحدى بأنه لم يقرأ شيئاً من إنتاج زوجك ، وأعتقد أن فرجوسن حدثه عنه .

– وإذا كان خبيثاً ؛ فكيف لك أن تكتشف أنه لم يخدعك ؟

– لأن هناك شيئاً واحداً لا يمكنه أن يكون ممثلاً فيه ، وهو الرغبة في النظام ، فحين كنت طالباً يا ناتاشا تعودت الذهاب الى مكتبة الجامعة لأنقب في كتب الفلاسفة وأفكر : « هؤلاء الرجال تعبوا من الحياة التي لا معنى لها ، وسئموا الحياة التي تفر كمحتال لا يلوي على شيء ، ولم تكن كتبهم إلا الاحتجاج على الغموض والعقم في الحياة الإنسانية ، وهي محاولة للقبض على الحياة ، ومع ذلك ، فبعد ألفي سنة من الفلسفة أجد أننا لم نتقدم خطوة،ولسنا بأفضل منهم ، ولا تزال الحياة معقدة تهرب منا . وهذه هي الرغبة في النظام وجوستاف يملكها . لأن الفيلسوف الصادق ما زال يحلم بآلة بسيطة تمكنه من القبض على الحياة ، وجوستاف قد يملك هذه الآلة » .

– وهل تعتقد أنه سوف يحل المعضلة في النهاية ؟

– ربما لا ، ولكنه قد يبدأ بداية جديدة لم يسبقه إليها أحد ، ولقد أمدني بالأمل بعد أن أصبحت عديم الاهتمام بحياتي ، ثم إن قبول الهزيمة حتم . أرأيت الآن لماذا اضطررت إلى مساعدته على الهرب ؟ قد تكون حبوبه بداية جديدة ...

أطل النادل من الباب قائلاً بأدب :

– هل تحتاج الى شيء آخر يا سيدي ؟

فأجاب تسفايغ : – لا ، شكراً ، فنحن ذاهبان عما قليل .

وساعدها على ارتداء معطفها ، ففتحت حقيبتها وتطلعت في مرآة اليد الصغيرة ، ونظرت إليه وهو يطالع محتويات حقيبتها ثم قالت :

– إنه لمثير للسخرية ... فحين جاء جوزف هذا المساء قلت له : يجب أن نذهب الى الكوخ الريفي ، فقد يكون كارل في خطر ، ووضعت مسدسي مصممة على قتله لو مسك بسوء .

وأعادت المرآة واستمرت تحدّق في البعيد ، فقال لها :

– لكنني لم أصب بسوء ، لقد عرفت هذا قبل ذهابي معه . . .

– لا أدري . . .

– ماذا تقصدين ؟

والتفتت إليه ، فهاله ما ارتسم على وجهها من برود وهي تقول بفتور :

– أقصد . . . أنني فقدتك في الحالين .

واحتضن يدها المغطاة بالقفاز وقبّلها وهو يقول :

– هذا هراء يا عزيزتي ، أنت متعبة فقط ، لنعد إلى لندن .

لقد عرف ما قصدت إليه ، وأدرك أن ما عنته كان هو الصدق بعينه .

انتهت


هذا الكتاب
هل هي رواية عاطفية ؟ أم رواية فلسفية ؟
أم رواية بوليسية ؟ أم رواية عن تأثير
المخدرات ؟ أم فضح لأساليب اليهود الاجرامية ؟
انها هذه الامور كلها في وقت واحد ، ومن هنا
غناها وما تثيره لدى القارئ من شوق وفضول . . .
وقد قال كولن ويلسون لصديقه يوسف شرورو ،
احد مترجمي هذا الكتاب : « عندما تنشر هذه الرواية ،
ستطلق مدافع انتقاد اليهود عليّ ، وسوف أتهم
بعدائي للسامية ، وقد تشترى الرواية من الأسواق دون
أن يراها احد . . . » وهل صحيح ان هناك حبوباً
مخدرة اذا تناولها الانسان شحنت عقله بمولد
كهربائي ضخم ، واطلقت طاقات حياته الخلاقة
التي تنظم تفكيره ، وكونت في داخله السوبرمان
الذي يتحدث عنه نيتشه ؟ ان رواية « الشك »
الغريبة التي كتبها واحد من اكبر مفكري
العصر تعالج هذه الامور جميعها بشكل
مثير يمسك على القارئ انفاسه !